

الكتاب
الكتاب
١٣٤

رَحَلَاتُ قَارَتِيَا

(الحاج يونس المصري)



في سماء القاهرة ومصر القديمة





مكتبة الجمهورية
بمبنى المكتبة
بمبنى المكتبة
بمبنى المكتبة

رحلات قارتيميا

(استاذ يونس المصري)

الألفا كتاب الثاني

الإشراف العام
و. سمير سرحان
رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير
لمنّى المطيعي

مدير التحرير
أحمد صليحة

الإشراف الفني
محمد قطب
الإخراج الفني
محسنة عطية
مدحت عايد

الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية

رقم الترخيص : ١٢٠٧٧

رقم التسجيل : ١٢٠٧٧

رحلات قارتينا

(الحاج يوسف المصري)

ترجمة وتعليق
د. عبد الرحمن عبد الله الشفيخ



الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية

١٩٩٤

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لرحلات فارثيما التي نشرت
بالإيطالية في عام ١٥١٠ ، وقد نقلت إلى العربية من الترجمة الانجليزية
التي أعدها جون وينتر جونز وصدرت في نيويورك عام ١٨٦٣ تحت عنوان :

The Travels of Ludovico Di Varthema in Egypt, Syria,
Arabia Deserta, Arabia Felix, in Persia, India and Ethiopia.

by

JOHN WINTER JONES

وقام بتحقيقها : George Percy Badger

هذه الرحلات وثيقة هامة ترسم صورة للشرق القديم
من عين رحالة غربى ، لذا كان من الضرورى الابقاء على
نص الوثيقة كما هو دون نقصان ، ودون زيادة اللهم
الا من تعليقات منفصلة عن النص - وقد فعلنا ذلك
لتوضيح فكرة أو تبيان موقع أو تحقيق واقعة • والذي
لا شك فيه أن النظرة الأوروبية قد تغيرت على نحو ما
لبلاد الشرق منذ قيام فارتيما (الحاج يونس المصرى)
برحلته ، لكن هذه الوثيقة أو الوثائق لا تخلو من دلالات
تاريخية على أقل تقدير • وكتب الرحلات ليست عدة
للمؤرخ فحسب ، وانما تضم بين دفتيها أدبا وفنا
وعلما ومتعة •

عبد الرحمن الشيخ

فهرس

الصفحة	الموضوع
٩	مقدمة الطبعة العربية
١٥	اهـداء
١٧	مقدمة الطبعة الأصلية
	السفر الأول
	ملاحظات عابرة عن الاسكندرية والقاهرة وبيروت
٢١	وطرابلس وحلب وحماة ودمشق
	السفر الثاني
٢٣	بلاد العرب الصحراوية
	السفر الثالث
٦٣	بلاد العرب السعيدة
	السفر الرابع
٨٥	بلاد فارس (وبعض سواحل الخليج العربي)
	السفر الخامس
٩٧	وهو السفر الأول عن الهند
	السفر السادس
١٢٥	وهو السفر الثاني عن الهند
	السفر السابع
١٥٣	وهو السفر الثالث عن الهند
	السفر الثامن
٢٠٧	سواحل شرق افريقيا
٧	

مقدمة الطبعة العربية

رحلة فارتيما ، أو الحاج يونس كما سمي نفسه (١٥٠٣ - ١٥٠٩) حول العالم ، هي الجناح البرى - ان صح هذا التعبير - لجهود البرتغاليين فى اكتشاف الطرق المؤدية الى ثروات الشرق عامة ، والهند خاصة ، وجهودهم كذلك لتطويق العالم الاسلامى ، استمرارا لما كانوا يسمونه حرب الاسترداد .

وهذه الرحلة التى تقدم اليوم ترجمتها الكاملة للعربية زامنت تقريبا رحلات فاسكو دى جاما الذى وصل الى كلكتا - بعد السوران حول أفريقيا - سنة ١٤٩٨ ، ووصلها فى رحلة أخرى سنة ١٥٠٢ ، وبينما كان رحالتنا فارتيما يبحر من البندقية قاصدا مصر فالشام فالحجاز فاليمن فالخليج ففارس ٠٠٠ الخ كانت الأساطيل البرتغالية تقيم المحطات التجارية على السواحل الهندية وتقصف مدنها .

واذا كانت مهمة دى جاما قد انتهت باكتشاف الطريق البحرى للهند ، فان مهمة فارتيما كانت أكثر تعقيدا ، فقد كان مكلفا بوصف عادات الشعوب التى يمر بها فى طريقه للهند ، وفى الهند نفسها ، وكتابة تقارير عن جيوشها خاصة ما يتعلق بالمدافع ، وحصر منتجاتها الزراعية والصناعية ، خاصة ذات القيمة فى التجارة العالمية وباختصار ، فان مهمته كانت التجسس الشامل على كل الشعوب والجماعات التى مر بها ، خاصة الاسلامية منها .

وقد قدم فارتيما نفسه لأهل الحجاز واليمن وسكان الخليج العربى وبلاد فارس ، باعتباره الحاج يونس المصرى ، أو يونس المملوك المصرى ، أما فى بلاد الهند ، فقد قدم نفسه باعتباره الحاج يونس العجمى (الفارسى) وذلك بمعاونة صديق له فارسى كان قد تعرف به فى مكة المكرمة .

لقد قام هذا الفارسي واسمه خوجه ذو النور ، بالدور نفسه الذى قام به ابن ماجد بالنسبة لفاسكو دى جاما ، فاذا كان ابن ماجد قد دل دى جاما على الطريق الى الهند دون أن يدري عواقب ذلك ، فان خوجه ذا النور قد قدم خدمات هائلة لرحالتنا فارتيميا فهو الذى أتاح له التغلغل فى المجتمعات الاسلامية فى الهند ، وقدمه مرة على أنه مملوك حاج ، ومرة على أنه الحاج يونس المصرى ، ومرة على أنه الحاج يونس العجمى ، بل ولقمه أحيانا على أنه رجل صوفى أو درويش وجعل الناس يقبلون يديه وأحيانا ركبتيه التماسا للبركة ، وبفضل خوجه ذى النور تجول فارتيميا فى الموانئ ، والمسكرات ، ورصد الاستعدادات العسكرية ٠٠ وقدم كل ذلك - كما ذكر هو فى رحلته هذه - لنائب الملك البرتغالى فى الهند .

ورغم أهمية رحلة فارتيميا ، فائنا لا نكاد نعرف عن حياته الا النزر اليسير ، اذ يقول المستشرق بيرسى بادجر ان معظم ما نعرفه عن فارتيميا هو ما ذكره فارتيميا عن نفسه ، وفى موسوعة التراجم العالمية فى القديم والحديث المطبوعة فى باريس سنة ١٨٢٧ ، نجد نصا فرنسيا نعرف منه أنه رحالة ايطالى قام برحلة فى القرن السادس عشر (هكذا دون تحديد للسنة أو السنوات) وان هذه الرحلة هامة جدا للمشتغلين بتاريخ الجغرافيا ، وللمؤرخين بشكل عام ، وأنها اضافة حققة نعرفنا بالعالم من حولنا ، ويعجب بادجر من أن المراجع التى كتبها أبناء جلدته (الايطاليون) قد أغفلته أو كادت ، فالمؤلف الايطالى زورلا Zurla لم يذكره ضمن أشهر الرحالة الايطاليين ، أما المؤرخ الايطالى فانتوزى Fantuzzi فلم يتعرض لفارتيميا الا من خلال أسطر قلائل شككا فى مطلعها من قلة المعلومات عنه ، وأنها بالتشكك فى عودته الى ايطاليا ، وتفسير ذلك أن فارتيميا لم يكن فيه من ايطاليا سوى أنها موضع مولده ، ومصدر لغته ، أما فيما عدا ذلك فالرجل كان يعمل لحساب ملك البرتغال ، الذى مول رحلته ، والذى قدم له نائبه فى الهند براءة الامتياز والغروسية ، وضمه لجيوشه المحاربة أحيانا ، لذلك فبعض المصادر تشير اليه على أنه رحالة برتغالى ، تماما مثل كولومبس الذى تعارف الناس أنه رحالة اسباني مع أنه من أصول ايطالية .

ومع كل هذا الغموض الذى يحيط بحياة رحالتنا فهناك اجماع على أنه ولد فى بولونيا Bologna بايطاليا ، وأنه رحل منها الى البندقية ، وقد ذكر هو فى رحلته أن والده كان طبيبا ، ويميل بأذجر أنه كان عسكريا لاهتمامه الكبير فى رحلته بوصف الأسلحة والتجمعات العسكرية ، كما نعلم من حديثه أنه كان زوجا وأبا .

أما عن الظروف التاريخية التى تمت خلالها الرحلة ، فمعرفةنا من الأمور الضرورية ، لفهم الرحلة والاستمتاع بها فى آن . لقد كان لإبدا لأوروبا فى أواخر القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر أن

تعيد تقويم معارفها عن العالم الإسلامى ، وأن تعيد ترتيب أوراها لمواجهة
بأساليب جديدة قوامها العلم والمعرفة . بالإضافة الى أسباب عملية ملحة
تلح على الأوروبيين لتعميق معرفتهم بالنظم السائدة فى العالم الإسلامى
خاصة . فالتاريخ الأوروبى الحديث - كما يذكر لورد أكتون Acton
يبدأ تحت مطارق العثمانيين المسلمين فالدور الإسلامى فى تشكيل التاريخ
الأوروبى لم ينته بنهاية العصور الوسيطة وإنما استمر فاعلا مؤثرا فى
التاريخ الحديث ، فقد أسهم المسلمون فى تشكيل التاريخ الأوروبى - فى
أوروبا ذاتها - بقدر قريب من اسهام الأوروبيين فى تشكيل تاريخنا
الحديث . فبعد سقوط غرناطة ظهرت حركة مجاهدى البحر أو ما عرف
بحركة القرصنة فى البحر المتوسط ، التى أثرت على اقتصاديات الدول
الإيطالية وإسبانيا والبرتغال ، فعلى سبيل المثال عندما وصلت أخبار
مفادها أن كمالي القرصان ذائع الصيت بدأ يمارس أعماله ، ارتفعت تكاليف
التأمين البحرى من ٢٪ الى ١٠٪ . لقد كان المسلمون بالنسبة للدول
الأوربية المطلّة على البحر المتوسط هم مجاهدى البحر أو القراصنة ، وكان
هؤلاء هم سكان الشمال الأفريقى ، والأندلسيون ، فكل مسلم بالنسبة لهم
هو بربرى أو هو Moor ، لذلك لاحظنا أن فارتينا يطلق هذا اللفظ على كل
المسلمين دون استثناء ، فسكان مصر (مور) أى مسلمون ، وسكان الحجاز
(مور) أى من المسلمين ، وكذلك سكان فارس والخليج وبعض مناطق
الهند ، كلهم Moors ، وبدون معرفة هذه الخلفية التاريخية يصعب
ترجمة هذا اللفظ ترجمة صحيحة وهى هنا (المسلمون) .

وإذا انتقلنا لجهة أخرى كانت فى حالة مواجهة مع أوروبا فى هذه
الفترة ، وجدنا المماليك الذين يشير لهم فارتينا فى رحلته هذه على أنهم
مسيحيون مرتدون ، لذلك نجد فارتينا يقسم سكان البلدان الإسلامية
التي زارها الى قسمين هما : المسلمون والمماليك ، مع أن المماليك أيضا
من المسلمين ، لكن ثقافة فارتينا وتعصبه جعلاه يقسم سكان مصر الى
مسلمين ومماليك ، وسكان الشام الى مسلمين ومماليك - ويقصد بالمسلمين
هنا أهل البلاد ، ويقصد بالمماليك هنا أبناء جلدته ممن تحولوا للإسلام .
ويتحدث فارتينا فى رحلته عن التدريبات العسكرية للمماليك ويشيد
بمهارتهم .

فإذا انتقلنا الى الجناح الشرقى لأوروبا قبل قيام فارتينا برحلته
وأثناءها ، وجدنا الضغط العثماني قد بلغ أشده ، فمنذ سقطت
القسطنطينية على يد محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ وحتى أيام فارتينا كان
المسلمون العثمانيون يتغلغلون فى عمق القارة الأوربية ، وقد وجد المسلمون
واليهود المطرودون من إسبانيا فى رحاب الدولة العثمانية ملاذا ، فأوروبا
كلها لم تتقبل اليهود المطرودين من إسبانيا ، بينما استقبلتهم الدولة

العثمانية ونعموا في رحابها بالحرية الدينية ، بل ووصلوا فيها لمناصب عليا وراحت فيها تجارتهم . لقد كانت كراهية الاسبان والبرتغال موجهة أساسا لليهود ، إذ كانوا يعتبرونهم أساس كل فساد ، ومنبع كل رذيلة ، كما كان الاسبان والبرتغال يعتبرون اليهود أحد أسباب خراب الاقتصاد في بلادهم . وقد انعكست هذه الأفكار وتلك المشاعر السائدة في أوروبا في ذلك الوقت على كتابات فارتيمو الذي يصف اليهود بأقذر الصفات ، ويشبههم بالخنازير البرية ، ويزعم أنه رأى منهم جماعة في الطريق الى المدينة المنورة ، وهو قول فيما يبدو غير صحيح . ويتحدث فارتيمو بدون تعاطف عن يهودي كان يصنع المدافع للمسلمين في بعض مناطق الهند ، ولم يخف تشفيه عندما قال انه ذهب - أى هذا اليهودى - كى يستحم في بركة ماء فلقى حتفه . هل أغرقه هذا الايطالى ؟ لا أدري . المهم هنا أن الأفكار التى سادت أوروبا في هذه الفترة أثرت على كتابات فارتيمو وهو ما يهمنى التركيز عليه لفهم النص الذى بين أيدينا .

بقيت بعض الملاحظات عن النص الكامل للرحلة الذى نقدم ترجمته الكاملة للقارئ العربى للمرة الأولى ، وهى :

١ - الصلاة على النبى ، والترضى على الصحابة ، ووصف مكة بالمكرمة ، والمدينة بالمنورة - كل ذلك من عند المترجم ولا وجود له فى النص الانجليزى الذى ترجمنا عنه ، كما لا يخفى على فطنة القارئ .

٢ - بعض الأفكار ذوات المعانى التى لا ترضى القارئ المسلم ، أو المسيحي أو المخالفة للحقيقة ، حذفت من المتن ، مع الإشارة لها كاملة فى الحواشى حتى لا نخل بالأمانة العلمية ، فنحن لم نحذف كلمة واحدة من هذه الرحلة .

٣ - كل ما بين الأقواس اضافة من المترجم لايراد عبارة بديلة ، أو فقرة شارحة بقصد توضيح المعنى ، أو رد تهمة عن دين أو خلق ، وقد أشرنا فى الحواشى لذلك فى موضعه .

٤ - جانب كبير من التعليقات الواردة فى الحواشى هى للمستشرق الكبير بيرسى بادجر ، وقد لخصتها ونسبتها اليه ، ولم أجهد أى مبرر لترجمة تعليقات بادجر ترجمة كاملة لأنها طويلة جدا ، وبعضها ليس بذى قيمة للقارئ العربى ، خاصة تعليقاته على رحلة فارتيمو فى مصر والشام ومكة المكرمة والمدينة المنورة واليمن والقرن الأفريقى - فهى جميعا مناطق معروفة للقارئ العربى ، أما فيما يتعلق بالرحلة الى فارس والهند وشرق أفريقيا فقد اعتمدنا اعتمادا كبيرا على تعليقات بادجر التى لخصناها كما سبق القول .

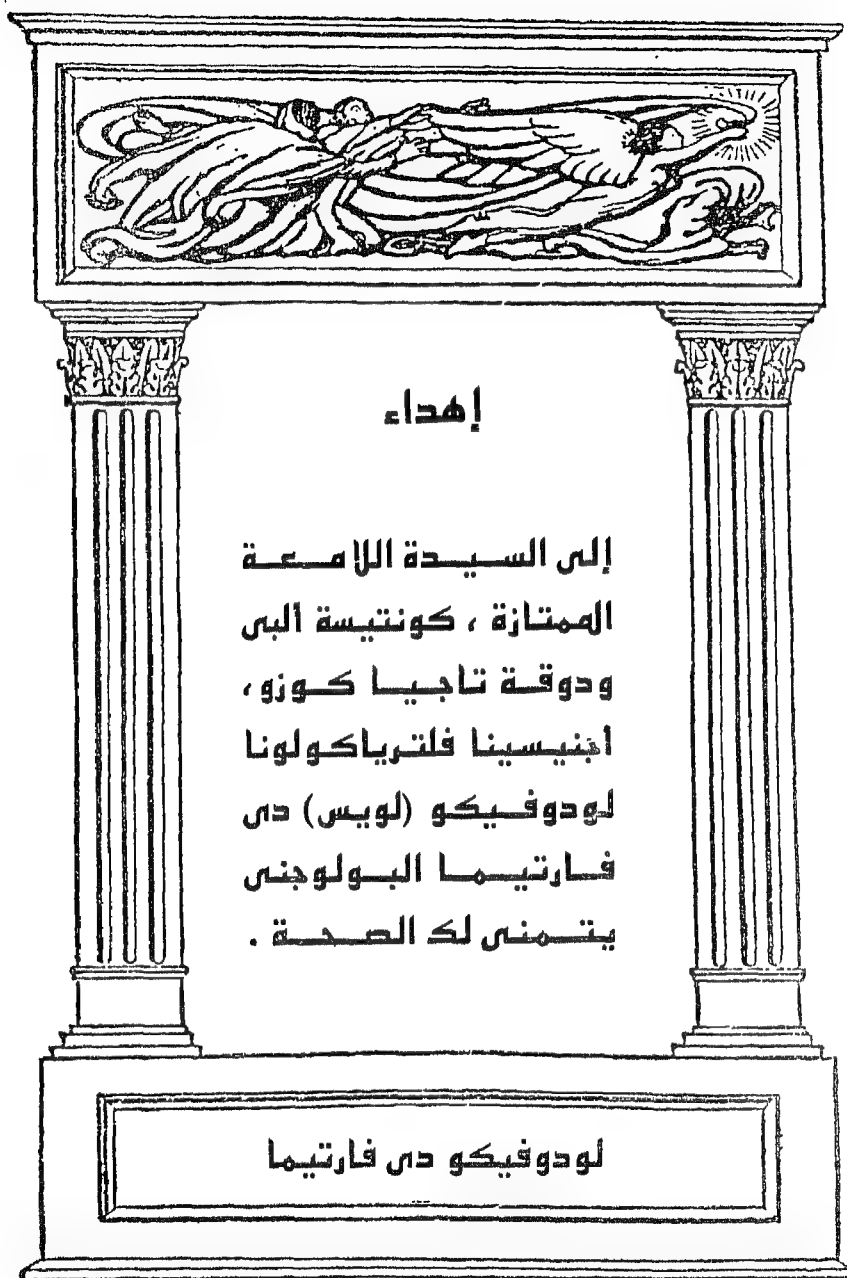
٥ - فيما يلي البيانات الكاملة للطبعة التي ترجمنا عنها :

The travels of Ludovico Di Varthema in Egypt, Syria, Arabia Deserta, Arabia Felix, in Persia, India and Ethiopia. Translated from the original Italian edition of 1510 with a preface by John Winter Jones, and with notes and an introduction by George Percy Badger. New York : Burt Franklin, 1863 (works issued by the Hakluyt Society).

وأخيرا فقد كان من الصعب انجاز هذا العمل دون مساعدة من آخرين ، لذلك فقد لزم التنويه بأننى استعنت بالأخ الأديب دكتور يحيى ساعاتى رئيس تحرير عالم الكتب السعودية فى توضيح بعض النقاط عن الأراضى الحجازية ، وأسرة تحرير مجلة التوباد التى تصدر فى الرياض لنشرها مقتطفات مترجمة من هذه الرحلة لفتت الانتباه لأهميتها ، ولمجلة جامعة الملك سعود المحكمة لنشرها مقالا لى عن حياة فارتيما ، ولكل من أمدنى بمرجع أو ساعد فى توضيح معلومة - وشكر وافر لأسرة تحرير الألف كتاب الثانى خاصة الأستاذ أحمد صليحة رئيس التحرير لافساحه مكانا لنشر هذا العمل الهام .

وعلى الله قصده السبيل

دكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ



مقدمة الطبعة الأصلية

ثمة اناس كثيرون كرسوا أنفسهم للبحث في هذا العالم ، بتقديم
 العون للبحوث والدراسات والرحلات وما له صلة وثيقة بكل هذا ، محاولين
 بذلك تحقيق رغباتهم . ومن ناحية ثانية ، هناك آخرون ، كان ذكاؤهم
 أكثر حدة ، فلم تكن الأرض لتتسع لبحوثهم وتأملاتهم – مثل الكلدانيين
 Chaldeans والفينيقيين Phoenicians فبدأوا يستعرضون المناطق
 العليا في السماء ويتفحصونها ويلاحظونها بدقة ، وقد حظى هؤلاء من كل
 من عرفت بالمديح الذي هم جديرون به ، كما حققوا ذواتهم وشعروا بالرضا
 عن أنفسهم . ولهذا السبب فقد قررت أن أتقصى بعض البقاع الصغيرة من
 كرتنا الأرضية ، شاعرا برغبة عارمة لتحقيق الغايات نفسها (أى مديح
 الآخرين وتحقيق ذاتي) ، تاركا جانبا عبء دراسة السماوات لأطلس
 Atlas وهرقل Hercules ، فاكتافهما ملائمة لمثل هذا الحمل . ولم
 أجد في نفسى القدرة (وأنا أعلم أن قدراتي على الفهم متواضعة) للوصول
 الى هذه الغاية عن طريق الدراسة والاستنتاج ، لذا فقد قررت ، أن أرى
 شخصا ، وبمعنى ، وأن أحاول التآكل من مواقع الأماكن ونوعيات البشر،
 وأجناس الحيوان ، وأن أرى بنفسى الثمار المختلفة والأشجار العطرية التي
 تنبت في مصر وسوريا ، وصحراء شبه الجزيرة العربية ، وبلاد العرب
 السعيدة وبلاد فارس والهند وأثيوبيا ، واضعا في اعتباري أنه ليس من
 رأى كمن سمع وأن دليلا واحدا تقدمه عين شاهدة يفوق في قيمته عشر
 روايات مسموعة . وبعون من الله ، شرعت على نحو ما في تحقيق هدفى
 فاستقصيت البلاد المختلفة والأهم الأجنبية وتبين لى أننى سأضيع حصاد
 جهدى اذا ما أخفيت فى نفسى ما شاهدته وعايينته وجربته ، وبدلا من هذا
 وجدت أنه يتعين إيصال هذه المعلومات والخبرات الى الدارسين . لذا فقد
 فكرت فى نفسى فى أن أقدم وصفا صادقا جدا لرحلتى هذه ، بقدر طاقاتى
 المتواضعة ، لأنى أظن أننى بهذا أقدم عملا أتمنى أن يكون مقبولا من
 قرائى . وبما أننى قد حققت السعادة والمسرة برؤية ما هو جديد من أحوال
 الناس وعاداتهم وتعرضت فى سبيل ذلك لأخطار جسام وارهاق لا يحتمل ،
 فإن فى مكنة القراء أن يحققوا القدر نفسه من السعادة ويحصلوا على

القدر نفسه من المعارف ، بدون أن يتعرضوا لارهاق أو خطر - وذلك من خلال القراءة فحسب .

فاليك يا من أهديت اليك هذا العمل الصغير المضني ، والتي صدرت باسمها هذا الكتاب فكان نعم الاستهلال . اليك يا أكثر النساء تفردا وامتيازا لقد خطرت ببالي كملاحظة ومراقبة لكل ما هو جدير بالاهتمام ، وكمحبة لكل فضيلة . ولم يكن حكى هذا عبثا فقد انتقل اليك العلم عن طريق النور المشع المنبعث من والدك دوق أوربينو Duke of Urbino . ذلك اللورد الشهير الممتاز ، فقد كنت كما كان بالنسبة لنا شمس الفضيلة والعلم .

ولم أتحدث عن أخيك ، هذا اللورد البارز ، فهو رغم حداثة سنه قد برز في الدراسات اللاتينية واليونانية ، فاقترب في نطقهما من مستوى ديموستينيوس Demosthenes وشيشرون Cicero . ولهذا فقد استخلص كل فضيلة من مثل هذه الفيوضات الواسعة المشرقة . فليس أمامك الا السرور والسعادة لهذه الأعمال المشرقة . فهو الذي يقدر على تميمها بدقة ، ويرغب في الذهاب بقدميه ، والتحليق بعقله ، ذاكر أن أحدهم مناقب أوليس Olysses البليغ ، التي جلبت له المديح ، هو أنه كان قد رأى كثيرا من عادات الناس وبلدانهم .

لكن صاحبة النبل مشغولة بأمور زوجها اللورد العظيم (فهو مثل أرتميزيا Artemisia الآخر ، موضع حبك واحترامك) وبأمور أسرته المميزة بحكمها الزاهر - والتي تشملينها بعطفك ودعائك ، لذا فاني أقول انه يكفيك ، بالإضافة لمشاغلك الأخرى أن تغذى عقلك بقراءة هذه الرحلات التي وان كانت صادقة ، الا أنها قد تكون غير منمقة ، فأنت لست كنساء كثيرات أخريات يصحن السمع للأغاني التافهة والكلمات الفارغة ، يبعثن الوقت بلا حساب ، وهن في ذلك غيرك يا صاحبة النبل ، ويا ذات العقل الملائكى ، فأنت لا تسمحين بلحظة واحدة تمر دون أن تقطفى فيها بعض الثمار الطيبات . فبفطنتك ولطفك ستدركين سريعا ما في النص من قصور ، وستخلصين الى صدق الحقائق التي أوردتها . واذا كان عملي هذا - كما أتمنى - قد حاز قبولك ولاقى استحسانك فسأعتبر نفسي قد نلت الاطراء الكافي والرضا لما قمت به من طول تجوال ، وما واجهته من غربة مخيفة ، تحملت فيها طوال أيام لا تحصى - الجوع والعطش ، والبرد

والحر ، والحرب والسجن ، وأخطارا أخرى لا تحصى ، وسأستعيد الشجاعة
 لهذه الرحلة الأخرى التي آمل انجازها في وقت قصير ، لدراسة بعض
 المناطق والجزر في الشرق والجنوب والغرب ، كما اعتزمت - ان كان ذلك
 يرضى الله - أن أتقصى مناطق الشمال وجزرها • وأتمنى أن أقضى ما بقي
 من أيامي القليلة في هذه الدنيا في انجاز هذه الرحلات الجديرة بالثناء -
 فلست أراني أصلح لعمل آخر سواها •

لودوفيكو دي فارنيزا

السَّفَرُ الْأَوَّلُ

ملاحظات عابرة عن الاسكندرية والقاهرة
وبيروت وطرابلس وحلب وحماه ودمشق

الوصول للاسكندرية

ان الرغبة التى دفعت الآخرين لمشاهدة ممالك العالم المختلفة ، هى نفسها التى دفعتنى للقيام برحلاتى هذه . ولما كانت كل البلدان مطروقة على نحو كبير بالنسبة لشعبنا ، فقد فكرت فى أنه يجب على أن أرى البلاد التى لم يرها أهل البندقية ، أو لم يترددوا عليها كثيرا . ولذا نشرنا أشرعتنا فى يوم ذى ريع مواتية ، طالبين من الله المساعدة ، وأسلمنا أنفسنا للبحر . وعندما وصلنا للاسكندرية ، احدى مدن (موانئ) مصر ، تطلعت لكل جديد ، وكنت كظمان طال انتظاره للماء العذب ، وسرعان ما غادرت الاسكندرية فهى معروفة للجميع (١) ، وعن طريق النيل اتخذت سبيلى للقاهرة .

القاهرة

عند وصولى للقاهرة وجدتها ليست كبيرة جدا كما أخبرتنا التقارير عنها قبل ذلك ، اخبارا كان يشير دهشتنا . فمحيط القاهرة يساوى تقريبا محيط روما . الا أنها على أية حال تضم مساكن أكثر بكثير من روما كما أن سكانها أكثر عددا . ومنشأ الخطأ هو وجود قرى صغيرة مختلفة خارج أسوار القاهرة مما جعل بعض الناس يظنها ضمن دائرة القاهرة ذاتها (٢) . ولا يمكن أن يكون الأمر كذلك على أية حال لأن هذه القرى الصغيرة تبعد حوالى ميلين أو ثلاثة ، كما أنها تمثل قرى منفصلة . ولن أتحدث طويلا عن عقائد المصريين وعاداتهم ، فكل الناس يعرفون أن مصر

(١) يقصد الايطاليين عامة ، والبنادقة خاصة . وقد كان لكل من البندقية وجنوة على سبيل المثال امبراطوريات تجارية فى مختلف أنحاء البحر المتوسط وكان للبنادقة جاليات بل وأحياء فى اسطنبول ، كما كان لهم حى مشهور فى الاسكندرية . وهذا يفسر قول فارتيما ان الاسكندرية معروفة تماما لشعبه - (المترجم) .

(٢) اعتبر فارتيما القاهرة هى تلك الداخلة فى حدود السور ، لكنه لم يحدد لنا أى سور يقصد . ويذكر بادجر فى تعليقه على هذه الأفكار التى أوردها فارتيما أن الأوربيين يخلطون الأمر فيعتبرون مصر العتيقة (حى مصر القديمة أو العتيقة الآن) هى القاهرة الأصلية ، وقد يقصد فارتيما بالقرى المنفصلة هنا ، حى بولاق الكبير ، وان كان هذا ما يقصده فإنه - أى حى بولاق - داخل فى زمام القاهرة . (عن بادجر)

يقطنها المسلمون Moors (٣) والمماليك (٤) ، ويحكم مصر السلطان الكبير ، الذى يخدمه المماليك ، والمماليك بدورهم سادة (حكام) للمسلمين (العرب) Moors (٥) .

بيروت وطرابلس وحلب

لم أذكر شيئا عن ثراء القاهرة وجمالها ، وعن كبرياء المماليك ، فكل أولئك معروف لأهل بلدى . لقد أبحرت الى سوريا ، ورسوت أول ما رسوت فى بيروت (٦) بعد مسافة استغرقت ٥٠٠ ميل ، ومكثت فيها بضعة أيام . وهى مدينة مزدهمة جدا بالسكان المسلمين ، وتزخر بالبضائع المختلفة ويضرب البحر بأمواله فى سورها ، وان كان عليك أن تعرف أن منطقة بيروت ليست محاطة احاطة كاملة بالأسوار ، وانما فى بعض أجزائها فقط ، وبالتحديد من ناحية الغرب ومن ناحية البحر (٧) . ولم أر فى بيروت ما يستحق أن أسجله خلا مبنى قديم يقولون انه كانت تسكنه ابنة الملك ، عندما أراد التنين the dragon اقتراسها فقتله القديس جورج

(٣) سبق أن أوضحنا فى مقدمة الترجمة العربية لم أطلق الأوربيون ، الذين تطل بلادهم على البحر المتوسط (جنوب أوروبا عامة) لفظ البربر Moors على العرب والمسلمين بشكل عام ، وقلنا ان ذلك يرجع الى قيام سكان شمال أفريقيا والمسلمين المطرودين من الأندلس بحركة جهاد كبرى روعت أوروبا فى ذلك الوقت ، كان المقصود منها استرداد أموال المسلمين الذين طردوا من الأندلس بعد أن سلبوا أموالهم بل وأبناءهم ، ولما كان هؤلاء بربرا مسلمين ، أطلق أهل أوروبا على كل المسلمين ، لفظ بربر ، من باب إطلاق اسم الجزء على الكل .

(٤) المماليك أيضا مسلمون ، وقد يقصد فارتيميا من هذا التقسيم أن المماليك كما ذكر فى موضع آخر من رحلته مسيحيون تركوا المسيحية وتحولوا للإسلام .
(٥) راجع مقدمة الترجمة العربية .

(٦) يذكر بادجر أن الايطاليين المقيمين فى سوريا على أيامه (القرن التاسع عشر) وكذلك بعض سكان الشرق الأدنى لا يزالون ينطقون ببيروت كما كتبها فارتيميا Baruti أى باروتى .

(٧) يذكر بادجر أن بيروت (باروتى) كانت لا تزال على أيامه محاطة بالأسوار احاطة كاملة من جهة البر ، الا أنه يذكر أنه لا يوجد الا امتداد قليل للسور من جهة البحر . وربما كان بعض أجزاء السور المحيط ببيروت من ناحية البر ، قد تهدم وسوى بالأرض أثناء زيارة فارتيميا ، حيث قام الأمير فخر الدين بعد ذلك بإصلاحه ، اذ أن هذا الأمير قد رمم وأصلح تحصينات بيروت فى بداية القرن السابع عشر للميلاد . ويقول بادجر ان فارتيميا ربما أخطأ فظن الأعمدة القديمة المتعددة التى تكون حدود رصيف الميناء the quay والتى يطلها البحر بأمواله لطما عتيقا - ظنها (أى فارتيميا) سورا .

St George (٨) • وهذا المبنى القديم مخرب تماما ، وقد غادرت بيروت متخذة طريقى الى طرابلس Tripoli فى سوريا التى تستغرق الرحلة اليها من بيروت يومين صوب الشرق •

وطرابلس تتبع السلطان الكبير (فى القاهرة) (٩) وكل سكانها من المسلمين ، وتضم طرابلس من كل شىء (مختلف البضائع) وقد غادرتها متجها الى حلب فى رحلة برية استغرقت ثمانية أيام ، وهى مدينة جميلة ، وتخضع لسلطان القاهرة وسكانها مسلمون ، وهى سوق لتركيا وسوريا • وهى ممر عظيم للبضائع خاصة الفارسية التى تصل الى هنا • وتعتبر حلب هى الطريق المؤدى الى تركيا وسوريا بالنسبة لأولئك القادمين من بلاد العجم Azemia (١٠) •

(٨) حكاية القديس جورج والغول - فيما يقول بادجر ارتبطت فى الأذهان فى هذه الأنحاء منذ أيام الحروب الصليبية • ويندل بادجر عن بعض الباحثين أن هذا المبنى كان كنيسة سنة ١٦٦٠ (أى بعد رحلة فارنيم بحوالى خمسين سنة) ثم حول الى مسجد ، وأن باحثا آخر (بوكوك pococke) قد أعاد المقالة ذاتها سنة ١٧٣٨ • ويذكر بادجر أن المسلمين اعتبروا القديس جورج أيضا أحد أوليائهم الصالحين فسموه النى جورج • والواقع أن هذا يعد مثالا على شموع الخرافة التى فشبت فى عصر الحروب الصليبية خاصة ، كما أنه درس للمتمسحين بعبثات الأولياء ، وإذا كان القديس جورج كان ينقذ العذارى على الجانب المسيحى ، فقد شاع بين المسلمين أن السيد أحمد البدوى (فى طنطا بمصر) يخلص الأسرى من أيدي الصليبيين (يا بدوى • • يا بدوى • • جاب اليسرى) أى أنك يا بدوى أتيت بالأسرى - (المترجم) •

(٩) هو السلطان منصوة الغورى الملك الأشرف (١٥٠٢ - ١٥١٦) ، ورغم أن قوانين السلاطين المماليك تنتهى بطومان باى (١٥١٦ - ١٥١٧) إلا أن دولة المماليك تعتبر فى حكم المنتهية منذ هزيمتهم - أى المماليك فى موقعة مرج دابق التى لقي فيها السلطان الغورى مصرعه على أيدي العثمانيين ، كما يعتبر عام ١٥١٦ هو بداية التاريخ العثمانى فى بلادنا العربية • ويذهب بعض المؤرخين الى أن السلطان سليم قد عزم على غزو دولة المماليك بعد أن هزم الدولة الصفوية سنة ١٥١٤ فى موقعة جالديران (تشالديران) • انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور العصر المماليكى فى مصر والشام • القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٥ - (المترجم) •

(١٠) يقول بادجر ان الايطاليين يستخدمون الحرف Z بدلا من الحرف J لذا ففارتيمما يقصد بالزم Azem المعجم ، ثم جمع الكلمة على النسق الايطالى فصارت Azemia وقد وجدنا هذه الطريقة فى الكتابة فى أكثر من موضع فى رحله فهو يكتب جدة Zida زدا أى أنه أحل Z محل J •

وقد لاحظت هذا الإبدال نفسه عند بعض شعوب شبه القارة الهندية ، وبالذات عند البنجالاديشيين ، فقد طلب أحدهم منى أن أوصله بسيارتى بعد الزبل ، وهو يقصد الجبل • (المترجم) •

حماء ومنين Menin

وقد غادرت حلب متجها الى دمشق في رحلة استغرقت عشرة أيام وفي منتصف الطريق كانت توجد مدينة حماة (١١) تنمو بها كميات كبيرة من القطن وفواكه طيبة جدا . وبالقرب من دمشق ، وعلى بعد ستة عشر ميلا وجدت منطقة أخرى هي منين Menin (١٢) تقع على قمة الجبل ويسكنها مسيحيون تابعون للكنيسة اليونانية وهم تابعون لسيد (حاكم) دمشق . وتوجد بها كنيسةتان جميلتان جدا ، يقال ان هيلينا ، أم قسطنطين ، هي التي أنشأتها . وتنمو التفاكهة الممتازة هنا ، خاصة العنب كما توجد بساتين رائعة وبنابيع . ولقد غادرت هذا الموضع متجها الى المدينة الشهيرة ، دمشق .

دمشق (١)

ليس من الممكن - حقيقة - أن أصف جمال دمشق وامتيازها ، تلك المدينة التي مكثت فيها بضعة أشهر لأتعلم اللغة العربية (لغة المسلمين Moorich language) لأن سكان هذه المدينة من العرب Moors والمماليك ، والمسيحيين اليونانيين . وفي هذا الصدد يجب أن أعطى نبذة عن حاكم دمشق التابع لسلطان القاهرة .

ويجب أن تعرف أنه في مدينة دمشق هذه توجد قلعة قوية جدا وجميلة يقال ان ملوكا فلورنسيا (من فلورنسا) هو بانيها على نفقته الخاصة ، وقد كان حاكما لهذه المدينة (دمشق) وأكثر من هذا ، ففي كل زاوية من زوايا هذه القلعة يتجلى الفن الفلورنسي منحوتا في الرخام . وتحيط بهذه القلعة خنادق عريضة ، وللقلعة برجان ، وجسران يمكن سحبهما ، وتوجد بها مدفعية ممتازة ودائمة (١٣) ، ويعسكر بها بشكل

(١١) يذكر بادجر ان حماة Hamath تكتب في البوراء والانجيل حماث Hamath وتقع في منتصف طريق القوافل بين حلب ودمشق .

(١٢) منين أو تل منين مشهورة بعنباها الجيد ، ويكثر الجريك الأورثوذكس في هذه البلدة ، فهم هنا أكثر عددا منهم في أي مكان آخر من سوريا . وظل وضع منين كذلك حتى القرن التاسع عشر (مختصر تعليق بادجر) .

(١٣) يذكر بادجر أن قلعة دمشق عبارة عن حصن ممتد ، رباعي الزوايا quadrangular له أبراج ، والقلعة محاطة بخندق عميق . ويقول بادجر « أذكر اننى =

دائم خمسون مملوكا تابعون للسلطان المملوكى الكبير - يقيمون مع حاكمها (حاكم القلعة) • وكان هذا الفلورنسى مملوكا للسلطان الكبير ، ويقال ان هذا السلطان الكبير قد دس له السم وقت وجود هذا المملوك الفلورنسى ، وأن أحدا لم يستطع علاجه من آثار السم الى أن هيا الله له الشفاء على يد مملوكه الفلورنسى المشار اليه ، فكافأه السلطان الكبير بأن ولاء حكم دمشق ، فشييد فيها هذه القلعة • وبعد ذلك توفي هذا المملوك الفلورنسى فى دمشق فبكاه الناس ووقروه توقيرا شديدا باعتباره وليا من أولياء الله الصالحين أوتى علما وافرا ، ومنذ ذلك الوقت كانت هذه القلعة دائما فى قبضة السلطان ، فعندما ينجح أحد السلاطين الممالك فى الوصول للسلطنة يأتيه أحد أمرائه ، ليقول له : « سيدى • • لقد خدمتك كعبد لك ردحا طويلا من الزمن ، فأعطني دمشق ، وسوف أقدم لك سيدى مائة ألف أو مائتى ألف أشرفى ذهباً *teraphim of gold* » (١٤) • وعندئذ يمنحه سيده السلطان هذا الشرف • لكن يجب عليك أن تعرف أنه اذا لم يرسل حاكم دمشق للسلطان ٢٥٠٠٠ أشرفى ذهباً فى غضون عامين فانه - أى السلطان - يسعى لقتله بالسلاح أو بأى طريقة أخرى ، أما اذا قدم للسلطان المبلغ الذى ذكرناه ، فانه يبقى فى الحكم • ويوجد دائما مع حاكم دمشق ، عشرة حكام فرعيون أو اثنا عشر *lords & barons* فعندما يريد السلطان مائتى ألف أو ثلاثمائة ألف أشرفى ذهباً من حاكم دمشق أو من تجارها - الذين لا يلقون منه معاملة عادلة ، وانما يوقع الفتن بينهم ويعرضهم للسلب والاغتياي ، فالمسلمون بشكل عام يعيشون تحت حكم الممالك كما يعيش الحمل فى ظل الذئب *Like the Lamb under the Wolf* (١٥) - فانه - أى السلطان -

= لاحظت بعض الرسوم والسماعات الدالة على النبالة المملوكية على السور الخارجى للمدينة خلال زيارتي لدمشق سنة ١٨٣٥ ، وقد حطم ابراهيم باشا جانبا من السور لتهيئة مواد البناء للمستشفى المسكرى •

(١٤) الدنانير الأشرفية ، ضربت بنفس وزن الافرنتى (الافرنجى) أو الدينار البندقى وهو الدوكات (٣٤٠ جرام) وذلك بعد أن لجأ السلطان الأشرف برسباى الى تشجيع البنادقة على سك نقودهم الافرنجية فى دار السك السلطانية بالقاهرة ، لتعصير النقود الايطالية الرائجة فى الأسواق ، وقد نجح فى ذلك فضربت الأشرفية فى مصر سنة ٨٢٩ هـ (١٣٢٥ م) ، وتم ابطال التعامل بالدنانير المشخصة (الدوكات) بسبب صور (الكفار) عليها ، واحلال الافلورية الأشرفية ، وقد ذكر ابن اياس فى بدائع الزهور أن « الأشرفية البرسببية من خالص الذهب ويرغب الناس اليها فى المعاملات •

عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ماضيها وحاضرها • القاهرة ، وزارة الثقافة ، ١٩٦٤ • ص ٩٨ - ١٠٠ - (المترجم) •

(١٥) كان نواب الشام الممالك يتمتعون بقدر كبير من الاستقلال رغم تبعيتهم الرسمية للسلطان المملوكى الكبير فى القاهرة ، وهو فى هذه الفترة قنصوة الغورى ، وكانت الفوضى انماية أطنابها بالشام ، وكان الظلم والفساد والفوضى على أشدها ، ولعل من أفضل المراجع =

يرسل خطابين لحاكم القلعة ، يذكر في أحد الخطابين - ببساطة - أن يجمع في القلعة الأمراء أو التجار . وعندما يجتمعون ، يبدأ حاكم القلعة في قراءة الخطاب الثاني ، ويقوم بتنفيذ الأوامر الواردة به فورا ، سواء كانت هذه الأوامر تقضى بشر أو تقضى بخير ، وبهذه الطريقة يجمع حاكم القلعة ما يراد من مال . وفي بعض الأحيان ، يكون حاكم دمشق قويا بدرجة كافية تجعله لا يذهب للقلعة (لا يطيع الأمر بالتوجه للقلعة) ، وإذا ما أحس الأمراء والتجار barons & merchants بالخطر ، ركبوا خيولهم ، وولوا وجوههم هاربين الى تركيا (آسيا الصغرى) . اننى لن أتحدث أكثر من هذا في ذلك الموضوع ، إلا أنه بقى أن أقول ان الرجال المنوط بهم حراسة هذه القلعة والمقيمين في أبراجها الأربعة الضخام - يكونون دائما يقظين يراقبون ، ولا يصدر عنهم أى صياح أثناء الليل ، وانما لكل منهم طبلة a drum (١٦) على هيئة نصف صندوق ، يدق عليها بعصا دقا شديدا ، ويقوم الآخرون بالاجابة على دقه بدق مماثل ، فاذا ما تأخر أحدهم في الرد بمقدار ما يستغرق الدق For the space of paternoster سجن لمدة عام .

دمشق (٢)

الآن وقد رأينا ما يتعلق بحاكم دمشق ، لابد أن أذكر بعض الأمور المتعلقة بهذه المدينة العامرة بالسكان والثروة . انه من المحال أن نتصور روعة الصناعات وأناقتها هنا .

وفي دمشق ، تجد وفرة هائلة في الغلال واللحوم ، والمنطقة كلها (قد يقصد الشام) زاخرة بالفاكهة التى لم أر لها مثيلا من قبل خاصة العنب الطازج ، المتوفر في كل المواسم . وسأذكر الفاكهة الطيبة والفاكهة الرديئة التى تنمو هنا . فالرمان والسفرجل من الأنواع الطيبة ، واللوز والزيتون ذو الحب الكبير في غاية الروعة . وتنمو هنا الورود الحمراء رائعة الجمال والتي لم يسبق أن رأيت لروعتها مثيلا . ويوجد هنا أيضا

= التى نوصي بها من يرغب في دراسة اوضاع الشام في عصر نوابه هو كتاب محمد بن طولون الصالحى الدمشقى المتوفى ٩٥٣ هـ : اعلام الورى بمن ولى نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى .

(١٦) يذكر بادجر أن الطبلة حتى أيامه (القرن التاسع عشر) تستخدم للاعلام والتنبيه حيث يقوم المسحراتية بالطواف في الشوارع يقرعون طبولهم لتذكير الصائمين بميعاد وجبة السحور قبل حلول موعد الامساك . ويذكر بادجر اسما آخر للطبلة هو باز أو باط baz.

تفاح وخوخ وكمثرى ، الا أن مذاقها سيئ جدا ، ويرجع ذلك الى أن دمشق تكثر فيها المياه (١٧) ، فالقنوات تجري خلال المدينة وغالب مساكنها بها نوافير جميلة من الفسيفساء Mosaic work والمنازل الدمشقية قدرة من الخارج ، الا أنها جميلة جدا من الداخل ، كما أنها (من الداخل أيضا) مزينة بأعمال رائعة من المرمر والرخام السماقي marble & porphyry وفي دمشق مساجد كثيرة • وأحد هذه المساجد - وهو المسجد الجامع أو المسجد الرئيسي تبلغ مساحته مساحة كنيسة القديس بطرس في روما St Peter's at Rome وصحن هذا المسجد غير مسقوف ، الا أن الأروقة المحيطة بالصحن مسقوفة • ويقال انهم يحتفظون هنا برفات القديس زكريا Zachariah النبي ، وأنهم يوقرونه توقيرا شديدا • ولهذا المسجد أربعة أبواب رئيسية من المعدن كما يضم عديدا من النافورات (الفسقيات) Fountains • ومرة أخرى نرى أين توجد أضرحة (أو رفات) القديسين المسيحيين التي لا زال يوجد عليها كثير من أعمال الفسيفساء (١٨) •

ومرة أخرى ، رأيت الموضع الذي يقال ان المسيح عليه السلام قال فيه للقديس بولس saint Paul ما نصه :

• "Saute Saule. Cur me persequeries" (١٩)

انهم يدفنون هناك كل المسيحيين الذين وافتهم منيتهم في المدينة المذكورة • وثمة نصب (ضريح) في سور دمشق يقال ان القديس بولس كان محبوسا به ، وقد أعاد المسلمون بناءه مرات عددا ، لكنهم كانوا يجدونه اذا ما أشرق الصباح مهلما ، فالملك حطمه عندما كان يسحب القديس بولس ليخرجه من محبسه • وقد رأيت أيضا المنزل الذي ذبح فيه قابيل أخاه هابيل (كما يقولون) ويبعد ميلا عن المدينة (دمشق) في الجانب المقابل لها عند سفح تل في واد عميق جدا (٢٠) •

(١٧) يعجب بادجر من أن فارتيما لم يذكر البرتقال والخوخ ، فالبرتقال متوفر جدا هنا ، أما الخوخ فحول دمشق وهو أحد صادرات دمشق الهامة ، الا أنه نظرا لمغادرة فارتيما لدمشق في أول ابريل ، فانه لم ير هذه الفاكهة لأن موسمها لم يكن قد حل • أما الزهور ذات الرائحة الرائعة والتي يستخلص منها العطر فتزرع في سهل يبعد عن دمشق بحوالى ثلاثة أميال •

(١٨) عن بادجر : ثمة جانب من مسجد يحيى أو جامع بنى أمية أو المسجد الأموي كان في أساسه كنيسة كانت تحمل اسم يحيى بن زكريا عليهما السلام وبعثت المسلمون أن رأس يحيى مدفون هنا • وقد تحدث بكنجهام Buckingham - عن المسجد ، كحديث فارتيما أى على اعتبار أنه يضم قبر زكريا عليه السلام •

(١٩) القديس بول ويسمى صول Saule •

(٢٠) توجد حكايات شعبية أخرى كثيرة على هذه الشاكلة ، مثل حكاية منزل أنانياس Ananias وفير الشهيد جورج الذي ساعد القديس بولس (بول) في الهرب عبر =

وسأتناول الآن فى الفصل التالى ما يتمتع به الممالك من حرية فى دمشق (٢١) .

الممالك فى دمشق

الممالك فى أساسهم مسيحيون تركوا المسيحية ، كان السلطان قد اشتراهم . ومن المؤكد أن وقت هؤلاء الممالك لا يضيع هدرا ، فهم يتدربون دائما ، اما على السلاح واما على فن الكتابة وتحصيل العلم ، وذلك بغية تحقيق الامتياز فى كلا المجالين . ويجب أن تعلم أن كل مملوك ، صغر أم كبر ، يتقاضى ستة أشرفيات Six Saraphi (٢٢) كل شهر بالإضافة الى نفقاته ونفقات حصانه ونفقات أسرته ، الا أن ما يصرف له يزيد فى حالة انضمامه الى تجريدة عسكرية ذاهبة للحرب (٢٣) وعندما يذهب الممالك الى المدينة ، يكونون دائما فى صحبة بعضهم بعضا ، أى فى مجموعات من ثلاثة أو اثنين مخافة أن يتعرضوا للخرى disgrace ان كانوا فرادى . فان حدث أن التقوا بفتاتين أو ثلاث ، انتهزوا هذه الفرصة واهتبلوها ، وإذا لم يلتقوا بهن كمنوا لهن فى أماكن مخصوصة كالخانات الكبيرة (٢٤) فإذا مرت الفتيات أو النسوة أمام الباب ، أمسك كل مملوك بواحدة منهن من يدها وسحبها للداخل ، ثم يأتيها كيف شاء . الا أن الفتاة تقاوم ان أراد المملوك أن يعرف من هي (أن يرى وجهها) ذلك لأن كل النساء منقبات هنا ، ولذا فهن يعرفنا الا أننا لا نعرفهن .

= نافذه فى السور وبوجد صدع فى الصخرة الواقعة على بعد ميل من دمشق ، تملص عبرها هذا الحواري من مطاردته . لا زال برتادها القسس والمسيحيون الموجودون فى دمشق . بادجر () .

(٢١) يقصد النفيخ والفساد ، كما سينضح من سياق الفصل التالى - (المترجم) .

(٢٢) عن النقود الأشرافية راجع الحاشية السابقة فى ص ٢٣ .

(٢٣) لقد جلب هؤلاء الممالك من جرجيا Georgia وبلاد الشركس Circassia

ومنجريا Mingrelia ، وقلة منهم جلبت من النمسا Austria وروسيا Russia

حيث حولوا للإسلام ، وركز سادتهم على تعليمهم ، وكانوا يتميزون بالقوة والجمال . . . وقد تمودوا على تناول طعامهم على مائدة سيدهم ، ويمكن لأى مسئول عسكري أن يشترى عبدا (مملوكا) فيصبح - مع أنه مملوك - يملك مملوكا أو ممالك . وإذا ما أنهى المملوك تعليمه وتدريبه تلقى من سيده حصانا وسلاحا كهدية بالإضافة الى الملابس الجديدة التى يتلقاها فى رمضان من كل عام . (موجز تعليق بادجر) .

(٢٤) يذكر بادجر أن الخانات أماكن مهياة لاستقبال التجار وبضائعهم وفى بعض

الأحيان تعقد فيها الأسواق لبيع بضائع التجار .

ويقول المملوك لمن هم بها انه يريد أن يعرف من هي وأن يرى وجهها ،
وعندئذ تقول له المهموم بها : « أخى ، ألا يكفي أن تفعل معي ما تريد
وأن تكتم رغبتك في معرفة من أنا ؟ ثم تستعطفه كثيرا كي يتركها لتذهب
لشأنها (بعد أن يكون قد أتاها) . وفي بعض الأحيان يظن الممالك
أنهم قد اقتنصوا ابنة الحاكم وأنهم سينعمون بمضاjectها ، بينما يكونون
في حقيقة الأمر قد اقتنصوا زوجاتهم (نظرا لأن كل النسوة منقيات) وقد
حدث ذلك بينما كنت في دمشق . ان النسوة في دمشق يجئن ويرحن
وقد ارتدين أثوابا حريرية جميلة فوقها عباءات صوفية بيضاء رقيقة ولامعة
كأنها حرير ، كما أنهن جميعا يلبسن صنادل Buskins بيضا أو أحذية
حمراء أو أرجوانية ويضعن حليا كثيرات حول رؤوسهن ومعاصمهن وفي
آذانهن . وعندما تتزوج الواحدة منهن - ولا يكون ذلك الا برغبتهن
ومشيئتهن - فأنها لا ترغب في البقاء مع زوجها مدة طويلة لذا فهي تذهب
للقاضي طالبة الطلاق وبعد أن يتم لها ما تشاء تتزوج بعلا آخر ، ويتزوج
زوجها السابق بامرأة أخرى . ورغم أنهم يقولون ان المسلم يتزوج خمس
نسوة أو ست (٢٥) . الا أنني شخصا لم أر مسلما في هذه المناطق قد
تزوج أكثر من امرأتين أو ثلاث على الأكثر .

ويأكل المسلمون في غالبهم في الطرقات حيث تباع الملابس ، فهم
يطبخون طعامهم على مرأى من الناس ويأكلونه وهم جلوس في الطريق .
ويوجد هنا خيل بأعداد كبيرة جدا ، بالإضافة للجمال والجواميس والأغنام
والماعز . وفي دمشق جبن طازج وطيب بوفرة ، وإذا أردت أن تشتري
حليبا فثمة أربعون أو خمسون من الماعز يمر بها راعيها عبر طرقات المدينة
كل صباح (ولهذه الماعز آذان طويلة يبلغ طول الأذن منها ما يزيد على
الشبر) ويقوم الراعي باحضار بعض الماعز الى غرفتك حتى ولو كنت
تسكن في الطابق الثالث ، ثم يقوم بحلبها في حضورك - وفقا للكمية التي
تريدها - في اناء معدني جميل . ويوجد هنا كثير من الماعز الحلوبة (٢٦) .
وتباع هنا أيضا كميات كبيرة من الكمأة (الفقع) ففي بعض الأحيان
يصل الى هنا خمسة وعشرون أو ثلاثون جملا محملة بها ، وسرعان ما تنفد
الكمية في غضون ثلاثة أيام أو أربعة . وترد هذه الكمأة من أرمينيا
وآسيا الصغرى (تركيا) (٢٧) ويسير المسلمون وهم يرتدون عباءات

(٢٥) لا يبيح الشرع الاسلامي الزواج بأكثر من أربع ، ومن الواضح أن الأمور
اختلفت على فارسما - (المترجم) .

(٢٦) يذكر بادجر أنه حتى أيامه كانت هذه العادة سائدة في دمشق .
(٢٧) يذكر بادجر أن الكمأة توجد بكميات كبيرة في مواسم معينة من كل عام على
ضفاف دجلة والفرات ويحملها البدو مسافات طويلة لبيعها ، وينراوح سعر الاقة من شلن
الى ستة شلنات .

طويلة وواسعة دون أحزمة من الحرير أو القماش ويرتدى غالبهم سراويل
 صوفية وأحذية بيضا • وعندما يلتقى أحد المسلمين (يقصد من أهل
 البلاد) بأحد الممالك حتى ولو كان (أى هذا المسلم) تاجرا مرموقا
 ذا مكانة ، فلا بد له أن يظهر الاحترام الفائق للمملوك ولا بد أن يتنحى
 ليوسع له الطريق ولا بد أن يتخلى عن مكانه له ، وإذا لم يفعل ذلك ،
 ضرب بالعصا • ويمتلك المسيحيون هنا مخازن ومحلات كثيرة غاصة
 بالملابس والحرير والساتان والمخمل والأواني النحاسية وكل البضائع
 المطلوبة ، ومع هذا فانهم يلقون معاملة غير حسنة •

السفر الشاخي

بلاد العرب الصحراوية

الطريق من دمشق الى مكة المكرمة

ما ذكرناه من أمور متعلقة بدمشق هنا ، فك يكون مفصلا تفصيلا غير ضروري ، فالظروف تدعوني لكتابة رحلتى باختصار .

ففى اليوم الثامن من شهر ابريل سنة ١٥٠٣ (١) توقفت القافلة كى تتوجه صوب مكة ، ونظرا لأننى كنت شغوفا بالاطلاع على المناظر والأوضاع المختلفة ، ولم أكن أعرف ما هو السبيل لذلك ، لذا فقد كونت صداقة عميقة مع القائد المملوكى للقافلة الذى كان فى أصله مسيحيا تحول للإسلام (٢) لكى يلبسنى لباس الممالك ويعطينى حصانا جيدا ويجعلنى بصحبة الممالك الآخرين ، وقد حققت كل هذا بأن دفعت له أموالا وأشياء أخرى . وعلى هذه الحال اتخذنا طريقنا مسافرين ثلاثة أيام الى موضع يقال له المزيريب Mezeribe (٣) حيث مكثنا فيه ثلاثة أيام كى يشتري التجار من الخيول ما يحتاجون .

وفى المزيريب شيخ أسرة الزعبي العربية Zāabi or Ez. Zāabi (٤) ووفقا لما يقوله العرب فان للشيخ الزعبي ، اخوة ثلاثة وأربعة أولاد ذكورا كما أنه يمتلك ٤٠٠٠ حصان و ١٠٠٠٠ فرس ، وله هنا ٣٠٠٠٠ بعير لأن مراعيه تمتد مسيرة يومين . وعندما يفكر هذا الشيخ جديا فى شن الحرب ضد سلطان القاهرة وحاكم دمشق وحاكم القدس قانه - فى بعض الأحيان ، وفى موسم الحصاد ، وعندما يظن هؤلاء الحكام أنه بعبد عنهم بعدا يبلغ مئات الأميال - يخطط لشن غارة ذات صباح على

(١) الموافقة لسنة ٩٠٨ هـ .

(٢) يركز فارتينا فى أكثر من موضع من رحلته على أن الممالك كانوا فى أصلهم مسيحيين تحولوا للإسلام ، والواقع أن هذا قد يكون صحيحا ، لكن ليس فى كل الأحوال ، فقد عرف العالم الاسلامى نظام الممالك منذ وقت باكر ، وبعض الممالك كانوا تركا على العقيدة الوثنية الشامانية وليسوا على المسيحية ، ثم أسلموا - (المترجم) .

(٣) ذكر بوركهات فى كتابه رحلات الى سوريا أن قافلة الحجاج تمكث عادة فى المزيريب عشرة أيام لاتاحة الفرصة لتجمع الحجاج القادمين من أماكن مختلفة ، وللتزود بالمؤن ولدفع الأتاوات لمختلف القبائل البدوية التى ستمر القافلة خلال أراضيها .

Burckhardt, Travels in Syria, pp. 240-242.

(٤) كتبها فارتينا هكذا Zambei ، وما ذكرناه فى المتن اعتمادا على ما ذكره بوركهات فى الملحق الثالث لكتابه Travel in Syria ، وكذلك اعتمادا على تعليقات بادجر فى الطعة التى لترجم عنها والتى عرفنا بها فى مقدمة هذه الترجمة ، إذ يذكر بادجر نقلا عن بوركهات فى كتابه السالف ذكره أن الزعبي Zāabi هو اسم لأسرة عربية (بدوية) مهمة فى هذه المنطقة .

مخازن الغلال فى المزيريب حيث يكون الشعير والغلال قد وضع باحكام فى الثرار ، فينبه الشيخ الزعبي ورجاله ويولون دون أن يلحق بهم أحد . وفى بعض الأحيان يظل الشيخ يعدو بأفراسه طوال النهار وطوال الليل دون توقف ، وعندما يصل للجهة التى هو قاصدها فى نهاية المطاف يقوم بتقديم حليب النوق لأفراسه ، فهو - أى حليب النوق - منعش جدا ويساعد على استرداد الحيوية Very refreshing . وصدقوني ان قلت انه يبدو لى أنهم لا يهدون وانما يطرون كالصقور ، فقد كنت معهم ، ويجب أن تعلم أن غالبهم يمتطون الخيول غير مسرجة ، وهم بأثوابهم المعتادة ، ولا يستثنى من ذلك الا علية القوم . ويتكون سلاح الواحد منهم من رمح (حرب) Lance من خيزرانة هندية Indian Cane يبلغ طوله عشرة أذرع أو اثني عشر ذراعاً Cubits ، وفى آخرها قطعة من الحديد . وعندما يذهبون للقتال يتراصون متجاورين كأنهم وكائن starlings يحاذى بعضها بعضا . وهؤلاء العرب (البدو) الذين اشرت لهم أنفا ذوو أحجام صغيرة ولونهم أصفر داكن ، وأصواتهم كأصوات النساء feminine Voice وشعورهم طويلة سوداء كثيفة . والحق أقول لكم ان أعدادهم هائلة لا يمكن احصاؤها وهم لا يكفون عن الاقتتال فيما بينهم . وهؤلاء البدو يقطنون الجبل ، وعندما يحين موعد مرور القوافل المتجهة الى مكة المكرمة ينزلون من الجبل ويكننون بقصد النهب . وهم يحملون زوجاتهم وأطفالهم وكل أمتعتهم وخيامهم فوق ظهور الجمال . وخيامهم تشبه خيام العسكر وهى مصنوعة من الصوف الأسود ، ولها منظر كتيب (٥) .

وفى الرابع عشر من شهر أبريل سنة ١٥٠٣ (٦) غادرت القافلة (التى أشار إليها أنفا ، وهى قافلته التى رحل معها) المزيريب وكانت تضم ٣٥٠٠٠ جمل وحوالى ٤٠٠٠ شخص ، وقد كنا ٦٠ مملوكا نحرس كل هذه القافلة ، وكان ثلث المماليك (أى ٢٠ مملوكا) يسير فى مقدمة القافلة وثلثهم الثانى فى وسطها ، بينما كان ثلث المماليك الأخير فى مؤخرة القافلة .

(٥) يذكر بادجر أن ما ذكره فارتينا من وصف لحياة البادية وأساليب أهلها فى الحرب ، مازال صحيحا الى أيامه (أى أيام بادجر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر) .

(٦) ورد فى متن الرحلة تاريخ ١١ ابريل ، الا أن بادجر ذكر فى تعليقه أن هذا من أخطاء فارتينا نتيجة العجلة ، فقد غادر فارتينا دمشق فى ٨ ابريل واستغرق ثلاثة أيام حتى وصل المزيريب ، ومكث فيها - أى فى المزيريب ثلاثة أيام ، وبناء على ذلك فقد استنتج بادجر أن التاريخ هو ١٤ ابريل وبناء على استنتاج بادجر قمنا بالتعديل ، واثبتنا ما يطالعه القارئ فى المتن .

ويجب أن تفهم أننا أتممنا رحلتنا - الى مكة - طوال الوقت ، بهذه الطريقة (على هذا النسق) . ان الرحلة من دمشق الى مكة تستغرق أربعين نهارا وأربعين ليلة . وعلى أية حال فقد خرجنا من المزيريب صباحا ، وتابعنا سفرنا عشرين ساعة ، وعندئذ أصدر قائد القافلة اشارات معينة لكل جماعة من جماعات القافلة تعنى أن كل القافلة يجب أن تتوقف ، وأن على كل جماعة أن تلزم مكانها : وهكذا توقفنا أربعاً وعشرين ساعة وتم انزال الأحمال من فوق ظهور الجمال ، وراح الجمع الجميع يطعم ، ويطعم دوابه . ثم تلقت القافلة اشارة فأعاد الجميع الأحمال الى ظهور الدواب في الحال . ويجب أن تعلم أنهم يقدمون للجمال ما يوازي خمسة أرغفة - فقط - من الشعير غير المطبوخ ، ولا يزيد حجم الرغيف الواحد عن حجم الرمانة(*) . ثم يمتطون خيولهم ويستمررون طوال الليل فطوال النهار التالي في سفر ، فإذا علمنا أن هناك اثنتين وعشرين ساعة سابقات ، فأضف اليهن أربعاً وعشرين ساعة أخريات . وكانت القافلة تجد ماء طوال ثمانية أيام وذلك بحفر الأرض المتربة أو الرملية أو من الآبار وأحواض المياه . وبعد انقضاء الأيام الثمانية تتوقف القافلة ليوم أو يومين ، حتى تنوء الجمال بأحمالها بعد أن غدا مشيها وثيذا ، إذ كان الجمل الواحد يحمل أحمالا توازي ما يحمله بغلان ، وكان الركب يقدمون لهذه الحيوانات البائسة (الجمال) ماء تشربه ، مرة واحدة ، كل ثلاثة أيام وعندما كنا نتوقف عند مورد ماء ، كان يتحتم علينا دائما أن نخوض معركة مع أعداد كبيرة من العرب (البدو) ولكنهم لم يقتلوا منا أكثر من رجل وامرأة ، فهم رغم كثرتهم الا أن انحطاط عقولهم جعلنا - مع أننا لا نزيد عن ستين مملوكا - قادرين على مقاومة أربعين ألف بدوى أو خمسين ألفا فهؤلاء الوثنيون (**) (يقصد البدو) لا يجيدون استخدام السلاح كالماليك ، ويجب أن تعلم أنني كُنت خبرة ممتازة عن هؤلاء المماليك . خلال رحلتي معهم ، فقد رأيت وآخرون ، المملوك يأخذ أحد عبده ويضع الرمانة فوق رأسه ، ويجلسه (أى يجلس عبده) على بعد اثنتي عشرة خطوة أو خمس عشرة خطوة ، ثم يصوب سهمه نحو الرمانة ، ويطلقه من قوسه ، فيصيبها (أى الرمانة) ، ومرة أخرى ، رأيت مملوكا يجرى بالفرس عدوا ، ثم فك سرجه ووضعه فوق رأسه ثم أعاده لموضعه فوق ظهر الفرس ، دون أن يسقط (لا السرج ولا الفرس) ، وكان كل هذا

(*) تصنع هذه الوجبة من دقيق بعد عجنه ، ثم يكور كهيئة الكرة وتستخدم مثل هذه الوجبات لعلف الخيول خلال الرحلات الطويلة .

(**) استخدم فارتينا كلمة pagans التي تعنى الوثنيين ، الا أن هذا نوع من التجنى ، فهؤلاء البدو - مهما كان تخلفهم المكدى الا أنهم مسلمون ، شاعت بينهم البدع ، أو قست قلوبهم ، أما وصفهم بالوثنيين في هذا العصر فذلك غير صحيح .

يحدث والفرس منطلقة بسرعتها القصوى • وسروج خيل الممالك على
شاكلة السروج الأوربية (٧) •

(٨) مدينة سدوم وعاموراء Gomorrah

عندما سافروا اننى عشر يوما ، وجدنا وادى سدوم وعاموراء
Gomnorah • حقا ان الكتاب المقدس لم يكذب ، فالمرء يرى رأى العين
أنهما قد خربنا نكالا من الله (بسبب معجزة الرب) وانى أقول انه توجد
ثلاث مدن كانت فوق قمم ثلاثة جبال ، ولازال يوجد فوقها على ارتفاع
أذرع ثلاث أو أربع ، ما يبدو دما يشبه الشمع الأحمر مختلطا بالتراب •
أقول لكم الصديق ، اننى أعتقد - بناء على ما رأيت - أن شعبا شريرا
كان هنا فكل ما يحيط بهذه البقعة صحراء قاحلة ، فالأرض موات لا تنبت
ما يؤكل ، والماء معدوم ، وقد كانوا يعيشون على المان Manna وقد عاقبهم
الله لأنهم كفروا بأنعمه For not acknowledging the benefits they
recieved فحقا بهم عذابه وترك الله ديارهم خرابا لتراها الأجيال
everything is still seen in ruin

لقد عبرنا هذا الوادى الذى يبلغ طوله - على الأقل - عشرين ميلا ، وهناك
مات ثلاثة من الثلاثة والثلاثين شخصا العطاش ، وقد دفن كثيرون فى
الرمال وتركتم رؤوسهم دون أن تغطى بالرمال ، لأنهم لم يكونوا قد

(٧) لقد فسر فارتينا نفسه هذا فى أكثر من موضع فى رحلته هذه ، فهؤلاء الممالك
يقضون معظم أوقاتهم فى التدريب • فالممالك يتم الحصول عليهم صفارا - بالشراء أو
بأى وسيلة أخرى كانت - ليدعم بهم الحاكم حكمه ، لذا فهو يعنى بتدريبهم وتنشئتهم •
عن الممالك وتدريبهم العسكرى ، انظر على سبيل المثال :

- ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة الممالك الجراكسة • القاهرة ، ١٩٦٠ •
- سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر فى عهد دولة الممالك البحرية • القاهرة ، ١٩٥٩ •
- سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام • القاهرة ، ١٩٦٥ •
- السيد الباز العرينى : الاقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين الممالك • القاهرة ، ١٩٥٦ •

(٨) أهل سدوم هم قوم لوط الذين أشار اليهم القرآن الكريم • يقول ابن منظور
وفيه مدينتان وهما سدوم وعاموراء ، أهلكهما الله فيما أهلكه • ويقال كان سدوم ملكا
فسميت المدينة باسمه • وقد ورد ذكر لوط عليه السلام ، وقومه - قاتلهم الله • فى
القرآن الكريم ، فى ٢٧ موضعا ، وكان قوم لوط يأتون الفاحشة ما سبقهم بها أحد من
المالين • وقد أفاضت تفاسير القرآن الكريم فى ذكر أمرهم • انظر تفسير ابن كثير أو
الطبرى أو القرطبى ... الخ عند الآيات الآتية ، على سبيل المثال :

هود/٧٠ - ٧٤ - ٨١ - ٨٩ ، الحجر/٥٩ ، ٦١ ، الشعراء/١٦٠ - ١٦١ - ١٦٧ •
النمل/٥٤ - ٥٦ ، القمر/٣٣ ، ٣٤ ، الأنبياء/٧١ - ٧٤ ، العنكبوت/٢٨ ، ٣٢ ، ٣٣ -
(المترجم) •

أسلموا الروح تماما (٩) . وبعد ذلك وجدنا جبلاً صغيراً يوجد بالقرب منه بئر بها ماء ، فعمننا الفرح . وقد حططنا رحالنا فوق هذا الجبل . وفي الصباح الباكر ، فى اليوم التالى قسم ٢٤٠٠٠ بدوى قائلين ان الماء مأوهم وأنه يجب أن ندفع لهم لقاء ما أخذنا منه وقد أجبناهم بأننا لن نستطيع الدفع فالماء ماء الله ، فشرعوا يقاتلوننا ، فتحصنا وجعلنا جمالنا سترًا بيننا وبينهم (١٠) ، وجلس التجار بين هذه الجمال ، ورحنا نناوشهم بشكل مستمر ، وذلك لأنهم حاصرونا نهارين وليلتين ، الا أن أموراً استجذبت آخر الأمر ، فلم يعد لدينا ، ولا لديهم ، ماء للشرب . لقد أحاطوا احاطة كاملة بالجبل مهددين باختراق صفوف القافلة . ولاننا

(٩) يذكر بادجر تعليقاً على ذلك ما ملخصه : بعد اثني عشر يوماً من الرحلة ، لابد أن يكون رحالتنا قد اجتاز وادى البحر الميت اجتيازاً تاماً ، أما وأنه يقول انه مازال بجوار البحر الميت ، فمعنى هذا أنه رجع لرواية الكتاب المقدس (التوراة والانجيل) Scriptural narrative عن خراب مدينة سدوم وغيرها من المدن فى هذا الوادى (أشار القرآن الكريم أيضاً لذلك - انظر الحاشية السابقة) والى جوار سدوم لازال الانخفاض بادياً بالغرب من البحر الميت ممداً من بانياس Banias عند سفح جبل الشيخ الى رأس خلج العقبة . والواقع أن منطقة البحر الميت هى أكثر مناطق العالم انخفاضاً ، وقد سمعت فى برنامج تليفزيونى يقدمه الشيخ الزنداني تفسيراً جديداً لقوله تعالى : « ألم ، غلست الروم فى أدنى الأرض .. » . أى أكثر الاراضى انخفاضاً ، وهو اعجاز علمى قرأنى ، لأن الروم غلبوا فى منطقة البحر الميت .

ونعود الى حديث بادجر ، فنجدته يقول : ان طريق فارتيما اذا كان هو طريق الحج المعروف الآن (أيام بادجر) فانه يكون بعيداً حوالى ٢٠ ميلاً الى الشرق من وادى عربى Aropa ، (وهو اسم الوادى الى الجنوب من البتراء) ، ومن غير المستبعد أن يكون فارتيما قد خلط بين الممر الجذب العاقل الذى يتشعب هنا من سلسلة الجبال الرئيسية ، والمعروف بعقبة الشامى ، وبين وادى سدوم وعاموراء ، فتحدث عن عقبة الشامى باعتبارها وادى سدوم وعاموراء ، وهذا خطأ جلى . ومما يجعلنا نميل الى ذلك أن بوركهارت وصف عقبة الشامى باعتبارها تقع على مسيرة اثني عشر يوماً من دمشق ، وهو ما ينطبق على مقالة فارتيما ، وقد وصف بوركهارت عقبة الشامى كالتالى : « طريق الحج حتى عقبة الشامى يحف به صحراء قاحلة من جانبيه . وتستمر السلسلة الجبلية مسافة تقرب عشر ساعات الى الغرب من طريق الحج ... وهنا ينحدر طريق الحج فى هوة سحيقة Chasm تستغرق القافلة نصف ساعة للوصول لقاعها .. وينكون الجبل من حجارة رملية حمراء » .

ويقول بادجر تعليقاً على ذلك : أن فارتيما قد توهم أو أنه غلب الهكارة الدينية على الحقيقة الموضوعية فهيا له خياله أن هذا اللون الأحمر الناتج عن التركيب الجيولوجى للصخور ما هو الا دم يبدو كشمع أحمر ، نتيجة التدمير الالهى لسدوم مع أنه كان بعيداً تماماً عن منطقة سدوم هذه . وهكذا يتضح لنا أن فارتيما قد وقع فى وهم نتيجة تراهه الدينى ، تماماً كما وقع فى وهم آخر أو كذبة أخرى بادعاء وجود جبل يسكنه اليهود قرب المدينة المنورة ، وهو ما سنوضحه فى حاشية آتية .

(١٠) عندما يسرع البدوى فى الدفاع عن نفسه ضد مهاجميه يشنى ركة رجله اليمنى ويتشبث برسن البعير حتى يمنعه من النهوض ، ويتخذونه - أى الجمل - كمتراس ، يحاربون من خلفه .

لم نعد قادرين على مواصلة الحرب ، فقد ناقش قائد القافلة الأمر مع التجار المسلمين وانتهى الأمر بأن قدمنا لهم (أى لهؤلاء البدو) ١٢٠٠ من الدوكات الذهبية Ducats of Gold ، فأخذوها ، ثم طالبوا بمبلغ ١٠٠٠ من الدوكات الذهبية مرة أخرى ، فأدركنا أنهم يريدون شيئاً آخر الى جانب المال . وعلى هذا فان قائد القافلة الحكيم دبر الأمر مع القافلة بأن أمر كل الرجال القادرين على حمل السلاح بألا يركبوا الجمال ، وأن يعد كل منهم سلاحه . وأقبل الصبح فجعلنا كل القافلة فى المقدمة ، وظللنا نحن المماليك فى المؤخرة .

لقد كنا جميعاً ثلاثمائة مسلح ، وقد شرعنا فوراً مع انبلاج الصبح فى القتال ، فلم يستطع البدو أن يقتلوا من قافلتنا الا رجلاً وامراً ، أما نحن فقد قتلنا منهم ١٦٠٠ شخص (١١) . ولا تدهش لهذا العدد الكبير الذى قتل من جانبهم ، فذلك يرجع الى أنهم كانوا جميعاً عراة ويركبون خيولاً غير مسرجة (١٢) .

جبل يسكنه اليهود (١٣)

فى نهاية اليوم الثامن وجدنا جبلاً يظهر محيطه ما بين عشرة أميال واثني عشر ميلاً ، يقطنه ما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف يهودى ، يروحون

(١١) عن الدوكات ، انظر الحاشية ، ص ٢٣ .

(١٢) يذكر بادجر أن ذلك ربما كان من قبيل المبالغة ، رغم أن المؤرخ سترابو Strabo حدثنا عن معركة بين الجيش الرومانى بقيادة ألبوس جالوس Gallus وعرب جنوب الحجاز ، ولم يقتل فى هذه المعركة من الرومان الا اثنان أما عرب الجنوب فقتل منهم عشرة آلاف .

(١٣) يحدد فارتيميا المكان باعتباره يبعد عن المدينة المنورة ثلاثة أيام ، مما يجعل هذا المكان هو الهدى Hedy المذكورة فى خط سير رحلة بوركهات باعتبارها محطة التوقف الرابعة بعد العشرين لطريق الحج الحديث ، للقادمين من دمشق ، والتى تبعد عن خيبر أربع ساعات . (راجع الملحق الثالث لكتاب رحلات فى سوريا لبوركهات) Travels in Syria والواقع أن بادجر فى دراسته التى نوهنا عنها فى أكثر من تعليق قد ألقى ظلالاً كثيفة من الشك على رواية فارتيميا هذه عندما ذكر أنه من غير المعقول أن يكون طول اليهود خمسة أشبار وعزا ذلك الى سوء تقدير فارتيميا لبعد المسافة ، أو لانه نقل حديثاً خاطئاً عن المسلمين . وفى رأى أن هذا التشكك الذى أورده بادجر يلقى ظلاً من انشكاف على الرواية كلها ، بالإضافة الى أن الرحالة الذين زاروا الحجاز بعد ذلك (بوركهات وبيروتون مثلاً) لم يشير الى شئ من هذا .

والواقع أن أحداً من الباحثين الغربيين الذين كتبوا عن الرحالة وكتبهم لم يفسر ما كتبه فارتيميا عن اليهود التفسير الصحيح لسبب بسيط وهو أنه لم يضع الرحلة ضمن نطاقها =

ويجيئون عراة ، ويبلغ طول الواحد منهم خمسة أشبار أو ستة أشبار

= التاريخي ، كما أن أحدا من المؤرخين العرب لم يفعل ذلك أيضا . وحقيقة الأمر واضحة ، وهي أن فارتيمّا قد قام برحلته سنة ١٥٠٣ أي بعد سنوات قلائل من طرد غير المنجيحيين من الأندلس (من مسلمين ويهود) وأن السنوات التي أعقبت سقوط غرناطة قد شهدت حملة مسعورة من التاج الإسباني استمرت حتى سنة ١٥١٦ لطرد المسلمين واليهود ، وتشير المراجع الأوروبية الموثقة (شارلزي) (Charles lea) مثلا) إلى أن طرد المسلمين من إسبانيا كان عملا كنسيا خالصا ، وأن الناس (الشعب) في إسبانيا كانوا غير راضين عن طردهم ، وكانوا يرون الاكتفاء بإسقاط الدولة الإسلامية سياسيا ، ويشير شارلزي Lea إلى أن انهيارا اقتصاديا حاق بإسبانيا بسبب طرد المسلمين الذين كانوا يكونون قوة عاملة لها شأنها ، كما يشير إلى الحزن العام الذي شمل إسبانيا عدة سنوات بسبب التوجيهات الكنسية في هذا الشأن ، إلا أن شارلزي Lea عاد فذكر أن المقصودين بالكره والذين رحب الجميع بطردهم كانوا هم اليهود الذين كانوا يشتغلون بالربا (وهذه نصي كلمات Charles) والذين كدسوا ثروات طائلة . ولم يكونوا يعملون في الأعمال الزراعية أو الشاقة . ولم يكن الإسبان في أواخر القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر ، هم وحدهم الذين يكرهون اليهود كراهية التحريم ، وإنما كانت أوروبا كلها (بما فيها إيطاليا) ترى فيهم عناصر مدمرة للاقتصاد الوطني (راجع في ذلك ما كتبه بول كولز Coles في كتاب **The Ottoman Impact on Europe**)

والخدير بالذكر أنني ترجمت هذا الكتاب الهام وهو قيد الطباعة الآن . لقد قام فارتيمّا برحلته إذن وكل أوروبا عامة - وأوروبا حوض البحر المتوسط خاصة - تغلّى كرها وحقدا واحتقارا لليهود ، مطالبة بإبعادهم عن أوروبا . فكانما فارتيمّا يريد أن يقول لقراه الأوروبيين هؤلاء هم اليهود الجنس القزم القذر ، وهكذا وجدتهم ، فاقبل حكايته هذه عن يهود أقزام جبناء قذرين في جبل يشبه الجزيرة العربية . لكن الرحالة الذين أتوا بعده لم يذكروا شيئا من هذا . أنها إذن أكاذيب لم تثبت أمام البرهانه التاريخي . وثمة عامل آخر تشير إليه المراجع الأوروبية التي كتبت عن القرن السادس عشر ، وهو أن البنادقة والجنوبيين بعد أن تعرضوا لضغط المد الإسلامي العثماني خاصة بعد سقوط القسطنطينية اتجهوا في استثمار أموالهم إلى إسبانيا والبرتغال فوجدوا من اليهود هناك منافسة خطيرة (أشار لذلك Coles و Jörri و Lea) وهذا يفسر بعض الشيء الدعايات فارتيمّا . بقي أن نذكر دليلا آخر وإن كان متأخرا شيئا ما عن الفترة التي قام بها فارتيمّا برحلته ونعني به أن الاصلاحيين الأوروبيين في القرن السادس عشر (مارتن لوتر ورفاقه) قد أفتوا في مرحلة من مراحل الحركة الاصلاحية الدينية بتحريم الربا Usuary ، مؤكدين أنه حرفة اليهود الذين يمثلون أقذر شعوب الأرض وأكثرها استغلالا (كذا) ، وفي هذا من الأدلة ما يكفي عن موقف الأوروبيين أيام فارتيمّا وطوال القرن السادس عشر من اليهود ، مما يفسر ادعاءاته ووصفه لهم .

ومن عجب أن اليهود في محتهم تلك لم يجدوا مكانا يلجأون إليه إلا الدولة العثمانية التي احتضنتهم ، وبلاد المغرب التي استقبلتهم (انظر في ذلك Paul Coles حديثه عن كبار التجار اليهود - خاصة ناسي Nassi - الذين استقبلتهم الدولة العثمانية) فكان جزء هؤلاء كما اتضح فيما بعد هو جزء سنمار .

بقي القول أن فارتيمّا - خاصة وأنه لم يذكر أنه أجرى حوارا مباشرا مع هؤلاء اليهود المزعومين - كما هي عادته في اجراء الحوار في مواضع أخرى من رحلته - قد يكون سمع ذلك من بعض القبائل العربية ، ومن المعروف أن النزاع القبلي والعصبية القبلية ، السائدتين في هذه الفترة كانا يجيزان كل شيء ، قتالا ، وسببا وأدعاء . ويمكن لمن أراد مزيدا من التوضيح لظروف أوروبا في هذه الفترة مراجعة مقدمة الترجمة - (المترجم) .

surās وأصواتهم كأصوات النساء ، ويغلب عليهم السواد ، ولا يأكلون
 إلا لحوم الغنم ، وهم مختونون (١٤) ويعترفون بأنهم يهود ، وإذا ما وقع
 أحد المسلمين بين أيديهم ساءلوه حيا (١٥) . وعند سفح هذا الجبل وجدنا
 بركة تجمع ماؤها في موسم هطول الأمطار ، وقد حملنا من مائها ١٦٠٠٠
 بعير ، وكان اليهود غير سعداء بفعلنا هذا ، وراحوا يحومون حول الجبل
 كالماعز البرية إلا أنهم لم ينزلوا للسهل لأنهم يعادون المسلمين حتى الموت .
 وكان يوجد عند سفح الجبل بالقرب من الماء الذي أشرت له في السطور
 السابقة ، ست أو ثمانى شجيرات شائكات جميلات ، وجدنا قمرتين (١٦)
 two turtiedoues قد عششتا فيها ، وقد بدت لنا كمعجزة في وسط هذا
 الجو القاحل ، فقد سافرنا خمسة عشر نهارا و ليلة لم نصاف خلالها طيرا
 واحدا أو حيوانا . وقد استأنفنا رحلتنا في اليوم التالى وبعد يومين
 وصلنا لمدينة النبي Medinathalnabi (١٧) . وبالقرب من المدينة
 المنورة - على بعد أربعة أميال - وجدنا بئرا ، كانت القافلة قد توقفت
 عندها يوما حيث استحم كل فرد من أفراد القافلة ووضع ثيابه وارتدى
 ملابس الاحرام من قطع كتان نظيفة Clean linen . قبل دخول مدينة
 النبي التي تضم حوالى ثلاثمائة منزل ، ويحيطها سور من طين (١٨) .
 ومساكن المدينة المنورة قد شيدت جدرانها من الحجارة . والمنطقة المحيطة
 بالمدينة المنورة قد أصابها (٠٠٠٠) . (١٩) فهي قاحلة مع استثناء واحد ،
 فعلى مرمى حجرين خارج المدينة ، يوجد حوالى خمسين أو ستين نخلة في
 بستان . بآخرة قناة ماء Conduit of Water تنحدر أربعها وعشرين درجة

(١٤) لم يوضح لنا فارتيما المناسبة التي عرف فيها أنهم مختونون - (المترجم) .

(١٥) راجع مقدمة الترجمة العربية .

(١٦) عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية : أطرغلة ، وتسمى في الشام
 طرغلة ، وفي مصر : قمرية ، وفي العراق : شفتين ، وهي طائر مشهور يصاد . وهي من
 جنس القمامى والأطرغلات والفواخت من الفصيلة الحمامية Columbidae وهي طيور
 تشبه الحمام ولكنها أصغر منه - (المترجم) .

(١٧) يقصد المدينة المنورة أو يثرب كما هو واضح - (المترجم) .

(١٨) ذكر يერთون في رحلته أن هذه الأسوار الطينية (على أيام فارتيما) قد غدت
 من الأحجار ، كما شاهدها أثناء رحلته .

(١٩) نص عبارته « قد أصابها غضب الله » والواقع أن هذا الرحالة يفسر الأمر
 بما يليه عليه هواء ، وقد ذكر شيئا كهذا بالنسبة لمكة كرمها الله . وحقيقة الأمر أنه
 لولا هذا الجذب وهذه الصحارى الواسعة والجبال القاحلة ، لكانت منطقة الأماكن المقدسة
 عرضة لطعم الطامعين من الغزاة والاستعماريين ثم أين هو الغضب ، والرزق يأتي لهذه
 البقاع رغدا من كل مكان . لقد قضت حكمة الله أن يترك الخليل ابنه وامراته عند البيت
 العتيق في واد غير ذي زرع ، وجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ورزقهم من الثمرات
 فأقاموا الصلاة .

Steps على الأقل (٢٠) ، ومن هذه القناة ارتوت القافلة عند وصولها للمدينة . والآن ، فان أولئك الذين يقولون بأن رفات محمد صلى الله عليه وسلم معلق في الهواء بمدينة مكة المكرمة ، كذابون يستحقون التوبيخ (٢١) ، فقد رأيت قبره (صلى الله عليه وسلم) في المدينة المنورة ، التي مكثت بها ثلاثة أيام وكنت حريصا على رؤية كل شيء فيها . ففي اليوم الأول من وصولنا للمدينة المنورة ، وعند دخول المسجد النبوي ، كنا مجبرين على أن يصطحبنا بعض الأشخاص - الذين أمسكوا بأيدينا ، وقادونا الى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم (*) .

موضع دفن محمد « صلى الله عليه وسلم »

وصاحبه « رضوان الله عليهم »

يبلغ طول مسجد النبي صلى الله عليه وسلم مائة خطوة طولا ، وثمانين خطوة عرضا ، ويوجد بابان في كل جهة من جهاته الثلاث أما جهته الرابعة فلا أبواب فيها ، وسقفه مقوس arched وبه أكثر من ٤٠٠ عمود من الأحجار الداكنة ، قد طليت جميعا باللون الأبيض ، وبه حوالى ٣٠٠٠ مصباح تضاء من جانب واحد من الأقواس arches (٢٢) وعند رأس المسجد ، ناحية اليمين يوجد برج مربع a square tower يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه خمس خطوات ، وقد غطي بالحجير ، وعلى بعد خطوتين حاجز معدني مشبك جميل ، يقف الناس ازاء لرؤية هذا البرج ، وفي الجانب الأيسر من هذا الحاجز يوجد باب صغير يفضى الى البرج ، ويوجد في هذا البرج باب صغير آخر ، وعند أحد البابين يوجد حوالى عشرين كتابا ، وعند الجانب الآخر خمسة وعشرون كتابا ، وتتناول

(٢٠) اشارة الى حقائق قباء . وقد ذكر يرنون أن هذه النخيل على أيامه قد زاد عددها زيادة كبيرة .

(٢١) يمكن تفسير مثل هذه الخرافات التي سمعها فارتينا من بعض الجهلاء في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة بالتنافس على ابتزاز أموال الحجاج ، واضفاء قدسية على مواضع بعينها استدرازا لأموال الحجاج ، ومن أراد تأكيدا لهذا التحليل فليراجع رحلة بوركهات التي تمت في القرن التاسع عشر ، ومما يذكر أن الحركة الاصلاحية السلفية قد أزالتم رموز الاكاذيب في البقاع المقدسة - (المترجم) .

(*) يقصد الادلاء أو المزورين : أى المرشدين للزائرين - (المترجم) .

(٢٢) وفقا للقياسات التي ذكرها بوركهات : الطول ١٦٥ خطوة ، والعرض ١٣٠ خطوة ، أما يرنون فقد وصف المبنى بأنه متوازي أضلاع parallelogram طول ضلعه ٤٢٠ قدما ، وعرضه ٣٤٠ - (المترجم) .

هذه الكتب جميعا حياة محمد صلى الله عليه وسلم ووضايا الدين الاسلامي. Commandments of his Sect ويوجد الى الداخل من هذا الباب الثاني. قبر محمد وعلى Haly وأبى بكر وعثمان وعمر وفاطمة (٢٣) . وقد كن محمد زعيما عربيا ، أما على رضى الله عنه فهو زوج فاطمة ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أما أبو بكر الصديق (٢٤) فيمكن وصفه بأنه كاردينال Cardinal وأنه كان يريد أن يكون بابا pope (تعليق : فارتيمنا هنا يسقط ثقافته المسيحية على التاريخ الاسلامي ، فأبو بكر الصديق رضى الله عنه كان الصديق الصدوق للرسول ، وهو رضى الله عنه أول من آمن من الرجال ورافق الرسول في هجرته ، وليس فى التاريخ الاسلامي كهنوت ، أو منصب ديني مشابه لمنصب البابا) (٢٥) .

أما عثمان (رضى الله عنه) فقد كان أحد صحابته ، وكذلك كان عمر ، وهذه الكتب التى أشرنا اليها تتناول كل صحابته « رضوان الله عليهم » وبسبب النزاع على اتباع أحد خلفاء الرسول السابق ذكرهم (٢٦)، يقوم هؤلاء الرعا Canaille (يقصد المسلمين) بتمزيق بعضهم بعضا اربا اربا ، دون تحكيم عقولهم ، فهم يقتتلون ، ويذبح بعضهم بعضا ذبح البهائم baests بسبب هذه الهرطقات ، مع أنها - أى هذه الهرطقات - جميعا باطلة .

قبر محمد « صلى الله عليه وسلم »

وقبور أصحابه « رضوان الله عليهم »

كى نشرح لك عقائد المسلمين ، يجب أن تعلم أنه فوق البرج (الذى بداخله قبر الرسول صلى الله عليه وسلم) توجد قبة Cupola يمكن أن تطوف فى داخلها ، وهى موجودة بالخارج . ويجب أن تفهم الخدعة التى يدلسون بها على كل أفراد القافلة فى أول ليلة تصل فيها لقبر

(٢٣) محمد صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعمر وعثمان وفاطمة رضوان الله عليهم ، ليسوا جميعا فى قبر واحد ، وبذلك يكون فارتيمنا - فيما يقول بادجر - قد وقع فى خطأ . ويذكر بيرتون أن قبر فاطمة الزهراء موجود فى البقيع ، وليس فى المسجد . (٢٤) يقول المستشرق بادجر ، انى أعلم من خلال دراستى لحياة أبى بكر ، أنه يستحق هذا التشريف فقد كان صحابيا مقربا للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وقد خلفه بعد وفاته ، وكان ثانى اثنين اذ هما فى الغار وكلفه الرسول صلى الله عليه وسلم بالامامة فى الصلاة أثناء مرضه .

(٢٥) ما بين القوسين اضافة من المترجم .

(٢٦) يشير للنزاع بين السنة والشيعة - (المترجم) .

الرسول • فقائد قافلتنأ أرسل لقيم المسجد النبوى وطلب منه أن يرى جسد النبى صلى الله عليه وسلم مقابل أن يعطيه ٣٠٠٠ أشرفى ذهباً Seraphim (٢٧) ، وذكر له أنه قد أتى الى هنا لينقذ روحه ويرى جسد النبى ، كما ذكر له أنه مقطوع لا أب له ولا أم ولا اخوة ولا أخوات ولا زوجه ولا أطفال ، كما أنه لم يأت الى هنا لشراء جواهر أو بهارات •

عندئذ أجابه قيم المسجد (٢٨) النبوى بخيلاء وغضب : « كيف يمكن لعينيك التى اقترفت الكثير من الذنوب والمعاصى فى هذه الدنيا أن ترى الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذى من أجله خلق الله السماوات والأرض ! » (٢٩) عندئذ أجاب قائد قافلتنأ : « سيدى ، أنت قلت الميح • أى أنك تقول الصواب ياسيدى ، لكن اعمل معروفاً ودعنى أرى جسده الطاهر ، وبمجرد أن أراه سافقاً عيني حياً له فأجاب قيم المسجد : « لا ياسيدى ، اننى سأقول لك الحقيقة • لقد رغب نبينا أن يموت هنا ، ليقدم لنا المثل لكنه بمجرد أن مات رفعته الملائكة الى السماء ، وقد قال انه اتحد مع الله (أو أنه مساو لله) « He is equal with God » • (تعليق : الواقع أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر ، فضل بالنبوة ، ولم يكن الرسول يدرى ما يكسب غداً ، ولا بأى أرض يموت ، وكان صلى الله عليه وسلم - ابن امرأة تاكل القديد بهكة ، وليس فى الفكر الاسلامى ما يشير الى أن الملائكة رفعته الى السماء • ومع اعترافنا بكثرة الخرافات والبدع السائدة فى ذلك العصر ، لكننا نستبعد أن يقول أحد من المسلمين ذلك ، والأرجح أن يكون فارتيمأ قد أخطأ الفهم ، كان يسأل أحد الناس عن محمد صلى الله عليه وسلم فيشير الى السماء ، بمعنى أنه عند ربه أو مات ... الخ ففهم فارتيمأ المعنى خطأ ، ولا نفسى أن هؤلاء الرحالة لم يكونوا يجيدون اللغة العربية اجادة تامة ، ولا يعرفون - فى أقل تقدير - كنياتها واستعاراتها واشاراتها ، كما نعرفها • وكذلك قوله بأن بعض المسلمين يعتقدون أن محمد صلى الله عليه وسلم مساو لله أو متحد معه • هذا أيضاً غير صحيح ، ومن المستبعد أن يعتقد بعض

(٢٧) انظر الحاشية ص ٢٣ عن الدناير الأشرفية - (المترجم) •

(٢٨) يعنى شريف المسجد أو الشريف المسئول عن المسجد ، أو النائب - (المترجم) •

(٢٩) ان كان المعنى المقصود ، هو أن الله سبحانه ما خلق السماوات والأرض ،

الا لتحقيق التوحيد الخالص له ، عن طريق رسله وأنبيائه فان هذا لا يخالف مجمل

عقائد المسلمين • يقول تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » الذاريات/ ٥١ •

ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الانبياء ، فتكون دعوته هى غاية فى

حد ذاتها •

واذا كان ذلك هو المعنى المقصود ، فلا بأس ، الا ان بعض الصوفية بالغوا فى ذلك

-مبالغة خرجت بهم عن الجادة ، فذكروا أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو أول خلق الله ،

«أى أنه مخلوق قبل آدم عليه السلام - (المترجم) •

المسلمين ذلك ، فقد تكون المسألة سوء فهم منه • وعلى أية حال ، فقد تسربت أفكار الحلول والتجسد الى الفكر الاسلامي النقي في بعض مراحل التاريخ ، الا أن ذلك ليس من عقائد أهل السنة والجماعة (٣٠) •

فقال له قائد القافلة : « اذن أين ذهب عيسى بن مريم ؟ » فقال قيم المسجد : « انه أسفل النبی » - أى تحت قدميه • فقال قائد القافلة : « بس بس • مش عاوز • أى • كفى • كفى • لا أريد المزيد • وخرج علينا قائد القافلة قائلاً :

« انظروا كيف كنت أريد أن أبعثر ثلاثة آلاف أشرفى Seraphim » وفى الليل ، حوالى الساعة الثالثة صباحاً أتى الى مخيمنا حوالى عشرة أو اثني عشر شخصاً من المسلمين كبار السن ، نظراً لأن قافلتنا كانت قد توقفت (عسكرت) بالقرب من البوابة على بعد مرمى حجرين ، وقد بدأ هؤلاء المسنونون فى الصباح « لا اله الا الله • محمد رسول الله • • يانبي • هيا الله • • هيا رسول الله • • استغفر لنا » وهذا يعنى أن محمداً رسول الله سيظهر مرة أخرى (تعليق : العبارة العربية لا تعنى هذا تماماً • ورغم شيوع الخرافات ، الا أن كثيراً من العامة كانوا يرددون ألفاظاً لا تعنى بالضرورة معناها الحرفى ، فعبارة : هيا يانبي ، لا تعنى بالضرورة أنه - صلى الله عليه وسلم - سيقوم من مرقده ويظهر (٣١) • وقد سمع قائد قافلتنا وسمعنا معه هذه الضوضاء ، فأسرعنا وأسلحتنا بأيدينا ظانين أن هناك بدوا (أعراباً) يزعمون سلب القافلة ، وقلنا لهؤلاء المسنين : لم هذه الجلبة ؟ وماذا تقولون ؟ لقد كان هؤلاء المسنونون يصعدون أصوات اعجاب ، كتلك الأصوات التى تصدر عن المسيحيين عندما يشاهدون أحد القديسين يأتى بمعجزة • وقد أجابنا هؤلاء المسنونون قائلين : « انت ما تبصر النور اللى ييجى من بيت النبی ورا من السماء ؟ » أى : ألم تر الضياء المنبعث من ناحية بيت النبی منبعثاً من السماء ؟ فأجاب قائد القافلة : « أنا لم أر شيئاً » وراح القائد يسألنا واحداً واحداً ان كنا قد رأينا شيئاً ، فأجبناه بالنفى ، فقال واحد من المسنين : « أنتم عبيد (ممالك) » فأجاب القائد : « نعم » فقال الرجل المسن : « آه يا سادة ، أنتم لا تستطيعون رؤية هذه الأمور الروحية ، فأنتم لستم صادقين فى عقيدتكم » • فأجاب القائد : آه يا أغبياء • آه يا مجانين • • انا كنت ناوى أعطيكم ثلاثة آلاف أشرفى Ducats ، لكن أنا والله ما أعطيكم • • يا كلاب • • يا أولاد الكلاب • • ويجب أن تعرف أن هذا الضوء ناتج عن نار أوقدوها ليجعلونا نعتقد أن نوراً ينبعث من قبر محمد •

(٣٠) ما بين القوسين تعليق من المترجم •

(٣١) ما بين القوسين تعليق من المترجم •

(صلى الله عليه وسلم) ولذا فقد أمر قائد القافلة ألا يدخل واحد من هذا المسجد (يقصد المسجد النبوى) • ويجب أن تعرف (أننى أقول لكم الحق) أنه لا يوجد حديد أو صلب أو مغناطيس Loadstone أو أى جبل ، على نطاق أربعة أميال (٣٢) •

لقد مكثنا بالمدينة المنورة أربعة أيام لنعطى الفرصة لجمالنا كى تستريح • ويتلقى أهل المدينة المنورة مؤونتهم من بلاد العرب البسيطة ، ومن القاهرة وأثيوبيا (٣٣) عن طريق البحر ، إذ لا يبعد ساحل البحر (الأحمر) عن المدينة المنورة أكثر من أربعة أيام •

الرحلة من المدينة المنورة الى مكة المكرمة

لقد تعبنا الآن من هذه الأمور وتلك الأباطيل التى بدت من محمد (تعليق : ما دخل محمد صلى الله عليه وسلم ، فيما رأى الكاتب من أباطيل وخرافات وأكاذيب ، لكننا نلاحظ أن هذا التعبير شاع فى هذه الفترة ، وقرآنه فى أكثر من مصدر يتناول القرن السادس عشر ، فإذا هزم المسلمون فى معركة ، كان نص العبارة لقد هزم محمد ، وإذا انتصر المسلمون فى معركة ، كان نص العبارة ، سننتقم من محمد ، وكتب بعض الكتاب البرتغاليين بعد سقوط سبته « لقد حوّر محمد » ، ويلاحظ أن التعبير ذاته شائع على ألسن البعض حتى اليوم) (٣٤) • فجهزنا أنفسنا للرحيل ، مع مرشديننا (أدلنا) pilots الذين راحوا يتفحصون البوصلات والخرائط Compassec & Charts (٣٥) الضرورية للسفر

(٣٢) نص العبارة :

"... and you must know (I tell you for a truth) there is no coffin of iron or steel, nor loadstone, nor any mountain within four miles.

(٣٣) يستخدم فارتينا هذا المصطلح ليعنى به كل سواحل أفريقيا الشرقية ، والقرن الأفريقى • انظر الكتاب الأخير من هذه الرحلات - (المترجم) •

(٣٤) ما بين القوسين اضافة من المترجم •

(٣٥) ذكر بادجر فى حاشية له على الترجمة الانجليزية للرحلة ما يفيد أن العبارة

غامضة ، وأورد نصها الايطالى كالتالى :

"E Con no tri piloti delle sue bussole e Carte al Carso del mare necessairie grandi obsecruatori Cominciamo a Caminare per mezo giorno".

ويقول بادجر ان النص الايطالى غامض ، ثم يستبعد أن يستخدم الأدلاء البدو خرائط أو بوصلات لمعرفة الطريق من المدينة الى مكة • ويقول بادجر ان فارتينا ربما رأى الأدلاء يتفحصون بوصلة صغيرة تسمى قبلة نامة Kiblah nameh للتأكد من الاتجاه الصحيح أثناء الصلاة ، وليس معنى ذلك أن العرب لم يعرفوا البوصلة حتى هذه الفترة ، فقد كانت شائعة فى البحر الأحمر والخليج ، وكانت تسمى أحيانا بيت الابرة •

بمجرد (يريد القول ان الرحلة لم تكن سهلة) وبدأنا الاتجاه جنوبا ووجدنا
بئرا رائعة كانت زاخرة بكميات هائلة من المياه ، ويقول المسلمون ان هذه
البئر حفها القديس مارك Mark المبشر ، كمعجزة من الله نظرا لحاجة
هذه المنطقة الشديدة للماء (٣٦) (تعليق : لا تعي الذاكرة العربية أو
الإسلامية شيئا كهذا ، ولم تشر التعليقات العربية ولا شروحها ، ولا كتب
الأمل والمجالس والمحاضرات ، ولا مقدمات كتب التاريخ الجوى : ابن

(٣٦) يذكر بادجر انه توجد أربع طرق تؤدي من المدينة المنورة الى مكة المكرمة الا انه
من الصعب ان نعرف من خلال وصف فارتينا المعن في الايجاز أى الطرق سلكتها قافلته .
أما بالنسبة لإشارة فارتينا الى بئر القديس مرقس (صاحب الانجيل الثاني من أنجيل
العهد الجديد - المترجم) فان هذا الاسم الذى يعنى حواري المسيح غير معروف إطلاقا
بالنسبة للمسلمين في الحجاز ، والواقع ان قول بادجر هذا فيه مبالغة كثيرة فعدد كبير من
العلماء المسلمين في الحجاز وغير الحجاز يعرفون الكثير عن الأنجيل ، وقد قاموا بالرد
على ما جاء في بعضها ، كما ان علماء المسلمين أشاروا لهذه الأنجيل في كتب الملل والنحل
(راجع كتاب الشهرستاني المشهور على سبيل المثال) وربما كان ما يقصده بادجر ان
المسلمين لا يعرفون شيئا عن هذه القصة - أى قصة حفر القديس لبثر في جزيرة العرب ،
وان هذه القصة كابت شائعة بين المسيحيين غير المثقفين في أوروبا . ويعرف بادجر بالقديس
مرقس فيقول ان يوسيبوس Eusebius ذكر ان مرقس هو أول أسقف (مطران)
bishop للإسكندرية ورئيس الكرسي الأسعفي patriarchal see لمصر . ويؤكد
المؤرخون الاكليزيكيون (الكنسيون) ان أحد معلمى المسيحية Pantaenus كان قد
أرسله جوليانوس Julianus الأسقف الإسكندرية للتبشير بالمسيحية في شبه الجزيرة
العربية في أواخر القرن الثاني للميلاد .

ويذكر ابن خلدون وصاحب كتاب الأغاني (أبو الفرج الأصفهاني) ان كثيرا من
القبائل العربية بين مصر وفلسطين كانت تعتنق المسيحية زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ،
كما ان عام الفيل الذى شهد تحطم الجيش الحبشى أمام مكة سنة ٥٧٠ ، حقيقة تاريخية
مؤكدة .

والواقع ان ما ذكره بادجر في السطور السابقة لا يحتاج الى كل هذا التأكيد فقد كانت
الجزيرة العربية قبل انبثاق نور الإسلام ، تعرف للمسيحية واليهودية والمجوسية ، جنبا
الى جنب مع الوثنية العربية المشهورة وقد أشار توماس أرنولد صاحب الكتاب الشهير
« الدعوة الى الاسلام » الى امراء بدوية مسيحية في شبه جزيرة سيناء قال انها آخر من
تبقي من جماعة من البدو المسيحيين ، وانها كانت عجزا شعثاء ، ظلت على مسيحيتها في
وسط هذا البحر المسلم ، وانها عندما ماتت دفنت في دير سانت كاترين . ورواية توماس
أرنولد هذه تعود للقرن التاسع عشر .

ثم نعود لما ذكره بادجر ، فنجد انه يقول ان دخول المسيحية للمرة الأولى في شبه
الجزيرة العربية يعود الى الحماس الدينى الفائق الذى أبداه القديس مرقس في مصر ،
والذى كان الإحباش يتبعونه ويتمسكون بتبشيرهم لكرسيه الأسعفي ، وربما - فيما يقول
بادجر - كانت رواية فارتينا تشير الى أثر مقدس للمسيحية الأولى في الحجاز . والواقع
ان الذاكرة العربية ، والذاكرة الإسلامية بعد ذلك لا تذكر شيئا من هذا ، وبالتالي فأننا
نعتبر ما ذكره فارتينا من قبيل ترديد لاشاعة أو خرافة دينية أوربية ، ونعتبر ما رده بادجر
من قبيل الرجم بالغيب الذى لا يستند الى دليل حاسم - (المترجم) .

خياط ، الطبرى ، ابن الاثير ، ابن كثير الى شىء من هذا • وما ذكرناه لا يعنى نفينا لوجود المسيحية فى الجزيرة العربية قبل الاسلام ، وانما نقرر أن المراجع المتاحة لنا لم تشر لهذه القصة (٣٧) • وقد تركنا هذه البشر وقد نفد ماؤها • ويجب ألا أنسى أن أذكر لكم لقاءنا مع بحر الرمال الذى غادرناه قبل أن نجد جبل اليهود ، فقد ظللنا نساغر فى بحر الرمال هذا خمسة نهارات وخمس ليال والآن عليك أن تفهم كل ما هو قريب • انه سهل عظيم مستو ملء بالرمال البيضاء الناعمة كالدقيق ، واذا حدث لسوء الحظ أن الرياح تهب من الجنوب بينما أنت قادم من الشمال متجه صوب الجنوب ، فانك ورفاقك قد تموتون ، ورغم أن هذه الرياح كانت تهب من الشمال الى الجنوب أى فى نفس اتجاه مسيرنا ، الا أن أحدنا لم يكن بمستطيع أن يرى رفيقه على بعد عشر خطوات (٣٨) •

لقد كان الرجال يركبون فوق جمالهم فى صناديق خشبية خاصة (٣٩) ، حيث يأكلون وينامون داخلها ، بينما كان أدلثنا (مرشدونا) يسيرون ومعهم بوصلاتهم كما لو كنا مبحرين فى البحر • وقد مات هنا كثيرون من الظمأ ومات عدد أكبر لأنهم عندما حفروا ووجدوا الماء ، شربوا كثيرا جدا حتى ارتووا ، وفى هذا المكان تصنع (تتكون) المومياوات mummies are made (٤٠) وعندما تهب الرياح من الشمال تتجمع

(٣٧) ما بين القوسين اضافة من المترجم •

(٣٨) يذكر بيرتون Burton أنه من المستحيل أن نحدد الطريق الذى سلكته هذه القافلة الدمشقية سنة ١٥٠٣ للميلاد لعدة أسباب أولها أننا متأكدون أنه لا يوجد بحر من الرمال بين المدينة ومكة • ويذكر بادجر أنه من المحمل وقوع خلط ، وأن المقصود منطقة ما بين دمشق والمدينة لأن فارتيما وصف هذا البحر من الرمال قبل أن يصل الى جبل اليهود المزعوم • والواقع أن هذا الخلط فى هذا الجانب من الرحلة بالذات باعتراف بادجر - يضيف لنا سببا جديدا يجعلنا نتشكك تماما فى حكاية اليهود هذه • ونعود الى ما علق به بادجر مرة أخرى ، فنجده يقول : ان وصف بوركهات الموجز لمراحل (المراحل) طريق الحج لم يمكننى من معرفة الموقع بدقة ، الا أنني أظن أنه ربما كان بن الأخضر Al-Akhdar - وهى المحطة السادسة عشرة من دمشق وخيبر Hedye or Khaibar التى تبعد ثلاثة أيام عن المدينة المنورة ، واستنتاجى هذا يعود الى قول بوركهات انه منذ ثلاثمائة سنة خلت كان طريق الحج يعم الى الشرق من الطريق الحالى (أى الطريق المسلولك أيام بوركهات) لذا فهو يسمى حتى الآن (أيام بوركهات) باسم الطريق الشرقى • (٣٩) المحفة أو الشبرية أو التختروان ، فرش نوضع فوق الجمال التى يمتليها - أثناء الحج - الحجاج الأعنياء •

(٤٠) يقول المستشرق بادجر - نقلا عن الرحالة بيرتون ، فى تعليقه على هذه الفقرة : « انها قصص عجيبة لا تزال تروى (حتى أيام بيرتون) عن هذه المومياوات (المحنطات) وقد أكد لى طبيب عربى أنه فام بكسر رجل دجاجة ، ثم ربطها ربطا محكما بقماشة تضم لحما مجففا لرجل ، وقد أدى هذا الى أن أصبح الطائر (الدجاجة) يستطيع المشى فى اليوم =

هذه الرمال في مواجهة جبل عظيم ، هو أنف a spur جبل سيناء (٤١) Mount Sinai وعندما أصبحنا على قمة هذا الجبل وجدنا بابا أو طريقا من صنع بشر . وعلى الجانب الشمالى على قمة هذا الجبل يوجد كهف له باب حديد ، ويقول الناس ان محمدا صلى الله عليه وسلم قد توقف في هذا الموضع ليصلى . وتسمع عند هذا الباب ضوضاء عالية . لقد عبرنا ذلك الجبل على حافة خطر عظيم وغادرنا البشر التى أشرت لها آنفا وظلنا في سفر مستمر طوال عشرة أيام ، وقد خضنا مرتين حربا مع ٥٠٠٠٠ بدوى ، ولما وصلنا مكة كان ثمة حرب ضروس بين أخ وأخيه ، ذلك أن اخوة أربعة كانوا يتنازعون على شرافة (حكم) مكة المكرمة (٤٢) .

= التالى بسافى سليمة « ونظرا لغرابة ذلك نورد هنا نص ما ذكره بيرتون ، وقد ، اوردا في المتن نص ما ذكره فارتيجا :

..wonderful tales are still told about these same mummies. I was assured by an Arabian physician, that he had broken a fowl's leg, and bound it tightly with a cloth containing man's dried flesh, Which caused the bird to Walk about, With a sound shank, on the second day" Burton, p. 361.

(٤١) يذكر بادجر ما نقله ملخصا كالتالى :

اسننتج بيرتون أن فارتيجا كان يصف جانباً من الطريق بين المدينة المنورة ومكة المكرمة ، وافترض أن المقصود هنا هو جبل وركان Warkan على طريق البحر الى مكة المكرمة . ولهذا السبب فأننى أفضل أن يكون المقصود هو تلك الجبال القريبة من الحجر Hedjer or Hijir الى تعتبر رغم بعدها عن جبل سيناء ، امتدادا له an offshoot of Sinai . ولقد تأكدت من هذا الاستنتاج ، من خلال حديث فارتيجا ذى الطابع الخيالى romantic عن الخرائب العديدة الموجودة هناك ، وما اربط بها من تراث ، وقد وصفها بوركهارت كالتالى : ان أكثر البقاع اثاره فى طريق قافلة الحج من دمشق الى المدينة المنورة ، هي الحجر أو مدائن صالح التى تبعد عن المدينة المنورة الى الشمال مسافة سبعة أيام ، وقد أشار القرآن الكريم فى سورة الحجر الى أن هذه البقعة كان يقطنها قوم ذوو بأس شديد هم ثمود دمرت ديارهم لرفضهم الاذعان لنذيرات النبی صالح . وتمتد هذه المنطقة (مدائن صالح) عدة أميال ، وترتبطها خصبة وبها آبار عدة ، وتغزوات جارية . والى الغرب من هذا السهل الخصيب يوجد جبل غير ضخم يبعد حوالى أربعة أميال عن البقعة التى نوقف فيها قافلة الحجيج عادة ، وفي هذا الجبل كهف كبير ، وقد ذكر القرآن الكريم أن هلاك ثمود كان مصحوبا بصوت رعد وزمجرة شديدة قادمة من السماء ، وقد غزا محمد صلى الله عليه وسلم الحجر بعد قضائه على يهود خيبر بفترة وجيزة (بادجر) .

وقد ورد ذكر ثمود فى القرآن الكريم مرات عديدة ، منها « ٠٠ والى ثمود أخاعم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » هود/٦١ ، « ٠٠ ألا بعدا لثمود » هود/٦٨ ، « ٠٠٠ ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود » هود/٦٥ « كذبت ثمود بطغواها » الشمس/١١ ، « وثمود الذين جابوا الصخر بالواد » الفجر/٩٠٠ الخ - (المترجم) .

(٤٢) ب وفاة هزاع بن محمد بن بركات الذى شارك أخاه بركات الثانى شرافة مكة فى ١٥ رجب سنة ٩٠٧ ، تولى شرافة مكة أحمد الجازانى (وهو ابن آخر لمحمد بن بركات) ، وفى أوائل شعبان ٩٠٧ وصل بركات بجيشه الى مكة فلم يقاومه أحمد الجازانى وفر هاربا =

مكة المكرمة ، ولم يقصدها المسلمون ؟

سنستحدث الآن عن مكة ذات الشرف الباهر . ما هي ؟ وما وضعها ؟ ومن يحكمها ؟ انها مدينة رائعة الجمال قد أحسن بناؤها وتضم حوالى ٦٠٠٠ أسرة . ومنازلها جيدة تماما ، كمنازلنا (فى ايطاليا) (٤٣) ونوجد منازل يساوى الواحد منها ثلاثة أو أربعة آلاف دوكلات ولا يحيط بمكة سور ، وعلى بعد مكة بربع ميل وجدنا جبلا يوجد به طريق ، نحتته (شقته) الأيدى البشرية العاملة . وعندئذ انحدرونا الى السهل . وتمثل الجبال أسوارا لمكة المكرمة يوجد من خلالها أربعة مداخل (لمكة المكرمة) . وحاكم مكة سلطان (يقصد شريف) من سلالة محمد ، وهو أحد اخوة أربعة ، وهو تابع للسلطان الأكبر فى القاهرة . واخوة سلطان (شريف) (٤٤) مكة الثلاثة فى حالة حرب دائمة معه (مع أخيه شريف مكة) . لقد دخلنا مكة المكرمة فى الثامن عشر من شهر مايو ، وكان دخولنا اياها من ناحية الشمال ، وبعد دخولنا مباشرة وجدنا أنفسنا ننحدر الى السهل . ويوجد الى الناحية الجنوبية من مكة جبلان يكاد أحدهما يلامس الآخر ، وبينهما بوابة تفضى الى بوابة مكة . وإلى جهة مشرق

= وقام بركات بالانتقام ممن أيدوا أخاه أحمد ، وانقم شر انتقام من فاضى مكة أبى السمعود ابن ظهيرة شر انتقام فصادر أمواله وعفاره ، وأغلق بورت أبناء القاضى وبناته ، وما كاد يستقر الأمر لبركات حتى علم أن أخاه أحمد بجيز لمقابلته فى ينبع فخرج للقائه فى أواخر ذى الحجة ٩٠٧ هـ فهزمه ، الا أنه بلغه أن أخاه سيواصل القتال ، وكان بركات مريضا فغادر مكة الى طريق اليمن وترك أخاه أحمد يدخلها ، وهكذا دخل أحمد الجاراسى مكة فى أوائل سنة ٩٠٨ هـ فمرك عسكره ينهبون مكة انتقاما من مساندة أهلها لبركات فراح العسكر « يفعلون أفعالا قبيحة وينتهكون حرمة البيوت ، وبصادرون أموال الإهالى وبسبون الأرقاء . . . وينهبون بيوت التجار . . . » وظل أحمد مطمئنا بضعة أشهر ثم بلغه أن أخاه بركات يزعم مهاجمته فخرج لملاقاته بالقرب من منى وهزمه الا أن بركات المهزوم استطاع أن يلتفت بسرعة ويدخل مكة فى ١١ رمضان ٩٠٨ هـ ، وما لبث أحمد جازان أن عاد للشرافة مرة أخرى واستمر ثمانية أشهر مليئة بالفتن حتى انتهى أمره بأن دس أخوه حميضة عليه جماعة من الأتراك قتلوه فى المطاف فى ١٩ رجب ٩٠٩ هـ . . .

المهم فى هذا الصدد أن رواية فارتيما صحيحة .

انظر على سبيل المثال :

أحمد السباعى : تاريخ مكة ، دراسات فى السياسة والعلم والاجتماع والعمران . مكة ، نادى مكة الثقافى ، ١٣٩٩ ، ١٩٧٩ ط ٤ ص ص ٣٠٨ - ٣١٤ - (المترجم) . (٤٣) ما بين الفوسن اضافة من المترجم .

(٤٤) عن النزاع بين أشراف مكة وقت رحلة فارتيما ، انظر تعليقاتنا فى حاشية سابقة. ص ص ١١٣ - ١١٤ ، أما المقصود بالسلطان الأكبر فى القاهرة فهو قنصومة الغورى الملك الأشرف (١٥٠٣ - ١٥١٦) .

ويلاحظ أن فارتيما يطلق لفظ (سلطان) على كل حاكم ، فسلطان مكة يعنى شريف مكة - (المترجم) .

الشمس ، يوجد ممر جبلى آخر كأنه واد يمر عبره الطريق المؤدى الى الجبل الذى يحيى فيه المسلمون ذكرى تضحية ابراهيم واسحاق (٤٥) ويبعد هذا الجبل عن مكة ما بين ثمانية وعشرة أميال . ويبلغ ارتفاع هذا الجبل مرمى حجرين أو ثلاثة برمى اليد . وهذا الجبل ليس رخاميا وانما من بعض أنواع الاحجار الا أن لونه مختلف . وعلى قمة هذا الجبل ، يوجد مسجد ذو ثلاثة أبواب . ويوجد عند سفح هذا الجبل مستودعات ماء reservoirs فى الغاية من الجمال . احدى هذه المستودعات (الخزانات) للقافلة القادمة من القاهرة ، والأخرى للقافلة القادمة من دمشق ، وتجمع مياه هذه الخزانات من الأمطار وتترد الى هنا من مسافات بعيدة . والآن ، دعنا نعد لحديث مكة المكرمة ، فسأتحدث فى الوقت المناسب عن التضحية (ذبح الاضاحى) عند سفح هذا الجبل . وعندما دخلنا مكة وجدنا قافلة الحجيج القادمة من القاهرة التى كانت قد وصلت قبل قافلتنا بثمانية أيام . فهذه القافلة لم تسلك الطريق نفسه ، الذى سلكناه . وكان ضمن قافلة القاهرة ٤٦٠٠٠ جمل ومائة من المماليك . ويجب أن تعرف أن لعنة الله (غضب الله) فيما أرى قد حل على مكة فالمنطقة المحيطة بها لا تنبت عشباً ولا شجراً ولا أى شئ آخر (تعليق : بل لقد حل عليها رضوان الله وبركته ، فهذا الجذب الظاهرى منع عنها الاستعمار الأجنبى ، وما هو فارتيمما نفسه يؤكد لقومه من الأوروبيين أن الديار الاسلامية المقدسة ليس بها ذهب أو فضة أو حديد أو مغناطيس فماذا لو كانت هذه المعادن موجودة فى عصر الصحوة الأوربية (القرن ١٦) ، ثم ان مكة يأتيها - رغم جذبها - رزقها رغداً من كل مكان ، وقد شارك فارتيمما نفسه فى احدى قوافل الحجيج الى مكة المكرمة ، فالتجارة مزدهرة ، والحضر والفاكهة تأتي الى مكة من الشمال ومن الجنوب (٤٦) .

ويعانى أهل مكة من نقص كبير فى المياه فاذا أراد واحد منهم أن يشرب كمية الماء التى يرغبها (يحتاجها) فإن ذلك يكلفه أكثر من أربعة كاترينات Quattrini فى اليوم الواحد . وسأحدث لكم ذكراً عن حياة أهل مكة ، فجانب كبير من مؤنثهم يأتي من القاهرة عبر البحر الأحمر ، فثمة ميناء يقال له جده Zida يبعد عن مكة أربعين ميلاً يستقبل هذه المؤن ، كما ترد لمكة كميات كبيرة من المؤن من بلاد العرب السعيدة وكميات أخرى كبيرة أيضاً من أثيوبيا (٤٧) . وقد وجدنا أعداداً كبيرة من الحجاج

(٤٥) لقد وقع فارتيمما هنا فى خطأ كبير ، فالمسلمون يذهبون هديهم وأضحياتهم الى منى وليس فى عرفات ، وهو الجبل الذى يقصده فارتيمما هنا - (المترجم) .

(٤٦) ما بين القوسين اضافة من المترجم .

(٤٧) يقصد فارتيمما بمصطلح أثيوبيا ، كل سواحل أفريقيا الشرقية كما يتضح ذلك من آخر رحلاته ، ففى السفر الأخير من هذه الرحلات جعل زيارته لما تعرف اليوم باسم =

فى مكة أتى بعضهم من أثيوبيا وبعضهم الآخر من الهند الكبرى .
India Major ، وبعضهم الآخر من الهند الصغرى India Minor ،
وآخرون من فارس ، وطائفة من سوريا . والحق أقول لكم ، اننى لم أر
أبدا تجمعا هائلا احتشد فى مكان واحد ، كما رأيت هنا (فى مكة)
خلال العشرين يوما التى مكثتها فى هذا البلد . لقد أتى بعض هؤلاء
الناس بغية التجارة وبعضهم بغية الحج طمعا فى أن تغفر ذنوبهم « ويعودوا
كيوم ولدتهم أمهاتهم » .

البضائع فى مكة المكرمة

ترد لمكة من الهند الكبرى كميات كبيرة من الجواهر ، وكل أنواع
البهارات - وان كان جانب من البهارات يرد من أثيوبيا ، ويرد جانب آخر
من البهارات الى مكة من البنغال (٤٨) وكميات كبيرة من
الأقمشة القطنية والحريرية ، فبهر مكة تتم تجارة مرور كبيرة فى
المجوهرات والبهارات بأنواعها المختلفة ، والقطن بكميات كبيرة والشمع
والمواد العطرية .

طلب الغفران فى مكة المكرمة

دعونا الآن نعد الى الغفران الذى يبتغيه الحجاج القادمون الى مكة
المكرمة ، وفى وسط مكة يوجد معبد (مسجد) (٤٩) جميل جدا يشبه
الكولوزيوم فى روما « Collesseum of Rome » الا أنه غير مبنى بالحجارة
الضخام ، وانما من طوب أحمر burnt bricks وله تسعون بابا
أو مائة باب (٥٠) ، ذوات أقواس (عقود) arched ، وعند دخولنا هذا

= موزمبيق تحت عنوان رحلاته الى أثيوبيا . انظر (السفر الأخير) من هذه الرحلات -
(المترجم) .

(٤٨) ينطقها العرب بنغالا . (عن بادجر) .

(٤٩) ما بين القوسين اضافة من المترجم .

(٥٠) جوزيف بيتس Pitts الذى زار مكة سنة ١٦٠٨ وصف المسجد الحرام بان
له حوالى اثنين وأربعين بابا للدخول اليه ، اما على بك العباس فذكر أن للمسجد تسعة
عشر بابا ، لها ثمانية وثلاثون عقدا (قوسا) ، أما بوركهارت (فى سنة ١٨١٤) فذكر
أن بوابات المسجد ١٩ فى العدد وأنها موزعة على جهات المسجد بدون تناسق ، وكل باب
يتكون من عقدين أو ثلاثة يفصل بينها حائط ، وبذا يمكن أن تقول ان المداخل المؤدية
للمسجد ٣٩ - (بادجر) .

المعبد (المسجد) انحدرنا عشر درجات أو اثنتى عشرة درجة ، وحول هذا المدخل كان يجلس باعة يبيعون الجواهر ولا شيء غير الجواهر . وعندنا نذكر الدرجات المذكورة نجد كل أنحاء هذا المسجد وكل شيء حتى الجدران مغطاة بالذهب (٥١) وتحت أتواس المسجد يجلس حوالى ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ إنسان ، رجالا ونساء ، يبيعون مختلف أنواع المواد العطرية غالبيتها مساحيق لحفظ الأبدان وانعاشها ، لأن الوثنيين (يقصد المسلمين) يأتون الى هنا من مختلف أنحاء العالم . والحق أقول لكم انه من الصعب أن أصف لكم روعة الروائح التى شمنتها فى هذا المعبد (المسجد) . انها تظهر كرائحة مشبعة بالمسك زاهرة بأكثر العطور انعاشا وابهاحا . وفى اليوم الثالث والعشرين من شهر مايو تبدأ احتفالات الفجران فى المسجد الحرام (ليس فى الاسلام عيد بهذا الاسم ، وفارتيما مرة أخرى يسقط ثقافته المسيحية على التاريخ الاسلامي ، أو يقرب المعنى لقراءة الأوربيين) (٥٢) .

وفى باحة مكشوفة (غير مسقوفة) فى وسط المعبد (المسجد) يوجد برج Tower (الكعبة المشرفة) تبلغ أطوال كل من أضلاعه الأربعة سمات خطوات . وقد غطى هذا المبنى (مبنى الكعبة) بالحرير الأسود (الكورة) (٥٣) وبه باب من الفضة الخالصة بارتفاع قامة الانسان (٥٤) عن الأرض يمكن الدخول لهذا البرج (الكعبة المشرفة) ويوجد على كلا جانبا هذا الباب جرة ، يقولون انها مائشة بالاسم ويرى فى هذه الجدران day of pentecost (٥٥) . يقولون ان هذا الاسم جزء من كنوز السامان . وعند كل ركن من أركان الكعبة (البرج) توجد حلقة

(٥٦) نفس العبارة :

"... and when you have descended the said steps you find the Said temple all around, and everything, that is the Walls Covered with gold".

لذلك أظن أنه يقصد هنا داخل الكعبة ، وليس داخل المسجد ، وإن كان السياق يخالف استنتاجنا هذا . لذا نظن أن هناك خلافا فى العبارة هنا - (بادجر) .

(٥٢) ما بن القوسين اضافة من المترجم .

(٥٣) ذكر بروتون أن كسوة الكعبة على أيام رحله كانت من حرير مختلط بالقطن ، ويلاحظ - كما هو معروف - أن الكسوة تغير سنويا . (عن بادجر) .

(٥٤) باب الكعبة - كما ذكر بوركهاتر مغطى كله بالفضة ومزخرف ، ويوضع عند العتبة - كل مساء - شموع وقوارير مملوءة مسكا . وقد ذكر جيوفانى فينانى Giovanni Fianti (١٨١٤) أن الكعبة المشرفة لا تفتح الا مرة فى العام ، بينما ذكر بوركهاتر انها تفتح مرتين أو ثلاثة فى العام أما بروتون فقد ذكر أنه يفتح عشر مرات أو اثنتى عشرة مرة . وقد اخلط الأمر على فارتيما فأسقط ثقافته المسيحية عندما تحدث عن يوم عيد الخمسين the day of pentecost (بادجر) .

(٥٥) من الواضح أن فارتيما يخلط هنا ، فهذا العيد Pentecost عيد يهودى ، أو عيد الخمسين عند النصارى ، ولا علاقة للمسلمين بذلك (المترجم) .

كبيرة (٥٦) • وفى الرابع والعشرين من شهر مايو يبدأ كل الناس قبل طوارع النهار فى الطواف حول الكعبة سبعة أشواط ، وهم فى هذه الأثناء يتمسكون بآركانها ويقبلونها (أى الكعبة) وعلى بعد عشرين خطوات أو اثنتى عشرة خطوة من الكعبة يوجد برج آخر يشبه استنقاص مصلاة كنانة، منها أو كاتدرائيةنا Chapeis . ذو ثلاثة أبواب أو أربعة داخله بئر رائعة تبلغ سبع فاذومات Fathoms ، وماؤها مالح قليلا (٥٧) • وعند هذه البئر يقف ستة رجال أو ثمانية لسحب المياه للناس • وعندما ينتهى الناس من الطواف سبعة أشواط حول الكعبة يأتون هذه البئر ويولونها ظهورهم ويقولون « بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم اغفر لنا » • ويقوم أولئك الذين يسحبون الماء من البئر (بئر زمزم) بصب ثلاثة جرادل (صفائح) bucketsful على كل شخص (من الحجاج) من أعلى الرأس الى أخمص القدم ، فيستحم الجميع (٥٨) بهذه الطريقة حتى الذين كانت ثيابهم من حرير • ويقولون انهم بهذه الوسيلة يتخلصون من خطاياهم التى تبقى فى هذا الموضع بعد الاستحمام • ويقولون ان البرج (الكعبة) التى طافوا بها عند قدومهم هى أول بيت وضع للناس (٥٩) ، وان ابراهيم الخليل هو بانيها • وبعد أن استحم الجميع بهذه الطريقة ، فانهم يتجهون الى الوادى عند الجبل الذى سبق أن تحدثنا عنه ، ويمشون هناك يومين وليلة وهم يسرعون فى الذبح (تقديم أضحياتهم)

١٥٥ المذبحون عند ذبح هذا الجبل (٦٠) •

(٥٦) انها حكاية مدونة لحدث الجوار الدنيا من الكعبة أو توسعها لوائى حرم الكعبة • (عن برتون) •

(٥٧) أكد برتون هذا الرصف لماء زمزم ، وقد ذكر بوركهارت أن البناء المحيط ببئر زمزم قد أنشئ سنة ١٠٧٢ . وقد قدر برتون المسافة بين البئر والكعبة بحوالى أربعين ذراعاً Cubits - (بادجر) •

(٥٨) يفتل بادجر عن بوركهارت قوله ان بعض المسلمين يغتسلون بماء زمزم (يستحمون) وهم بفعلهم هذا يعتقدون أن قلوبهم وأبدانهم قد طهرت •

(٥٩) يؤكد المسلمون أن الكعبة قد وضع أساسها فى السماء Was Constructed in heaven قبل خلق العالم ، وقد أمر الله الملائكة بالطواف حولها ، وقد أضاف آدم - المسلم الأول الكعبة على الأرض فى موقعها الحالى الذى يقع تحت موقعها السابق فى السماء صابره . وقد روى أبناء آدم الكعبة ، وأن الله سبحانه وتعالى أمر ابراهيم الخليل أن يرفع الفواعد من البيت ، وقد ساعد اسماعيل بن ابراهيم من هاجر أباه فى البناء . وكان الخليل قد قدم لهذا الغرض بناء على أمر الله له • (موجز تعليق بادجر) •

(٦٠) لاحظ برتون اضطرابا كبيرا فى رواية فارتسا ، وعدلها كالنالى : « فى ٩ ذى الحجة غادر الحجاج عرفات • وفى ١٢ منه أسرع كثيرون الى مكة ودخلوا الكعبة ، ثم عادوا الى وادى منى حطب خيامهم وفاموا بذبح أضحياتهم وحديدهم • وفى العاشر من ذى الحجة يعود الحجاج مرة أخرى الى مكة » - (موجز تعليق بادجر) •

الهدى والأضاحي في مكة المكرمة

ان الأحداث الجديدة والغريبة ، قادرة على أن تجعل كل عقل نبيل مستعدا للتفتح والفهم ، كما أنها - أى الوقائع الجديدة - تحثه على القيام بالأعمال الجليلة . ولهذا السبب ولكي أرضى كثيرا من هذه النزعات فسأذكر بإيجاز ما يراعيه المسلمون عند تقديم أضحياتهم . فما من رجل أو امرأة الا وينحر رأسين أو ثلاثة على الأقل ، بل ان بعضهم ينحر أربعة ، وبعضهم الآن ينحر ستة ، حتى اننى أعتقد صادقا أنه قد تم ذبح أكثر من ٣٠٠٠٠ رأس من الغنم في اليوم الأول ، بعد أن وليت وجوها صوب المشرق . ويقدم كل ناجر ما نحره الى الفقراء ، حبا لله وتقربا اليه ، اذ يوجد حوالى ٣٠٠٠٠ فقير هناك سرعان ما حفروا حفرة كبيرة جدا ووضعوا بها روث الجمال وأشعلوا فيه نيرانا صغيرة ، وراحوا يشوون قطع لحم صغيرة ويأكلونها . ورأى الذى أعتقد صدقه أن قدوم هؤلاء الفقراء الى هذا المكان كان رغبة فى التخلص من الجوع أكثر من رغبتهم فى غفران الله (سبحانه) والدليل على أن ذلك صحيح هو أنه كان لدينا كمية كبيرة من القثاء الواردة من بلاد العرب السعيدة ، وقد أكلنا الكمية كلها خلا القشر ، الذى شرعنا بعد ذلك فى القائه خارج خيمتنا ، فتجمع حوالى أربعين أو خمسين من هؤلاء الفقراء أمام الخيمة وراحوا يتكالبون على قشور القثاء الملقى بالرمال . وبذا بدا لنا أنهم قدموا لاسكات جوع بطونهم أكثر من قدومهم لمحو خطاياهم .

وفى اليوم الثانى أقبل أحد علمائهم (القاضى) وهو يماثل أحد كهنتنا (تعليق : ليس فى الاسلام كهانة ، وليس فى الاسلام فصل بين السلطتين الزمنية والدينية ، وليس فى الاسلام امامان أحدهما يمثل الدين والآخر يمثل السياسة أو الحكم ، وليس فى الاسلام بابا وملك ، وليس فى الاسلام رجال للدين لا تقوم شعائره الا بهم كما فى المسيحية ، فان غضب امام المسجد قامت الصلاة بغيره ، وصلى على الميت بغيره ، ولا يملك عالم (٦١) الدين المسلم أن يطرد أحدا من رحمة الله ، كما فى المسيحية وهو المعروف بقرار الحرمان) . وصعد الى قمة الجبل المشار اليه وخطب (٦٢) فى الناس خطبة استغرقت حوالى الساعة ، وكان يصدر نوعا من النواح ، ويحث الناس للبكاء على خطاياهم وقال لهم بصوت جهورى « آه ٠٠ ان ابراهيم هو حبيب الرحمن وخليله » ثم استطرد قائلا « ان اسحق قد اختاره الله سبحانه وقد دعا الله سبحانه لهداية شعب النبى ! » وبعد

(٦١) ما بين القوسين اضافة من المترجم .

(٦٢) خطبة الوقفة . وصف بيتس Joseph Pitts أول انجليزى زار مكة

المنظر نفسه فى موسم حج سنة ١٩٨٠ .

قوله هذا تعالى الهياج والصراخ (تعليق : يخلط فارتيميا بين اسماعيل .
واسحاق عليهما السلام ، وهو يميل الى أن الذى فداه الله بذبح سمين
هو اسحاق ، والواقع أن الذى رفع القواعد من البيت مع ابراهيم الخليل
هو اسماعيل عليه وعلى أبيه السلام مصداقا لقوله تعالى « واذ يرفع
ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل » البقرة/ ١٢٧ (٦٣) وعندها أنهى
الخطيب خطبته أسرعت القافلة كلها صوب مكة المكرمة (٦٤) وعلى بعد
سنة أميال كان هناك أكثر من ٢٠٠ و ٢٠٠ بدوى (عربى) يريدون سلب
القافلة ، وقد وصلنا للدفاع عن مكة . الا أننا عند وصولنا لمنصرف
الطريق - وذلك بين مكة المكرمة وموضع النحر - وجدنا جدارا صغيرا
يبلغ ارتفاعه أربع قامات Fathoms (٦٥) ويوجد تحت هذا الجدار كمية
كبيرة من أحجار صغيرة ، وهي أحجار قذف بها الحجاج الذين مروا بهذا
الجدار للأسباب التى سأذكرها لكم فى السطور التالية . انهم (المسلمون)
يقولون انه عندما أمر الله ابراهيم عليه السلام أن يذبح ابنه (يشير
فارتيميا الى أن هذا الابن هو اسحاق عليه السلام ، الا أن الرواية الاسلامية
الراجحة أنه اسماعيل عليه السلام) .

ذهب ابراهيم الخليل بحنا عن ابنه وطلب من ابنه أن يتبعه ، لأنه
كان من الضروري أن ينفذ ابراهيم أمر الله ، فأجابه الابن قائلا : « يا أبت
افعل ما تؤمر ، ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا » .

وعندما وصل اسحق (راجع التفسير القرآنية للتأكد من انه
اسماعيل) عند موضع الجدار المشار اليه آنفا ظهر له الشيطان
فى صورة واحد من أصدقائه (الرواية الاسلامية تذكر أن الشيطان ظهر
لابراهيم الخليل نفسه) (٦٦) وقال له : أين أنت ذاهب يا صديقى اسحق
(بل اسماعيل) فأجاب ، انى ذاهب لأبى فهو فى انتظارى « فقال له
الشيطان : « لا تذهب يا بنى فأبوك سيدبحك قربانا لربه وسينهى حياتك »
فأجاب اسحق « دع أبى يفعل ما دامت هذه هى ارادة الله » عندئذ اختفى
الشيطان ، وبعد مسافة أبعد قليلا ظهر له فى صورة صديق حميم آخر
وكرر على مسامعه الكلمات نفسها ، فأجابه اسحاق (٦٧) (الصحيح :
اسماعيل) غاضبا : «دعه يفعل» ، وتناول حجرا قذف به وجه الشيطان ،

(٦٣) ما بين القوسين اضافة من المترجم .

(٦٤) يذكر بادجر أنه فى هذه المناسبة بالذات يسرع الحجاج بالعودة خوفا من هجوم
البدو ، الا أن الاسراع هنا يرجع أيضا للاقضاء بسنة رسول الله ويسمى الافاضة من
عرفات اذ يجب أن يصل الحجاج العشاء فى المزدلفة - (المترجم) .

(٦٥) القامة ، مقياس لعنف المياه يساوى ستة أقدام .

(٦٦) ما بين الأقواس توضيح من المترجم .

(٦٧) الرواية الاسلامية - كما هو معروف - تذكر أن اسماعيل عليه السلام هو

المقصود هنا .

ولهذا السبب، فإن الحجيج عندما يصلون للمكان نفسه ، يقدفون حجرا على هذا الجدار (٦٨) ثم يدعون مكة (المكرمة) .

وقد وجدنا في طريق مكة ١٥٠٠٠ أو ٢٠٠٠٠ حمامة ، يقولون انها من سلالة الحمامة التي تعدت الى محمد (صلى الله عليه وسلم) وكانت في حقيقتها هي الروح القدس متقمصة شكل حمامة . ويطير الحمام في كل أنحاء مكة بين سعادة الجميع . ففي الحوائط يبيعون الحبوب والذرة الرفيعة والأرز وسائر الخضروات . وأصحاب هذه الحوائط لا يملكون قتل هذه الحمام أو ذبحها أو الامساك بها . وإذا حدث أن ضرب واحد منهم إحدى هذه الحمامات ، فإن الرعب يملأه خوفا من خراب البلد .

ويجب أن تعلم أن هذا الحمام يلحق تلفا كبيرا داخل المسجد الحرام .

وحيد القرن Unicorns (٦٩) في المسجد الحرام

وهو حيوان نادر الوجود في الأماكن الأخرى

موضح آخر من المسجد الحرام temple نية مكان مسود يوجد به اثنان على قيد الحياة من حيوان وحيد القرن . ويبدوان ككائنات عجيبة تأكل الظل ، وإنما لكذلك يثينا . وسأحدث لك من وصفهما ذكرا .

(٦٨) يقول بادجر : أسار فارسيما الى الشيطان الكبير ، باعتباره حجرا ، أو ثوبا جبليا في منى ، ولم يكن واضحا لي ذهنه أن المعنى المقصود هو أن الشيطان بالفعل . قد ظهر لأبراهيم عليه السلام . وأنه رحمه بالحجارة - (موجز تعليق بادجر) .

(٦٩) أسار بيرتون الى أن هذه الحيوانات قد تكون هي الأبقار الوحشية الأفريقية African Antelopes (وورد في معجم الشهابي للعلوم الزراعية عن Antelope أنهلنا جنس حيوانات مجترات من مجوفات القرون فيه أنواع كالظبي الهندي Indian Antelope والمهاة addax ، كما ورد عن Antelopidae أو Antilopidae أنها فصيلة من البقرات نسل بقر الوحش والظباء ، وفيها أقسام . ومنها الغزال والظبي والمهاة والماربة وغيرها) ويميل بادجر الى أن ما رآه فارسيما مجرد مهوات (جمع مها) Oryx وان كانت من نوع غريب أو شاذ anomalous ويستبعد من خلال ما أورده عن علماء الحيوان وغيرهم أن يكون ما رآه فارسيما هو وحيد القرن ، رغم أنه يعود فيذكر نقلا عن بعض الرحالة الأوربيين في أفريقيا وعن بعض السكان المحليين في الحيشة ، وجنوب أفريقيا (البوشمان والهوتدوت) عن وجود حيوان نادر جدا في حرم الحصان له قرن واحد في جبهته . لكن هذه الصفات لا تنطبق على وحيد القرن Unicorn كما يعرفه علماء الحيوان .

أما أكبرهما فيبدو كمهر يبلغ من العمر ثلاثين شهرا • له فى جبهته قرن مسوله ثلاث براشيات braccia (٧٠) • أما وحيد القرن الآخر فيشبهه دهرًا يبلغ من العمر عاما ويبلغ طوله حوالى أربع قبضات Palmi • ويشبه لون الحصان الكميت الداكن أما رأسهما فتشبهان رأس الأيل • وليس لهذا الحيوان رقبة طويلة ، وله بعض الشعر المتفرق القصير على أحد جانبيه ، وأرجله نحيلة عجيفاء كأرجل الماعز ، وفى أقدمه (أطرافه) مشقوق من نواحيها الأمامية (مشقوق الظلف) وهى تشبه أقدام الماعز ويوجد بعض الشعر فى الجوانب الخلفية لسيقانه • وحقيقة الأمر أن هذا الحيوان المسوخ (غريب الشكل) يتحتم أن يكون ترسا وانعزاليا • وكان هذان الحيوانان وحيدا القرن قد أهديا الى سلطان مكة - باعتبارهما من أطرف ما فى العالم وأجمله فى أيامنا هذه - من قبل ملك أثيوبيا •

وقد أرسل هديته هذه تعبيراً عن ولائه لسلطان مكة الآنف الذكر •

ذكر بعض الحوادث فى الطريق من مكة المكرمة الى ميناء جدة

يجب أن أبين هنا كيف يظهر العقل البشرى فطنته فى ظروف بعينها فقد أصبح ضروريا أن أعمل فكرى لاهرب من قافلة مكة • فعندما كنت ذاهبا لاهب من ميناء بعض الاشياء لرئيس القافلة تعرف على أحد المسلمين a Moor إذ تفرس فى وجهى وقال : « انت من أن البلاد » فأجبته : « انى مسلم » فقال لى : « ذال لى : « أنت كذاب » فقلت له : « وأنت النبى أنا مسلم » فقال لى : « تعالى معى الى منزلى » فذهبت معه • وعندما وصلت لمنزله تحدث الى بالاطالية ، وأخبرنى من أى البلاد أتيت وأنه يعلم أننى لست مسلما ، وأخبرنى أنه كان فى وقت سابق فى جنوه Genoa والبندقية Venice ، ووصفهما لى دليلا على صدقه ، وعندما سمعت ذلك أخبرته بأننى ايطالى Roman وأننى أصبحت مملوكا فى القاهرة • وعندما سمع ذلك سر له كثيرا ، وراح يعاملنى باحترام واعتزاز كبيرين ، ولأن قصدى أن أحصل على أكثر من هذا ، فقد شرعت فى استدراجه قائلا ما اذا كانت هذه هى مكة المكرمة ذات الصيت الذائع عبر العالم كله ، فأين الجواهر ، وأين البهارات ، وأين مختلف أنواع البضائع التى قيل انها تتخذ سبيلها الى هذا المكان • لقد أقيمت عليه

(٧٠) يذكر بادجر أنه ربما كان هذا مقياسا بندقيا ، الا أنه يعود فيؤكد عدم معرفته بما يساويه هذا المقياس (البالى Palmi) على أيام فارنيسا ، أما المقياس الذى كان سائدا فى البندقية (على أيام بادجر) فهو البراشيا braccia ويتراوح ما بين ٢٥٠٨ و ٢٦٠٨ بوصة أما البالى palmo فحوالى ٢٩٢٧ بوصة •

هذا السؤال فقط ، عساه يخبرني لم لم تعد هذه البضائع والأشياء تصل الى هنا ، كما جرت العادة قبل ذلك ، ولم أشأ أن أسأله ما اذا كان ملك البرتغال هو السبب ، فقد كان المليك البرتغالي هو سيد المحيط الأطلنطي . Mare Oceano وسيد الخلجان الفارسية والعربية (٧١) . وعندئذ بدأ يخبرني بالتدريج عن سبب عدم وصول البضائع التي سبق أن أشرت اليها مثلما كانت تصل قبل ذلك . وعندما أخبرني أن الملك البرتغالي هو السبب تظاهرت بالحزن العميق وأرسلت فيضا من السباب على هذا الملك البرتغالي ، مخافة أن يكتشف سعادتي لنجاح المسيحيين في اتمام هذه الرحلة (حول رأس الرجاء الصالح) وعندما وجد أنني أظهرت عداة للمسيحيين ، أبدى نحوى مزيدا من الاحترام والاعتزاز ، وراح يخبرني بكل شيء نقطة نقطة وبالتفصيل . وعندما حصلت ما فيه الكفاية من المعلومات ، قلت له : « صديقي ، اننى أتوسل اليك ، وأتمناك من النبي أن تدلني على طريقة للهرب من القافلة ، لأن غرضي هو الوصول الى أولئك الذين يعادون المسلمين ، فاننى أؤكد لك أنهم اذا عرفوا قدراتي لأرسلوا بحنا عنى حتى فى مكة » فسألنى « بحق نبينا محمد ماذا يمكنك أن تصنع ؟ » فأجبتنه بأننى أمهر صانع للمدافع الضخمة Large Mortars فى العالم . . . وعند سماعه لذلك قال : « ان محمدا صلى الله عليه وسلم يستحق الشكر لأنه أرسل لنا مثل هذا الرجل لخدمة المسلمين وارضاء الله سبحانه » ولذلك فقد أخفانى فى منزله وتركنى مع زوجته ، وتوسل الى فى أن أحت رئيس قافلتنا على أن يخرج من مكة خمسة عشر بعيرا محملة بالبهارات ، وذلك حتى لا يدفع ثلاثين أشرافيا Seraphim للسلطان كضريبة ، فأجبتنه بأنه اذا ما أخفانى فى هذا المنزل فاننى سأمكنه من تدهيل مائة بعير اذا كان لديه مثل هذا العدد ، لأن للمماليك هذا الامتياز . وعندما سمع منى ذلك كان فى غاية السعادة . وبعد ذلك ناقشنى فى الطريقة التي يجب أن أتدبر بها أمرى ووجهنى الى أحد ملوك الهند ذوى العيشية وهو ملك الدكن King of Deccan ، وسوف أتحدث عن هذا الملك فى الوقت المناسب فى هذه الرحلات . وقبل رحيل القافلة بيوم خبأنى فى منزله بموضع سرى . وفى اليوم التالى - قبل انبثاق نور النهار بساعتين ، كان ثمة نفي وأبواق صاحبة خلال المدينة وذلك وفقا للعادة المتبعة ، وكان ثمة اعلان بأن على كل المماليك حتى لو كانوا فى حشرجات الموت أن يمتطوا صهوات جيادهم ، لبدءوا رحلة العودة الى سوريا . عندئذ حاصرت المخاوف قلبى بشدة وأثرت الشفقة على نفسى بدموعى التي سكبتها أمام زوجة هذا التاجر وتضرعت الى الله أن ينقذنى

(٧١) ورد فى قرة العيون « عن تاريخ اليمن » أن البرتغاليين حاصروا سبع سفن وطنية بين الهند والخليج الفارسى وقتلوا ركابها ، قبل زيارة فارتيما لككة - (عن بادجر) . -

من هذا البلاء • وفي صبيحة يوم الثلاثاء رحلت القافلة المذكورة ، وتركني التاجر مع زوجته وفي منزله ورافق القافلة بعد أن أخبر زوجته أن ترسلني - يوم الجمعة التالي - بصحبة قافلة الهند المتوجهة الى جدة التي تعتبر ميناء مكة المكرمة والتي تبعد عنها مسافة أربعين ميلا • ولا أستطيع أن أعبر عن الرقة التي شملتني بها هذه السيدة وخاصة من ابنة أختها - ذات الخمسة عشر ربيعا ، فقد وعدتاني أنني اذا بقيت هناك ولم أرحل ، فستجعلان مني رجلا ثريا • لكنني تنازلت عن كل هذه العروض لحساب الخطر الحالي • وحين أقبل يوم الجمعة خرجت مع القافلة ظهرا دون أدنى أسف لمغادرة المرأتين اللتين راحتا تنشجان حزنا لفراقى • وفي منتصف الليل وصلنا الى احدى المدن ومكثنا بها طوال الليل وحتى ظهر اليوم التالي • وفي يوم السبت شرعنا في المسير وظللنا في ترحال دائم حتى منتصف الليل ، حين دخلنا ميناء جدة •

جدة (٧٢) ، ميناء مكة والبحر الأحمر

لا يحيط بجدة سور ، وانما هي محاطة بمنازل في غاية الجمال ، كالمعتاد في إيطاليا ، لذا لن نفرق كثيرا في وصفها • انها مدينة مزدحمة جدا لأن عددا كبيرا من المسلمين (عبر عنهم فارتيماس بالوثنيين pagan people) (٧٣) يأتون اليها ، ولا يسمح بقدوم المسيحيين أو اليهود لها • وعندما وصلت الى هذه المدينة (جدة) دخلت بسرعة مسجدا كان يوجد به ٢٥٠٠٠ فقير على الأقل ، وانزويت في أحد أركانه (استخدم فارتيماس تعبير المعبد temple بدلا من المسجد) (٧٤) ومكثت فيه أربعة عشر يوما • وكنت أمكث طوال النهار منطرحا فوق الأرض متدثرًا بشيأى ، تصدر عني أنات دائمة لأنى كنت أعانى من آلام شديدة في معدتي وبدنى • وقد سألت التجار : « من الذى يئس هكذا ؟ » فأجابته الفقراء الذين كانوا الى جوارى : « انه مسلم فقير يحتضر » وفي كل ليلة كنت أنسل خارجا من المسجد لشراء طعام • وأترك الأمر لتقديرك لتحكم ما اذا كانت لدى الشهية الكافية أم لا ؟ فقد كنت لا أتناول الطعام الا مرة واحدة فى اليوم ، وكان طعاما رديئا • وجدة تتبع سلطان مصر ، ويحكمها (جدة) أخو شريف مكة بركات (استخدم فارتيماس تعبير سلطان

(٧٢) كتبها فارتيماس Zida زدة ، وقد علق بادجر ذاكرا أنها جدة (بكسر الحيم)
: أو جدة بفتح الجيم وبرى هذا المستشرق (بادجر) أنها بالفتح أصح
(٧٣) توضيح من المترجم •
(٧٤) ما بين القوسين توضيح من المترجم •

مكة (٧٥) وهو تابع للسلطان الكبير فى القاهرة . ولم يحدث لى هنا كثيرا مما يمكن أن أرويه ، فالتاس هنا مسلمون ، ولا تنبت الأرض شيئا وثمة ندرة شديدة فى المياه العذبة ويلطم البحر جدران المنازل . وكل أنواع الضروريات متوفرة هنا ، الا أنها تجلب من القاهرة وبلاد العرب السعيدة (جنوب جزيرة العرب) ومن أماكن أخرى . وفى جدة يوجد دائما عدد كبير من المرضى ويعزون ذلك لرداءة الهواء فى هذا المكان . وتضمهم جدة حوالى خمسمائة أسرة .

وفى نهاية اليوم الرابع عشر ، اتفقت مع ربان سفينة كانت مبحرة الى فارس ، اذ كان فى ميناء جدة حوالى مائة سفينة بين كبيرة وصغيرة . وبعد ثلاثة أيام غادرت سفينتنا مبحرة فى البحر الأحمر .

لماذا البحر الأحمر غير صالح للملاحة ؟

يجب أن يكون مفهوما أن هذا البحر ليس أحمر ، فمياهه ، كمياه أى بحر آخر . وقد أبحرنا فى هذا البحر طوال النهار وحتى مغيب الشمس ، فالإبحار فيه ليلا غير ممكن . وكان هذا دأبنا نبحر نهارا ونرسو ليلا حتى وصلنا لجزيرة كمران *chameran* (٧٦) ، وبعد هذه الجزيرة يمكن أن تبجر بأمان . أما السبب الذى جعل الإبحار غير ممكن ليلا فهو وجود عدد كبير من الجزر والصخور ، ومن الضروري أن يكون هناك - دائما - فى أعلى الصاري رجل ليستطلع الطريق ، وهو أمر لا يمكن حدوثه ليلا ، لذا فقد كان فى إمكانهم الإبحار نهارا فقط .

(٧٥) ما بين القوسين توضيح من المترجم .

(٧٦) بين عدن وجزيرة فرسان .

السفر الثالث

بلاد العرب السعيدة

جيزان (١) وخصوبتها

عند الحديث عن مواضع بلاد العرب الصحراوية ، ومدنها ، وعادات أهلها ، بقدر ما سمحت لي الظروف برؤيتهم ، تراءى لي أنه سيكون من الأفضل أن نتعرض لبلاد العرب السعيدة أيضا ، فالحديث هنا سيكون أكثر ايجازا ، وأكثر امتناعا . فبعد مرور ستة أيام وصلنا الى مدينة جيزان وهي ميناء جميل جدا ، وقد وجدنا فيه خمسا وأربعين سفينة لبلاد مختلفة . وهذه المدينة تقع على ساحل البحر وهي تابعة لحاكم مسلم Moorish Lord ، وهي تشمل منطقة مشرفة جدا ذات منظر خلاب ، كالمناطق المسيحية (في أوروبا) ويوجد هنا عنب وخوخ وسفرجل ورمون وثوم له رائحة نفاذة جدا ، وبصل طيب وجوز وبطيخ وورود وأزهار وخوخ (دراق) وتين ويقطين وأترج وليمون وبرتقال حامض ، ولكل هذا فهي فردوس . وسكان هذه المدينة يسيرون شبه عراة ويسيرون في حيواتهم على طريقة المسلمين . واللحوم والغلال والشعير والذرة البيضاء - التي يصنع منها خبز جيد - كل أولئك موجود هنا وبوفرة . ولقد مكثنا هنا ثلاثة أيام للتزود بالمؤن اللازمة للرحلة .

البدو (٢)

بعد رحيلنا من مدينة جيزان ظللنا لمدة أيام خمسة في محاذاة البر ، وكان هذا البر عن يسارنا ، وعندما رأينا بعض السكان على الساحل

(١) يذكر بادجر في تعليقه ما نلخصه كالتالي : تقع جيزان (يكتبها الرحالة الاوروبيون بطريقتين املايتين مختلفتين Jeezan أو Gheezan) في منطقة خصبة وليس بها الا قليل من المساكن الحجرية وانما معظم بيوتها من القش على شتل هرمي (اكواخ) وبها قلعة كبيرة ، أصبحت خربة ، وفي جيزان مرنا جيد للسفن الصغيرة ، ويفضل السكان الرجال أنصافهم السفلية بقطع من القماش القطني (الفوطه) . وقد استخلص بادجر هذه المعلومات من رحلة نيبور Niebuhr

(٢) يعتقد فارتينا أن المقصود هنا ليس مطلق البدو (جمع بدوى) وانما المفصود =

نزل منا أربعة عشر رجلاً لنطلب منهم بعض المؤن مقابل النقود .
فأجابوا طلبنا بقذف الحجارة علينا من مقاليعهم Slings . وهم نوع
من البشر يقال لهم البدو . لقد كان عددهم يزيد على المائة ، وكنا أربعة عشر
رجلاً ، واستتبكنا معهم في قتال استغرق حوالى ساعة حتى ان أربعة وعشرين
رجلاً منهم مانوا في ساحة المعركة وشرع الآخرون في الانسحاب ، وكانوا
عراة ولم يكن لديهم أسلحة الا هذه المقاليع ، وأخذنا كل ما استطعنا من
دجاج وعجول وثيران وغير ذلك مما هو صالح للأكل . ونى غضون ساعتين
أو ثلاث بدأ الاضطراب والشغب يزددان على هذا الساحل فقد كانوا أكثر
من ستمائة ، وكنا مضطرين للانسحاب الى سفينتنا .

جزيرة كمران Chamran (٣) في البحر الأحمر

وفى نفس النهار اتخذنا سبيلنا الى جزيرة يقال لها كمران ، ويبدأ
أن محيطها يبلغ عشرة أميال أو اثني عشر ميلاً ، ويقطعها حوالى
مائتى أسرة ، من المسلمين . وبالجزيرة ماء عذب ولحوم ، ورأيت هنا
أفضل أنواع الملح وبالجزيرة ميناء يطل على الساحل (المقابل) للبحر
الأحمر ، ويبعد عنه قرابة الثمانية أميال . وهذه الجزيرة تابعة للسلطان
أمير المؤمنين Amanni (٤) وهو سلطان بلاد العرب السعيدة ، وقد

= سكان قرية يقال لها قرية البدوى Village El-Badawi التى تقع بن جيزان وكمران .
وتوجد قرية أخرى تسمى خبط الكار Khabt el-Bekkar وصفها نيجور بأنها قرية
تسكنها بعض الأسرات المبدية (الجلالة التى تعودت على سلب المسافرين) .

(٣) كتبها فارتيميا شمران Chamran . وطول كمران أحد عشر ميلاً ، أما عرضها
فبتراوح بين ميلين وأربعة أميال ، ويوجد فى هذه الجزيرة سبع قرى معظمها مكون من أكواخ
يملكها الصيادون ، ويتوفر الماء العذب فى هذه القرى وبعض مناطق الجزيرة مخصص
للزراعة ، وبها وفرة من الغنم والثيران ، وهى ميناء آمن يتردد عليه السكان العاملون فى
مجال التجارة بن البحر الأحمر ، وبلاد فارس والهند (مختصر تعليق بادجر) وكمران جزيرة
معروفة بين عدن وجزيرة فرسان ، قرب الساحل الشرقى .

(٤) يرى بادجر أن المقصود قد يكون أحد أئمة صنعاء ، وقد يكون المقصود هو
السلطان عامر بن عبد الوهاب الذى يصفه النهروالى بأنه آخر ملوك العرب فى اليمن ،
ويقول فيه ما نصه : « اعلم أن سلطنة ممالك اليمن ، أعلاها وأسفلها ، وجبالها وتمامها »
انتهت فى رأس القرن العاشر ، الى السلطان عامر بن عبد الوهاب بن داود بن طاهر بن
معوضة الأموى ، ولقبه الملك الظافر ، صلاح الدين ، وهو آخر ملوك بنى طاهر . وابتداء
ملكهم فى سنة ٨٥٩ هـ ، أخذوا مملكة اليمن من بنى رسول الغسانى ، وولى السلطان
عامر بعد وفاة عمه المنصور فى سنة ٨٩٤ هـ ، واستمر سلطاناً مطاعاً فى أقطار اليمن كلها =

مكننا فى الجزيرة يومين • ثم اتجهنا صوب مخرج البحر الأحمر ، ومنذ مغادرة الجزيرة يمكنك الابحار بأمان ليلا ونهارا ، أما من الجزيرة حتى جـدة فلا يمكنك الابحار ليلا ، وعندما وصلنا الى مخرج mouth البحر ، ظهر أننا كما لو كنا محاصرين ، فالمضيق لا يزيد عرضه عن ميلين أو ثلاثة ، وعن يميننا أرض يبلغ ارتفاعها حوالى عشرة أقدام ، وعلى قدر ما يمكننا أن ندرك على بعد هذه المسافة ، فانه لا يسكنها أحد ، وعلى يسارنا فى هذا المضيق embouchure يوجد جبل حجرى مرتفع جدا ، وفى منتصف المضيق توجد جزيرة غير مأهولة الا من القليلين تسمى باب المندب Bebmendo • فأولئك الذين يرغبون فى الذهاب الى زيلع Zeilla يبحرون الى اليمين أما الزاهبون الى عدن فيتجهون الى شمائلهم ، وقد سلكنا هذا الاتجاه للذهاب الى عدن ، وقد كنا دائما نبحر بالقرب من الساحل • وقد وصلنا لعدن بعد مغادرتنا جزيرة باب المندب فى يومين ونصف اليوم ، وانقص قليلا •

مدينة عدن ، وبعض عادات التجار

عدن هى أكثر المدن التى يمكن وصفها بأنها حصينة اذ ترى دائما فى مستوى الأرض ، وهى مسورة من جانبيين ، ويحميها من جانبيها الآخرين جبال عريضة ، وعلى هذه الجبال خمس قلاع (٥) ، وأرضها مستوية سهلة ، وتضم خمسة آلاف أو ستة آلاف أسرة • ويعقد بها سوق فى الساعة الثانية ليلا (٦) (صباحا) تجنباً للحرارة الشديدة نهارا • وعلى مرمى حجر من هذه المدينة (عدن) يوجد جبل ، عليه قلعة ، وعند سفح هذا الجبل تلقى السفن بمراسيها (٧) • ومدينة عدن فى غاية:

= الى انتهاء دولته ٠٠٠ وكان كثير المال والسلاح ، شافعي سنيا قرشيا عشميا ، الا أنه كان كثير التعرض للأوقاف ٠٠٠ الخ » •

النهر والى ، قطب الدين محمد بن أحمد : البرق اليماني فى الفتح العثماني : تاريخ اليمن فى القرن العاشر الهجرى ٠٠٠ الرياض ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٨٧ هـ ، ١٩٦٧ م • اشرف على طبعه حمد الجاسر • ص ص ١٦ - ١٧ •

(٥) يذكر بادجر أن بقايا هذه القلاع لازالت موجودة ، ومعظم هذه التحصينات فيما يقول بادجر نفلا عن بعض المراجع العربية ، أنشأها عثمان الزنجلى الذى عينه طوران شاه ابن أيوب ، أخو صلاح الدين الأيوبي • حاكما على عدن سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) وقد ظلت بعض منشآت عثمان هذا قائمة حتى استيلاء الانجليز على عدن سنة ١٨٣٩ •

(٦) يرجح بادجر أن يكون المقصود « بعد مغرب الشمس بساعتين » •

(٧) يرى بادجر أن المقصود بالجبل هنا جزيرة سرا seerah التى ربطت على أيامه بالبر العدنى بجسر ، ومن الأمور التى تشاع فيما يتعلق بهذه المنطقة أن قابيل عندما قتل •

الجمال وهي عاصمة (أهم المدن) بلاد العرب السعيدة فهي ملتقى السفن التي تأتي من الهند الكبرى والهند الصغرى ومن أثيوبيا ومن بلاد فارس ، وكل السفن التي تقصد مكة ترسو هنا . وبمجرد أن نصل السفينة للميناء يصعد اليها موظفو سلطان هذه المدينة ، ليعرفوا من أين أتت وما هي حمولتها ومتى تغادر وكم عدد الأشخاص على متنها ، وعندما يجمعون كل هذه البيانات ، يقومون بنزع أشعة السفينة وساريتها ودفعتها its rudder (موجهها) ومراسيها its anchors ويحملون كل ذلك معهم ، وذلك مخافة أن يغادر الأشخاص المسترلون عن السفينة الميناء ، دون دفع الرسوم للسلطان (٨) . وفي اليوم الثاني بعد وصولي عدن قبض على وكبلت بالحديد وكان ذلك بسبب أحد رفاقي الذي قال لي : « أنت مسيحي كلب ابن كلب » . وقد سمع بعض المسلمين ذلك القول ، ونتيجة سماعه هذا القول ، تم القبض على بعنف شديد واقتادوني الى قصر نائب السلطان Vice - Sultan وسرعان ما عقدوا اجتماعا ليقرروا ما اذا كان يجب عليهم اعدامى ، نظرا لأن السلطان لم يكن موجودا بالمدينة (عدن) . لقد قالوا اننى جاسوس للمسيحيين ، الا أن كون ساطان هذه الأنحاء لم يسبق له اعدام أى شخص ، جعل هؤلاء الناس يحترمون حياتى ، فأبقوني سنتين يوما وخمسة أيام مكبل القدمين بحديد يزن ثمانية عشر رطلا . وفي اليوم الثالث بعد القبض علينا ، أقبل أربعين أو ستون شخصا من المسلمين - كان البرتغاليون قد استولوا على سفنهم - يهرولون نحو القصر ، وكان هؤلاء المهرولون قد هربوا من قبضة البرتغاليين بأن وصلوا سباحة الى أقرب شاطئ ، وقد ذكر هؤلاء الناجون أننا (أى فارتبما وصحبه) ينتمون الى السفن البرتغالية المهاجمة ، وأنا (فارتبما وصحبه) قد قدمنا الى عدن كجواسيس . وبسبب هذه الفرية فقد أقبلوا نحو القصر وهم فى حالة هياج فظيع وأسلحتهم فى أيديهم لقتلنا ، لكن عناية الله جعلت الحراس يسرعون بإغلاق الأبواب fastened the door on the inner side. لقد أدت هذه الحادثة الى تهيج أهل البلاد فحملوا السلاح ، ورأى بعضهم

= أخاه هابل ، وخاف من أبيه آدم ، هرب من الهند واتجه الى عدن واستقر فى جزيرة سرا Seerah ، ولأنه كان حزينا لفراق أهله ، فقد ظهر له الشيطان وأهداه بعض الآلات الموسيقية ليسل نفسه ، ومن الخرافات التى تشاع أيضا أن نار جهنم ستنبت يوم الحساب من صخرة جزيرة سرا . وقد استعمر البرتغاليون جزيرة سرا فى سنة ١٥١٦ ورفضوا القلعة فى قمة جبلها ، ولا تزال بقايا هذه القلعة قائمة الى اليوم .

(٨) يذكر بادجر أن هذا الاجراء ليس مقتضرا على مسئولى عدن فحسب ، فى هذه الفترة ، وإنما هو عادة متبعة يمارسها الشيوخ المحليون على طول سواحل شبه الجزيرة العربية ، عندما يريدون احتجاز احدى السفن .

ضرورة اعدامنا ، ورأى بعضهم الآخر الابقاء علينا . وفى خاتمة المطاف .
 تلقى نائب السلطان أمرا من السلطان بالابقاء علينا . وفى نهاية اليوم
 الخامس والستين من القاء القبض علينا أرسل السلطان يستدعينا ،
 فحمل كلانا على جمل ولا زالت القيود الحديدية فى أقدامنا .
 واستغرقنا فى الطريق ثمانية أيام ثم قدمنا للسلطان فى مدينة يقال لها
 ردا Rhada (٩) . وقد كان السلطان عند وصولنا اليه يستعرض
 ٨٠٠٠ مقاتل لأنه كان بصدد خوض حرب مع سلطان آخر هو سلطان
 صنعاء Sana التى تبعد عن Rhada مسافة تستغرق
 ثلاثة أيام (١٠) . ويقع جانب من صنعاء على جبل ، كما يقع جانب آخر
 منها فى السهل ، وهى مدينة جميلة جدا ، وعريقة جدا ، كما أنها غنية
 وعامرة بالسكان . وعندما مثلنا أمام السلطان سألنى عن موعد قدومى ،
 فأجبت قائلا « أنا من بلاد الروم ياسيدى ، وقد أتيت من القاهرة ، قاصدا
 المدينة المنورة ومكة المكرمة ، ثم أتيت الى بلادك لأن كل الناس فى سوريا
 وفى مكة والمدينة يقولون انك ولى من أولياء الله الصالحين Saint
 وأنا - ياسيدى - عبدك ، وأنت تعرف أننى مسلم ولأنك من أولياء الله
 الصالحين يا سيدى ، فأنت تعرف أننى لست جاسوسا للمسيحيين (١١) ،
 وانما أنا مسلم حق وأننى عبدك المخلص » وعندئذ قال السلطان لى : قل
 لا اله الا الله ، محمد رسول الله . لكننى لم أستطع النطق بهذه الكلمات
 على الاطلاق ، اما لأن هذه كانت ارادة الله أو لأن الخوف عقد لسانى .
 ولما رأى السلطان أننى لم أستطع النطق بهذه الكلمات (الشهادتين) أمر
 بالقبض فى السجن مع حراسة مشددة يقوم عليها رجال من ثمانى عشرة
 قلعة بحيث يجلب لهذا الغرض أربعة رجال من كل قلعة من هذه القلاع .
 وقد بقي فى حراستى فى بداية الأمر أربعة رجال لمدة أربعة أيام ثم
 استبدلوا بأربعة آخرين من أربع قلاع أخرى ، وبهذه الطريقة كانوا
 يقومون على حراستى طوال شهور ثلاثة ، وكانوا يقدمون لى رغيف دخن
 millet صباحا ، ورغيفا آخر فى المساء ، مع أن سبتا من هذه
 الأرغفة ما كان ليكفينى ليوم واحد ، واذا ما حصلت فى بعض الأحيان
 على ما يكفينى من الماء فان ذلك كان يبعث فى السعادة .

(٩) تقع الى الشمال من عدن ، وتبعد عنها حوالى ١٩٠ ميلا ، والى الجنوب من صنعاء
 بحوالى ستمين ميلا . وبالرجوع الى كشف البرق اليماني فى الفتح العثماني لقطب الدين
 النهروالى الذى أشرف حمد الجاسر على طبعه ، نجد أنها (ردا) تنطق بكسر الراء أيضا .
 (١٠) كان الأمير ابن عبد الوهاب الملقب بالملك الظافر سلطانا (حاكما) على عدن
 وجنوب اليمن ، وكان كما أشرنا فى حاشية سابقة شافعيًا سنيًا ، وكان فى حالة نزاع
 مع أئمة صنعاء .

(١١) لا يعرف الغيب الا الله - (المترجم) .

وبعد أن أمر السلطان بإيداع السجن بيومين ، توجه السلطان إلى صنعاء بجيشه الذي كان يضم ثلاثة آلاف فارس من أبناء المسيحيين ، وإن كانوا سودا (سمرا) كالمسلمين (كالعرب as Moors) . لقد كانوا من أتباع القديس يوحنا prester John (١٢) الذين تم شراؤهم وهم في أعمار تتراوح بين الثامنة والتاسعة ودربوا على حمل السلاح وقد كان هؤلاء يكونون الحرس الخاص للسلطان لأنهم كانوا أفضل من بقية الجنود ، بل ويساؤون في مهارتهم بقية الجنود البالغين ٨٠٠٠ مقاتل . فقد كان الباقون جميعا يتسمون بالهزال كما كانوا عراة إلا من قطعة من الكتان يرتديها الواحد منهم كعباءة (أو كستر Like a mantle) ، وعندما يخوضون المعركة يستخدمون تروسا مسنديرة مكونة من قطعتين من جلود الأبقار أو الثيران ملتصقتين معا . وفي وسط كل ترس من التروس المذكورة أنفا توجد أربعة قضبان (أعواد أو عصي) ليظل الترس مستقيما (حتى لا يعوج) ، وقد طليت هذه التروس حتى تبدو لمن يراها أجمل شكلا وأفضل صنعا مما هي عليه في الواقع . ويبلغ الترس في حجمه قاع حمام خشبي as the bottom of a tub ، أما مقبضه فمكون من قطعة من الخشب يمكن القبض عليها باليد ، مثبتة في الترس بمسمارين . كما يحمل المقاتل في يده أيضا سهما (رمحا) a dart وسيفا قصيرا عريضا ، ويرتدي صدرة vest حمراء أو ذات لون آخر ، مصنوعة من القطن ، تقيه البرد وبأس أعدائه . وبشكل عام ، فإنهم يحملون مقاليع sling لتغذف الأحجار على أعدائهم ، وهم يرفعونها حول رؤوسهم (أي المقاليع) وتحت هذه المقاليع يضع الواحد منهم قطعة خشب طولها شبر a Span تسمى مسواكا لتنظيف أسنانه . وبشكل عام فإن من هم أقل من أربعين أو خمسين سنة يلبس الواحد منهم قرنين (ضفirtين) قد جدلتا من شعره

(١٢) المقصود أنهم أحباش ، أو اثيوبيون ، وقد كان البرتغاليون يسمون بلاد الحبشة - في هذه الفترة - مملكة القديس يوحنا ، ومما يذكر أن الكشوف الجغرافية البرتغالية منذ أيام هنري الملاح . كانت تهدف - من بين ما تهدف - إلى الوصول إلى مملكة القديس يوحنا (الحبشة) طنا من البرتغاليين أنها كانت مملكة قوية يمكن التحالف معها لتطويق العالم الإسلامي ، ولكن ذلك على كل حال لم يحدث ، والواقع أن ما كتبه فارتيمو في كتابه هذا عن بلاد العرب السعيدة ، من حيث دفاعه عن الملك البرتغالي ، وتحسره على رجال القديس يوحنا ، وما إلى ذلك . يؤكد ما ذهبنا إليه في مقدمة الترجمة العربية من أن الرجل كان يعمل لحساب البرتغال أو لحساب البرتغال وإسبانيا معا . (مختصر عن تعليق بادجر) .

حتى يبدو صغير السن (١٣) وقد أخذ السلطان الآنف الذكر مع جيشه أيضا ، خمسة آلاف بعير محملة بالخيام والحبال المصنوعة من القطن (١٤) .

شغف نساء بلاد العرب السعيدة بالرجال البيض

بعد أن رأينا كيف رحل الجيش الى صنعاء ، دعونا نعد مرة أخرى الى حديث السجن . لقد كان في قصر المدينة الذي ذكرته آنفا احدى أزواج السلطان الثلاث مع اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة من الوصيفات العذارى ، كن في غاية الجمال ، وكانت بشرة زوج السلطان هذه أقرب للسواد من بشرتي زوجيه الآخرين . وقد كانت هذه الأميرة (زوج السلطان) في غاية الرقة معي . لقد كنت أنا ورفيقي ورجل عربي مسلم a Moor في السجن معا ، وكنا ثلاثتنا قد رتبنا أمرنا على أن يتظاهر واحد منا بالجنون ، كي يساعد كل منا الآخر ، وفي نهاية الأمر - عندما أسهموا - كان من نصيبي أن أقوم أنا بهذه المهمة ، فأخذت الأمر على عاتقي ، ورحت آتى من الأمور كما لو كنت مجنونا حقا . وأقول لكم الصدق ، اننى لم أحس أبدا بالرعب والانهاك ، كما أحسست في الأيام الثلاثة الأولى . والسبب في ذلك أن خمسين أو ستين من الأطفال الصغار كانوا يلاحقونى دوما ، ويحصبوننى كما كنت بدورى أحصبهم . وكانوا يصرخون فى اثرى قائلين : « يا مجنون . يا مجنون » وكنت أملاً ثيابى بالحصى والأحجار وأتصرف كمجنون . وكانت الأميرة (زوج السلطان الآنف الذكر) تظل دوما مع وصيفاتها من النافذة ، وتظل هكذا عند النافذة من الصباح حتى المساء ، لترانى وتتجاذب معى أطراف الحديث ، وكان كثيرون من الرجال العابرين والتجار يهزأون بى ويسخرون منى وينزعون قميصى حتى أغدو عاريا تماما كما ولدت ، وأكون بوضعى العارى هذا أمام الأميرة التى كانت تبدى سعادة فائقة عند رؤيتى عاريا هكذا ، وكانت تتشبهت بى حتى لا أتركها وكانت تقدم لى طعاما فائرا آكله حتى أكف عن ابداء رغبتى فى البعد عنها . وقد قالت لى هذه الأميرة أيضا : أعطه لهذه الحيوانات ، حتى اذا ما قتلتها فإنها ستكون هى المسئولة عن

(١٣) لبست هذه الطريقة فى لبس الضفائر المجدولة خاصة بقبائل وسط اليمن فحسب ، اذ أن بادجر قد رأى نساء من بعض أسرات الرقيق يفعلن ذلك فى زنجبار ، أما العرب القريبون من الساحل . فعادة ما يتركون شعورهم الطويلة شعنا مهوشة فى وسط رؤوسهم ، تاركين هذه السعور لتكون خصلة كبيرة (قنزعة) عند مقدمة الرأس . (عن بادجر) .

(١٤) لم تكن الأسلحة النارية شائعة الاستعمال فى اليمن قبل سنة ٩٢١ هـ (١٥١٥ م) عندما أدخلتها الحملة المصرية ، وبدأ استخدامها فى القتل فى المنطقة الساحلية المواجهة لجزيرة كمران - (بادجر) .

ذلك « (١٥) وكان ثمة خروف يمسر في الساحة السلطانية (الملكية) ،
تزن ليته أربعين رطلا وقد حاصرته وسألته (أى الخروف) ان كان مسلما
أو مسيحيا وأن عليه أن يقول الصدق ان كان يهوديا ، ورحت أكرر هذه
الكلمات مرارا له (للخروف) ثم قلت له : « دلت على أنك مسلم وقل :
لا اله الا الله ، محمد رسول الله » الا أن الخروف وقف ازاى لا ينطق ،
ولا غرو ، فهو حيوان بائس ، وقد طعنته وكسرت أرجله الأربع (١٦) .
وكانت الأميرة تجلس هناك وهى تغرق فى الضحك ، وتند أطمعنتنى
الأميرة من لحم هذا الخروف لمدة ثلاثة أيام ، ولا أذكر أننى أكلت لحما
أفضل مذاقا من لحمه . وبعد ذلك بثلاثة أيام قتلت بالطريقة ذاتها
حمسارا كان يحمل الماء الى القصر ، لأنه رفض أن يكون مسلما (١٧) .
وقد قتلت بالطريقة ذاتها التى يقتل بها اليهود الحيوانات ،
فقد رحب أضربه بالعصا الغليظة (النبوت) وتركته يموت . لكن حدث
ذات يوم بينما كنت على وشك قتل حيوان آخر بالطريقة ذاتها أن مررت
بواحد من أولئك الذين أتوا بى الى السجن ، وكان الرجل أكثر جنونا
منى ، فقال لى (وأنا على وشك قتل أحد الحيوانات) : (يا كافر يا كاذب
يا ابن الكلب) فألقيت كثيرا من الحجارة عليه الا أنه رد على ذلك بأن
راح يقذفنى بجميع الأطفال بالحجارة فى صدرى ، فألمنى كثيرا . ولم أعد
قادرا على متابعته لوجود القيود الحديدية فى قدمى ، فاتخذت سبيلى الى
سجنى ، لكننى قبل أن أصل ، قذفنى بحجر آخر فى الجانب فأحدث لى
ألما أنكى من الألم الذى سببه الحجر الأول . لقد كان يمكننى بيسر أن
أتعاشى الحجرين اذا ما كنت راغبا فى ذلك ، لكننى آثرت أن أتلقى
الضربتين ، لأجعل لجنونى طعاما . وعقب ذلك أسرعرت فورا بدخول سجنى
وأوصدته بأحجار ضخام ، وظلمت نهارين وليلتين دون طعام أو شراب ،

(١٥) النص الانجليزى :

Give it to those beasts, for if you kill them it Will
be their own faults.

والمعنى غير واضح تماما ، فما الذى يعطيه للحيوانات ؟ قد يكون المقصود هو الطعام .
أما عن المسئولية ، و الخطأ ، فقد يكون خطأ الحيوانات لأنها أكلت الطعام المقدم لها .
وقد يكون خطأ الذئب أعدوا الطعام « كان يكون مسموما مثلا » . المعنى غير واضح على
أية حال . - (المترجم) .

(١٦) النص الانجليزى :

"... I took a stick and broke all its four legs"

« وقد تناولت قضيبا وكسرت أرجله الأربع » Legs ومن المعروف أن هذه ليست
طريقة الذبح عند المسلمين . والذى يقبله العقل أن هناك جملة ناقصة أو محذوفة أو
ساقطة من النص ، نفيد أنه (أى فارثيما) ذبح الخروف ثم قطع أرجله - (المترجم) .
(١٧) هذا الكلام وفقا لخطة فارثيما الذى اتفق عليها مع صاحبيه فى السجن ، ودى
التظاهر بالجنون .

فخشت الاميرة والآخرون أن يكون قد لاقيت حتفى ، وكسروا الباب وأحضر لى هؤلاء الكلاب بعض قطع الرخام وقالوا لى : كل فهذا سبكر ، وجاب لى آخرون عنبا مليشا بالتراب وقالوا لى : كل هذا ملح ، وقد ازدردت قطع الرخام والعنب وكل شىء مرة واحدة .

وفى اليوم ذاته أحضر بعض تجار المدينة رجلين يعتبرونهما من الصالحين الأنقياء hermits لاعتزالهما فى بعض الجبال وذلك ليعرضوني عليهما ، وسألهما التجار عنى أأبدو لهما رجلا صالحا (وليا) holy ام مجنوننا » فقال أحد الرجلين اننى (فارتيميا) أبدو له درويشا مبروكا ، وحكم الآخر على بالجنون ، وظلا يتناقشان فى هذا الأمر أكثر من ساعة ، وحتى أتخلص منهما ، فقد خلعت ثيابى وطرحتها عليهما ، فراحا يهرولان مبتعدين ، وهما يصيحان : مجنون ٠٠ انه مجنون ٠٠ ليس درويشا ٠٠ ليس صوفيا (١٨) . وكانت الأميرة مع وصيفاتها قرب النافذة ورأين هذا المنظر فضحكن ، وقالت الأميرة : « والله ، ورأس النبی (١٩) ٠٠ هذا الرجل ما فى الدنيا مثله » . وفى صبيحة اليوم التالى وجدت الرجل الذى كان قد قذفنى بالحجرين فى حالة سكون ونعاس ، فحاصرته وأمسكته من شعره ووضعت ركبتي على بطنه ، ورحت ألكمه بقوة على وجهه حتى تغطى بالدم . وكانت الأميرة عند نافذتها تطالع وتبدي دشتها وتقول : « اقتل هؤلاء الدواب » . وقد اكتشف حاكم هذه البلدة فى ظروف متعددة أن رفيقى فى السجن يدبران للهرب اذ أحدنا فتحة فى السجن وأزاحا القيد من أرجلهم ، ولأنه كان قد عرف أن الأميرة مسرورة منى جدا لذا فلم يلحق بى أى أذى حتى يكلمها بشأنى ، وعندما علمت الأميرة بالأمر كاملا ، وقر فى عقلها أفنى عاقل ، فأرسلت الى وجعلتنى فى غرفة سفلية بالقصر ، لا باب لها ، وإن كانت قد أبقت على القيد فى رجلى .

الأميرة تتصرف بتخبر

فى الليلة الأولى التالية لذلك ، قدمت الأميرة لزيارتي مع خمنس أو ست من وصيفاتها ، وشرعت تتفحصننى ، وبدأت أظهر لها بالتدريج ما يفيد أننى لست مجنوننا . وقد كانت تولى كامرة ذكية - أثنى لسنثا

(١٨) الكلمات بنصها هى : صوفى مافى أو صوفى مفيش .

(١٩) هذا القسم شركى لا يقره المسلمون من أهل السنة والجماعة - (المترجم) .

مجنونا البتة ، وبدأت تفعل الشيء الكثير من أجلى ، فأمرت بسرير جيد بعد فرشته ، وأرسلت لى كثيرا من الطعام الممتاز ، وأعدت لى فى اليوم التالى حماما وعطورا كثيرات ، واستمرت هذه العناية بى على هذا النحو اثنى عشر يوما . وبعد ذلك راحت تنزل لى فى غرفتى كل ليلة فى الساعة الثالثة أو الرابعة ، وكانت فى كل مرة تجلب لى معها مالد وصابون طعام . وكانت تدخل الى فى مخدعى وتدعونى قائلة : « جونا تعال أنت هنا . . أجانع أنت ؟ » فأجيبها قائلا : « اى والله » وأقوم من مرقدى ، فأقف على قدمى ، وأخطو إليها وعلى قميصى . لكنها قالت : « ليش هذا القميص » أى « لا أريدك هكذا بهذا القميص . . اخلعه » . فأجبتها : « ياسنى أنا مو مجنون الحين » أى « ياسيدتى . . اننى لست مجنونا الآن » فأجابتنى : « والله أنا عارفه ، انت أبدا ما مجنون . . انت ما فى الدنيا مثلك » ، وحتى أسعدها خلعت قميصى وألقيته أمامى بحياء ، فجعلتنى الأميرة أقف أمامها بوضعى هذا لساعتين من الزمن وراحت تتأملنى كما لو كنت أحد آلهة الجمال anymph وراحت تناشد الله سبحانه بهذه الكلمات : « يا الله أنت خلقت هذا أبيض مثل الشمس ، وخلقتنى سوداء . . . يا الله . . يانبى (٢٠) . . لماذا كان زوجى أسود ؟ ولدى أنا أسود . . وهذا الرجل أبيض . . ان شاء الله هذا الرجل يكون زوجى . . وان شاء الله يكون أولادى مثل هذا » وكانت الأميرة وهى تتضرع بهذه الكلمات لا تكف عن البكاء والتنهد وابداء اللهفة بتمرير يديها على طوال الوقت ، واعدة اياى أنه بمجرد أن يعود السلطان فانها ستجعله يفك قيودى . وفى الليلة التالية أتت الأميرة ومعها وصيفتان ، وجلبت لى طعاما طيبا آكله وقالت : « تعال هنا يا جونا (يالوديفيكو) » فأجبتها : « أنا آجى عندك أى سأتيك . . لكن ليش يا سنى أنا مقيّد ؟ » فقالت الأميرة : « أيسعد يا لوديفيكو أن آتى وأجلس بعض الوقت معك » فقلت : لا ، لا ، فيكفينى ما أنا فيه من عذاب بوجود القيود فى رجلى ، فلولاها (أى لولا الأميرة) لقطعت رأسى » فقالت : « لا تخف فرأسى فداك ، وان كنت أنت لا تريدنى ، فسوف أدعو جازيلا Gazella أو تيجيا Tegia أو جالزيرانا Galzerana ، لتأتى واحدة منهن » لقد قالت ذلك فقط لأنها كانت راغبة فى أن تأتى لتبقى معى بدلا من أى واحدة من النسوة الثلاث (الوصيفات) لكننى لم أكن لأقبل أبدا ، لأننى كنت أتوقع ذلك منذ غمرتنى برقتها وعطفها بالاضافة الى أننى وضعت فى اعتبارى أنها (أى الأميرة) لو كانت قد حققت رغبته فانها كانت ستعطينى ذهباً وفضة وخيولا وعبيدا وكل ما أبغيه ، وقد تقدم لى عشرة عبيد سودا

(٢٠) من الترسلات الشريكة غير المقبولة - (المترجم) .

يحرصوننى ، الا أننى لم أكن أبدا بمستطيع الهرب فكل بلاد الغرب السعيدة كانت تعرف بأمرى ، وقد بلغ الحرس بنسأنى عند كل الممرات والمخارج ، وإذا ما نكرت فى الهرب ذات مرة فلن أقفلت من الموت • ولهذا السبب لم أرضخ لطلبها كما أننى لم أكن راغبا فى أن أفقد جسدى وروحى and because I did not wish to lose both my soul & body (٢١) ورحت أبكى طوال الليل وأوكلت أمرى الى الله • وبعد عودة السلطان بثلاثة أيام ، أرسلت الاميرة الى تخبرنى أننى اذا كنت راغبا فى البقاء معها فانها ستجعلنى تريا ، فأجبت : « ان الأميرة اذا عملت على فك قيودى وأنجزت وعدها البدى قطعته أمام الله ورسوله (٢٢) ، فاننى سأفعل ما ترعب فيه » وسرعان ما عملت على استدعائى لحضرة السلطان الذى سألنى عن الجهة التى سأقصدها اذا ما فك قيودى ، فأجبت : « يا سيدى ، أب مفيش أم مفيش ، مره مفيش ، ولد مفيش ، أخ مفيش ، أخت مفيش • الله والنبي وانت بس ، سيدى • أنت تعطينى اكل ، أنا عبدك » أى يا سيدى أنا ليس لى أب ولا أم ولا أخ ولا أخت ولا روجة ولا ولد • وليس لى الا الله والنبي وانت ، فان أبقيتنى وأعطينتنى أكل ، فانا عبدك طوال حياتى • ورحت أبكى وأنشج • وكانت الاميرة حاضرة طوال الوقت ، فقالت للسلطان : « خف ربك ، واعمل له حسابا ، فهذا الرجل البائس أبقيتموه فى القيود بلا سبب مدة طويلة » فقال السلطان : « حسنا ، اذهب أينما تشاء فانت حر » وأمر سريعا بفك قيودى ، فركعت أمامه وقبلت قدمه ، وقبلت يد الاميرة فأمسكت يدي بدورها وقالت : « تعال معى أيها التابع البائس فانا أعلم أنك تكاد تموت من الجوع » وعندما صرت فى غرفتها قبلتنى أكثر من مائة قبلة وقدمت لى مالد من طعام ، الا أننى لم أحس بأية رغبة فى الطعام ، وذلك لأننى كنت قد رأيت الاميرة تهمس للسلطان فاستنتجت أنها تطلب منه أن يمنحنى لها كعبد خاص ، لذا فقد قلت للأميرة فى غرفتها : « لن أذوق طعاما الا اذا وعدتنى بأننى حر » فقلت : « اسكت (سكت) ، مجنون ! انت ما تعرف ايش يعطى الله لك » أى اسكت أنت ما تعرف ما وهبك الله من خير • ثم استطردت : « ان كان انت مليح ، أنت أمير » أى ان كنت طيبا فستغدو أميرا • وقد عرفت الآن أى نوع من الامارة تريد اسباغها على ، الا أننى أجبته بأننى يجب أن أحظى قبل ذلك بقسط من الراحة وأن استرد دمايى التى هربت منى خوفا وهلعا نتيجة أفكار السوء التى راودتنى أكثر من أفكار الحب

(٢١) المعنى المقصود : حتى لا أموت واقع فى الخطيئة فى الوقت ذاته - (المترجم) •

(٢٢) المقصود أمام الله ، فهو حى لا يموت - (المترجم) •

التي تحدثني الآن عنها . فقالت الأميرة : « والله أنت تتكلم مليح .
أنا أعطيك كل يوم بيض ودجاج وحمام وقلفل وقرفة وقرنفل وجوز الطيب .
nutmegs » « وعندئذ استرددت روى شيئا ما ، نتيجة الكلام
الطيبات والوعود اللائي غمرتنى بها . ولأستعيد عافيتي ، ظللت في
القصر خمسة عشر يوما أو اثني عشر . وذات يوم أرسلت الأميرة لي
تسألني اذا ما كنت أرغب في الذهاب للصيد بصحبتها ، فأجبت بالايجاب
وذهبت معها . وعند عودتنا من رحلة الصيد تظاهرت بأنني قد سقطت
مريضا من الاعياء ، وظللت متظاهرا بهذا الامر ثمانية أيام ، بينما كانت
الأميرة ترسل على الدوام أسحاصها لزيارتي والاطمئنان علي وفي يوم ،
أرسلت لأخبر الأميرة أنني كنت قد نذرت لله ورسولا (٢٣) أن أزور
درويشا (وليا) في عدن وهو رجل كما يقولون يأتي بالمعجزات ، ورحت
أؤكد بركاته حتى أحقق غرضي الذي أسعى اليه . فأرسلت الأميرة تخبرني
أنها قد سرت لطلبي زانها أمرت لي ببعير وبخمس عشرة شرفي ذهبا
seraphim . وفي اليوم التالي ركبت متوجها الى عدن فوصلتها
بعد ثمانية أيام وسرعان ما زرت هذا الدرويش (الولي) الذي كان يتعبد
فقد كان يعيش دوما عيشة الفقر والتقصف والعفة (لايقرب النساء)
Chastity ويقضى أيامه كناسك . والحق أقول لكم ان عددا كبيرا
من الناس في هذه الأنحاء يعيشون كدراویش ويأمنون لحياة الفقر
والتقصف ، الا أنهم مخادعون فهم لم يتلقوا تعميدا (لم يعمدوا) (٢٤)
not having been baptised وعندما أدت صلواتي في اليوم المنائي
تظاهرت بأنني شفيت بفعل بركة هذا الدرويش (الولي العدني) .
وبعد ذلك كتبت للأميرة ذاكرا لها أنه ببركة الله سبحانه وبركة هذا
الشيخ الولي (استغفر الله) (٢٥) أصبحت معافي ، وأن الله سبحانه قد
عافاني وشفاني ، فأنني أرغب في التجول في كل أنحاء بلادها . وقد
أبدت هذه الرغبة لأن السفن كانت في هذا الميناء (عدن) وأنها
(أي السفن) لن تبحر قبل شهر . وقد تحدثت سرا مع أحد ربانة
السفن مبديا له رغبتى بالسفر للهند مقابل هدايا ثمينة ، فأجاب بالموافقة
الا أنها قبل الوصول للهند ستعرج على بلاد فارس ، وقد رضيت بذلك
ووافقت .

(٢٣) النذر لا يكون الا للرحمان - (المترجم) .

(٢٤) يقصد التعميد المسيحي .

(٢٥) اضافة من المترجم .

لحج Lagi احادى مدن بلاد العرب السعيدة وكذلك

عز عزز Aiaz وسوفها ، وفلعة دمت Dante

وفى اليوم التالى ركبت قرابة خمسة عشر ميلا فوجدت مدينة يقال لها لحج Lagi (٢٦) وهى موضع مستو ، غاص بالسكان جدا ينمو به أعداد هائلة من النخيل ، والموضع عامر بالمراعى والغلال ، الا أننى لم أجد عنبا هنا ، كما أن أخشاب الوقود (الحطب) نادرة . والسكان هنا غير متمدين uncivilized فهم أعراب (يدو) غير أثرياء . وقد غادرت لحج وذهبت الى مدينة أخرى تبعد عنها يوما وهى مدينة عزز Aiaz (٢٧) التى تقع على جبلين بينهما واد معمر فى الجمال وينبوع ماء رائع ، وفى هذا الوادى يعقد سوق المدينة فيأتيه الناس من كلا الجبلين . ونادرا ما ينعقد السوق دون شجار ونزاع . وسبب ذلك أن سكان الجبل الشمالى يريدون من سكان الجبل الجنوبى أن يعتقدوا كما يعتقدون هم (أى سكان الجبل الشمالى) بأن محمدا رسول الله ، وأن كل صحابته وخلفائه الأربعة من الصالحين ، بينما سكان الجبل الجنوبى يعتقدون أن محمدا رسول الله ، وأن عليا هو الخليفة الحق ، أما الآخرون فمزيفون . ولهذا السبب يقتل بعضهم بعضهم الآخر ، كما يقتل الكلاب بعضهم بعضهم الآخر . دعونا نعد الى السوى الذى يجلب اليه أنواع كثيرة من التوابل وكميات كبيرة من الأقمشة والصوف والحريز ، والفاكهة الممتازة كالخوخ والرمان والسفرجل والبنقد nuto والعنب الرائع ويجب أن تعرف أنه يوجد على كل جبل من الجبلين اللذين أشرنا اليهما - قلعة حصينة ثم شرعت فى التوجه الى مدينة أخرى تبعد يومين ، وتسمى دمت Dante (٢٨) وهى مدينة حصينة جدا ، تقع على قمة جبل عظيم ويسكنها عرب فقراء جدا ، نظرا لأن المنطقة التى تقع فيها المدينة جدياء قاحلة .

المقارنة Almacarana ، احادى مدن بلاد العرب السعيدة ، وحديث عن روائها .

ولكى نتابع حتى نهاية المطاف رغباتنا بعد أن رأينا لتونا هذه الأمور

(٢٦) يقع الى الشمال الغربى من عدن بحوالى ثلاثين ميلا . وكانت وقت رحلة فاربتها تابعة للأمير عبد الوهاب (أشرنا له فى حاشية سابقة) وفى سنة ١٥١٧ أصبحت تابعة لأمام صنعاء .

(٢٧) يرجع بادجر أنها عزز ، التى وصفها نيبور بأعبارها قرية تابعة لعدن .

(٢٨) دمت ، شرق رداع .

والمناظر الغريبة ، ارتحلنا الى مدينة أخرى تبعد يومين عن مدينة دمت (٢٩) .
 Dante ، ومعنى بها مدينة المقرانة التى تقع على قمة جبل ، ويستغرق
 الصعود اليها قطع سبعة أميال عبر ممر لا يسع أكثر من شخصين
 يسيران متجاورين نظرا لضيق الممر . والبلدة تقع على مستوى قمة الجبل ،
 وهى رائعة الجمال ، وبها طعام يكفى كل سكانها ، وقد بدت لى أقوى
 مدينة فى العالم . بسبب موقعها ووفرة طعامها ، وليس ثمة نقص فى
 الماء فى هذه البلدة ، كما لا ينقصها أى مقوم من مقومات الحياة ، وفوى
 كل هذا ، ففى البلدة خزان ماء يكفى ١٠٠٠٠٠ شخص . ويحتفظ
 السلطان بكل نفائسه (أمواله) هنا لأنها مسقط رأسه وبلدته الأصلية ،
 لذا فالسلطان يجعل احدى زوجاته دوما فى المقرانة . ويجب أن يعرف
 أن كل ما يخطر على بالك من بضائع موجود هنا ، وأن أنقى هواء فى
 العالم يمكن أن تتنفسه فى هذا المكان . والسكان فى غالبهم بيض .
 ويحتفظ السلطان فى هذه البلدة بذهب ينوء بحمله أكثر من مائة جمل .
 وما كنت لأقول ذلك لولا أننى رأيته (الذهب) بعينى .

يريم Reame ، احدى مدن بلاد العرب السعيدة

وحديث عن هوائها ، وعادات بعض سكانها

بعد أن جلت فى هذه المدينة التى تحدثت عنها فى الفصل السابق ،
 اتخذت سبيلى الى موضع آخر تستغرق الرحلة اليه يوما واحدا وأعنى به
 مدينة يريم Reame (٣٠) التى يقطن غالب أنحائها سكن سود ،
 وهم تجار كبار . والمناطق المحيطة بهذه المدينة خصبة جدا الا أن خشب
 الوقود (الحطب) بها نادر ، وتضم هذه البلدة حوالى ألفى أسرة . وعلى
 جانبها يوجد جبل تقع عليه قلعة حصينة للغاية ، ويوجد هنا نوع من
 الخراف تبلغ زنة لية (ذيل) بعضها أربعة وأربعين رطلا ، وقد رأيتهما
 بنفسى ، وليس لهذه الخراف قرون ولا تستطيع المشى لثقل وزنها .
 ويوجد هنا أيضا نوع من العنب الأبيض لا بدور فيه لم أذق أطيب من
 طعمه . وقد وجدت هنا أيضا كل أنواع الفاكهة كما ذكرت أنفا ، والمناخ
 هنا جميل ومتفرد . وقد أجريت حوارا فى هذه البلدة مع أشخاص يزيد

(٢٩) دمت ، قلعة شرق رداع .

(٣٠) ديمان فى ناحية يريم .

عمر الواحد منهم عن مائة عام وخمسة وعشرين عاما (١٢٥ سنة) ومع هذا فلا زالوا يكامل صحتهم •

ويسير الناس هنا أكثر عريا من غيرهم ، وإن كان ذوو الأوضاع الحسنة منهم يرتدون قمصانا • والطبقات الدنيا يرتدى أفرادها نصف قطعة قماش يلفونها بالعرض حول نصفهم السفلى ويلبس الرجال في كل بلاد العرب السعيدة قرونا (ضفائر) من الشعر صنعوها (جدلوها) من شعورهم • أما النسوة فيرتدين سراويل فضفاضة تشبه سراويل البحارة •

صنعاء ، احلى بلاد العرب السعيدة

وحديث عن قوة ابن الملك وقسوته

وبعد ذلك اتخذت سبيلى الى صنعاء التى تبعد عن بلدة يريم Reame (٣١) ثلاثة أيام • وهى تقع على قمة جبل عظيم ، وهى مدينة حصينة للغاية • وقد عسكر السلطان بخيله ورجله البالغين ٨٠٠٠ رجل ، ثمانية أشهر ، ليستولى عليها ، فلم يستطع دخولها عنوة ، وانما عن طريق اتفاقية استسلام عقدها مع زعمائها by Capitulation وأسوار صنعاء من الطين ويبلغ ارتفاعها عشرة برازات braza كما يبلغ سمكها عشرين برازا braza ، بحيث يمكن لثمانية خيول أن تسير جنباً الى جنب فوقها • وفى صنعاء تنمو فواكه متعددة تماما كما فى بلادى (٣٢) كما توجد ينابيع كثيرة • وفى صنعاء سلطان (٣٣) له من الولد اثنا عشر ، أحدهم يسمى محمودا ، وهو شبيه بالمجانين فهو يعرض الناس ويقتلهم ثم يأكل لحمهم ميتا حتى يشبع ، ويبلغ طوله أربع برازات ، كما أن ملامحه متناسقة ، ولون بشرته بنى داكن • وينمو فى المناطق المجاورة لصنعاء بعض نباتات البهار • ويوجد بصنعاء حوالى ٤٠٠٠ مسكن ، وهى مساكن خيمية وتشعبه المساكن فى بلادى • ويوجد داخل المدينة أعناب وبساتين ، كذلك الموجودة فى بلادى •

(٣١) قلعة ريمان فى ناحية يريم - (المترجم) •

(٣٢) يقصد ايطاليا أو البرتغال - (المترجم) •

(٣٣) يقصد الامام أحمد بن الامام الناصر ، الملقب بالمنصور - (باجر) •

تعز Taasa وزبيد Zibit
وذمار Damat ، وهي مدن كبيرة جدا
في بلاد العرب السعيدة

بعد أن رأيت صنعاء اتجهت الى مدينة أخرى يقال لها تعز Taasa
تبعد عنها ثلاثة أيام ، وتقع على جبل وهي جميلة غاصة بكل ما هو أنيق
والأهم من كل ذلك أن بها كميات كبيرة من ماء الورد rose water
ويقال انها مدينة عريقة جدا ، فيها معبد مبني على شاكلة سنانا هارتا
روتوندا Rotonda في روما ، بالاضافة الى عدد كبير من القصور
القديمة . وفي صنعاء تجار في غاية الثراء . وألوان بشرات أهل صنعاء
زيتونية . وقد غادرت صنعاء متجها الى زبيد Zibit التي تبعد عنها
ثلاثة أيام ، وهي مدينة ضخمة وممتازة للغاية تقع بالقرب من البحر
الأحمر اذ تبعد عنه أكثر من نصف يوم . انها موضع يمتد امتدادا كبيرا
ازاء البحر الأحمر ، ويتم تمويلها (عن طريق البحر الأحمر) بكميات
هائلة من السكر ، وبها فاكهة ممتازة ، وتقع زبيد في واد بين جبلين ،
وليس من سور يحيط بها . ويجلب الى زبيد كميات كبيرة من البهارات
من كل نوع ، من المناطق والبلاد الأخرى لتتخذ طريقها للتوزيع في المناطق
الأخرى . أما عن البسة أهل زبيد وألوانهم فلا تختلف عن البسة وألوان
أهل صنعاء .

وقد غادرت زبيد متوجهة الى ذمار Damar التي تبعد عن زبيد
بـيوم واحد ، ويقطنها تجار في غاية الثراء من المسلمين Moors ،
والأرض المحيطة بهذه المدينة خصبة ، ولا يختلف السكان في عاداتهم
وأسلوب حياتهم عن سكان زبيد وصنعاء المذكورتين آنفا .

سلطان المدن المذكورة آنفا

كل المدن التي ذكرتها آنفا تابعة لسلطان اليمن "Amanni"
وهو سلطان بلاد العرب السعيدة الملقب بالشيخ الأمير Sechamir (٣٤)
والكلمة شيخ Secho تعني ما تعنيه كلمة قديس Saint
في أوروبا ، أما كلمة أمير فتعني «حاكم» أو «سيد» Lord ، وقد أطلق

(٣٤) أوردنا شيئا عنه في الحاشية ص ١٩٢ - ١٩٣ .

الناس عليه هذه الألقاب لأنه لم يأمر بإعدام أى شخص مهما كان الا أثناء الحروب • ويجب أن تعلم أن هذا السلطان كان يسجن - على أيامى - ١٥٠٠٠ أو ١٦٠٠٠ كلهم مكبلون فى الحديد ، ينفق على كل واحد منهم يوميا مبلغ كاترينين 2 Quattrini ، أى أنه يتركهم ليلاقوا حتوفهم فى السجن • ويمتلك السلطان ١٦٠٠٠ عبد ، جميعهم سود •

القرود وبعض الحيوانات - كالأسود - المؤذية للإنسان

لقد غادرت ذمار واتجهت الى عدن فى خمسة أيام ، وفى منتصف الطريق وجدت جبلا مرعبا مخيفا ، رأيت فيه أكثر من ١٠٠٠٠٠ قرد ، يوجد بينها بعض الحيوانات المتوحشة كالأسود التى تلحق بالبشر أذى كبيرا ، ولا يمكن للإنسان أن يمر بهذا الطريق الا اذا كان بصحبة جماعة لاتقل عن مائة شخص • لقد مررنا بهذا الطريق على شفا خطر كبير ، ولم نحاول صيد أى من هذه الحيوانات الا أننا قتلنا عددا كبيرا منها بالسهم والمقاليح حتى نمر سالمين • وبمجرد وصولى الى عدن مكثت فى المسجد متظاهرا بأن المرض قد حل بى ، وظللت به طوال النهار وفى المساء رحت أبحث عن ربان السفينة ليجعلنى بين ركاب سفينة بشكل سرى •

بعض الأماكن فى القرن الأفريقى

ولأننا قررنا أن نرى مناطق أخرى ، فقد لجأنا للبحر لنصل لمقصدنا ، الا أن الحظ (الظروف) نعود أن يملئ ارادته المتقلبة على صفحات الماء ، فقد عدنا بعض الشئ ، خارجين بذلك عن خطتنا ، فقبل ذلك كنا قد أبحرنا مدة ستة أيام فى طريقنا لبلاد فارس ، ثم حدث ما جعلنا نعود فى اتجاه أثيوبيا (الساحل الغربى للبحر الأحمر) وعاد معنا خمس وعشرون سفينة محملة بالقوة Madder (٣٥) (نبات صبغى) لصبغ الملابس ، ففى كل عام يتم تحميل خمس وعشرين سفينة بهذا النبات من ميناء عدن • وينمو نبات القوة هذا فى جنوب الجزيرة

(٣٥) يسميه العرب فوه foowwah ولا زال هذا النبات (حتى أيام بادجر)
يصدر من عدن وموانئ اليمن الأخرى
Badger, footnote, p. 85.

العربية • وبجهد فائق دخلنا ميناء زيلع Zeila • وبقينا فيه خمسة أيام لرؤيته ، وكذلك لانتظار المناخ الملائم للبحار •

زيلع المدينة الزرقية ووشاؤها وبعض الحيوانات بها ولا غنم ولا بقر

زيلع (٣٦) ميناء يعج بالنشاط التجارى خاصة فى الذهب وأسنان الفيلة ويباع هنا أيضا عدد كبير من العبيد ، وهم مسيحيون من أتباع القديس جون (يوحنا) كان المسلمون قد أسروهم فى الحروب ، ويشحن هؤلاء العبيد من هنا الى فارس وجنوب الجزيرة العربية ومكة والقاهرة والهند • ومعيشة الناس فى زيلع رغدة ، وأمور القضاء تجرى على نحو ممتاز • وتنمو الغلال بوفرة هنا وكذلك أعلاف الحيوانات ، ويوجد الزيت هنا بكميات كبيرة ، وهم لا يستخلصونه من الزيتون وإنما من السمس (٣٧) Zerzalino كما يتوفر هنا غسل النحل والسَّمع بكميات كبيرة ، ويوجد هنا نوع من الخراف ، لية الواحد منها وزن خمسة عشر أو ستة عشر رطلا ، ورؤوس هذه الخراف ورقابها سوداء تماما ، بينما بقية أبدانها بيضاء (٣٨) • وتوجد بعض الخراف الأخرى لها ذيول (ليات) فى طول الـ brazzo ، وهى (أى الليات) مجدولة كجنوع أشجار العنب ولكل خروف من هذه الخراف لغد (غيب) يشبه غيب الثور ، وكثيرا ما يلمس الأرض • وقد وجدت فى زيلع نوعا معينا من الأبقار لها قرون كقرون الأيائل وهى متوحشة (٣٩) وقد رأيت هنا

(٣٦) زيلع التى عرفها Vincent باعتبارها مدينة موندوس Moondus القديمة تقع فى شمال شرق قارة أفريقيا فى مواجهة عدن ، وعلى بعد حوالى ستين ميلا من مضيق باب المندب • Budger, footnote, p. 86.

وقد نقل بادجر استطرادات طويلة عن الادريسي وأبو الفدا وابن بطوطة ، وباحثين غربيين لتحديد موقع زيلع ، وقد أصبح هذا معروفا الآن لذلك اكتفينا بالسطور المذكورة فى هذه الحاشية - (المرجع) •

(٣٧) لقد ارهقتنى كلمة Zerzalino ، حتى تذكرت أن فارتيما يستخدم حرف Z بدلا من حرف J ، فتصبح الكلمة Jeljulian جلجلان ، وينطقونها فى الهند Jingli أو Jirjili أما بارتى Paretti فقد كتبها Giuggiolana كمقابل لاتيى لكلمة السمس Sesame - (بادجر) •

(٣٨) ينطبق هذا الوصف بشكل عام على خراف بربرة ، فمن النادر أن تكون بيضاء تماما ، وللواحد منها لغد طويل • أما النوع الآخر فتشبه ليته ذيل الخنزير - (بادجر) • (٣٩) ربما كان فارتيما يقصد الهامة (والجمع مهوات) oryx رغم أنه قدم وصفا للقرون يشبه وصف قرون الظباء (جمع طبي) antelope ، والواقع أن المهوات كثيرة الوجود داخل البر حول زيلع ، ويتم اصطيادها ، ونادرا ما يصطادونها حية - (بادجر) •

أيضا أبقارا أخرى للواحدة منها قرن وحيد في جبهتها ، يبلغ طوله بالمو ونصنف بالمو Palmo ، ويتجه الى ظهر البقرة ، أكثر من اتجاهه نحو الجبهة (٤٠) ولون هذا النوع من الأبقار أحمر بينما الأبقار التي ذكرناها قبل ذلك ذات لون أسود . والمؤن متوفرة بكثرة في زيلع ، والتجار هنا كنيرون . ولزيلع سور غير قوى ، وميناء سيئ ، ومع ذلك فهو يقع على مستوى البر ، وملك (حاكم) زيلع مسلم ولديه عدد كبير من الجنود المشاة والفرسان . وشعب زيلع شعب مقاتل ويلبس أفراد القمصان a shirt والوانهم كالأوان الزيتون ولا يسيرون الا مساحين بطريقة غير جيدة ، وهم جميعا من المسلمين .

بربرة إحدى الجزر الأفريقية ، وشعبها

بمجرد أن أصبح المناخ ملائما ، أبحرنا ووصلنا الى جزيرة بربرة Barbara وحاكمها وكل سكانها من المسلمين (٤١) ، وهي جزيرة

(٤٠) وصف دقيق للصوماليين ، سكان بر الصومال وهو مصطلح ينطبق على المنطقة من رأس هافون Hafun على الساحل الشرقي لأفريقيا حتى زيلع غربا . وينقسم السكان وفقا لما يقوله كرتندن Cruttenden الى أمتين كبيرتين ترجعان أصولهما الى حضرموت ، وهما في عداوات وصراعات مريعة لا تنتهى . ومركز هاتين الأمتين الكبيرتين يقع الى الشرق او ناحية مهب الريح Windward من جزيرة برنت Burnt واحد هاتين الأمتين مقسم الى أربع قبائل كبيرة ، وثلاث قبائل أصغر . وهم يدعون نسبتهم لاب واحد هو Darroud ابن اسميل Ishmail ابن عقيل Okel ابن عرب Arab الذي أتى من حضرموت وتزوج ابنة من قبيلة Haween المقيمة في الساحل الشمال الشرقي لأفريقيا ، وقد أصبح هذا الحضرمي هو المؤسس المسلم للامة الصومالية في المناطق الشرقية . . .

وثاني هاتين الأمتين الصوماليتين تمتد من جزيرة برنت Burnt او بندر جديد Jedid الى زيلع وتنقسم الى ثلاث قبائل كبيرة هي : هابر جهاج Haber - Gehajjis وهابر عوال Haber Awwal وهابر الجهيلة Haber el Jahlah (هابر تعنى أبناء) وهم أبناء Issakh من ثلاث زوجات ، و Issakh هذا قد قدم الى هنا من حضرموت بعد وقت قليل من تأسيس موطنه الحضرمي الآخر أمة الى جهة الشرق ، وقد استقر في بلدة ميت Meyt بالقرب من جزيرة برنت Burnt حيث لا يزال قبره موجودا حتى اليوم . ولما وجد Issakh نفوذه في ازدياد بسبب زواجه من قبيلة الجالا Galla قام بهجوم مباغت على جاراته بربرة وبمعاونة زعيم الجالا المشهور سلطان هرر Harireh ، ونجح في الاستيلاء على المنطقة حتى زيلع . . . وقد عمر الشيخ Issakh عمرا مديدا ، كوالديه ، ودفن في مدينة ميت Meyt ولا زال اسمه يحظى بالاحترام حتى الآن . انظر Transactions of the Bombay Geographical Society, Vol. VIII (بادجر) .

(٤١) ان المقصود بلا شك هو بربرة ، الا أن بربرة ليست جزيرة كما وهم فارتيمما ، =

صغيرة الا أنها طيبة وعامرة بالسكان ، وبها حيوانات من مختلف الأنواع ،
والسكان فى غالبيهم سود وغالب ثرواتهم من الحيوانات وقد مكثنا هنا
يوما واحدا ، ثم اتخذنا سبيلنا الى بلاد فارس .

= فهذا الاسم يطلق بشكل عام على خليج صغير inlet عميق وضيق يشكل ميناء آمنا فى
موسم الرياح الموسمية الشمالية الشرقية للمناطق المجاورة له . ويقع على بعد حوالى ١٢٠
ميلا الى الجنوب الشرقى من زيلع ٠٠٠٠٠٠٠ ولان بربرة كانت مأهولة بالسكان عندما كان
فارتيمما هناك ، فمن الواضح أن زيارته كانت خلال الرياح الموسمية الشمالية الشرقية
وينضح هذا من خلال الظروف التى أعادته مرة أخرى للساحل الأفريقى بعد أن أبحر من
عدن ، فربما تعرضت سفينته لاحدى هذه النوات (العواصف) الشمالية الغربية التى
يسمونها العرب بالأت Balat والناتى تحدث أحيانا خلال هذا الموسم على طول الساحل
الشمالى الشرقى لشبه الجزيرة العربية . ورغم أن فارتيمما لم يذكر فى رحلته هذه الا قليلا
من النوايرخ ، الا أنه يمكننا أن نجلى هذا الفموض بالعديد من الملاحظات الواردة فى سياق
رحلته . لقد غادر دمشق فى الثامن من ابريل ، ووصل مكة فى ستة أسابيع وبقي فيها
عدة أيام على الأقل . ومكث اثنى عشر يوما فى طريقه للمدينة المنورة حيث مكث بضعة أيام
قبل أن يذهب الى جدة . ومكث فى جدة اسبوعين ، واستغرقت رحلته الى عدن سبعة عشر
يوما ، وفى عدن لبث فى السجن شهرين قبل أن يرسلوه الى رداع Radaa
حيث وصلها فى الصيف لأن الموسم كان موسم العنب وتجرول فى أنحاء كبيرة من اليمن ،
لمدة لا تقل عن ستة أسابيع وهذه الفترة فى مجملها تستغرق ما بين سبعة أشهر وثمانية ،
لذا فربما غادر عدن فى حوالى منتصف ديسمبر عندما كانت الرياح الموسمية الشمالية
الشرقية على أشدها ، والسوق فى بربرة مزدهرة = (بادجر) .

السَّفَرُ الرَّابِعُ

بلاد فارس (و بعض سواحل الخليج العربى)

ديو بندر الروم

وجوجو ، وجلفار ، وأراضى مسقط

(١) وصلنا الى مدينة يقال لها ديو بندر الروم Diubandirrami

(١) رغم أن فارتيما جعل عنوان هذا الكتاب (أو الباب) عن بلاد فارس ، إلا أن الموضعين المذكورين في صدر عنوان هذا الفصل (بندر الروم وجوجو) يتبعان بشكل واضح لولاية جزيرت الهندية Guzerat ، وكان التغير أثناء إبحار السفينة التي استقلها ، يرجع في الأساس الى أنها كانت قد عرجت على فارس بسبب حملها بضائع من زيلع وبربرة لفارس ، خاصة وأنه بين زيلع وبربرة من ناحية ، والسواحل الصومالية من ناحية أخرى ، توجد حركة تجارية نشطة .

وبالنسبة الى ديو بندر الروم التي قدم فارتيما لنا اسمها الصحيح ، وهو Diu the port of the Turk: (or Greeks) إلا أن الباحث ادن Eden قد اتبع الترجمة اللاتينية الحاطنة الى مؤداها « ميناء الترك المقدس The holy Port of Turkes والمقصود بها بدون شك جزيرة ديو الصغيرة الواقعة في خليج كمبري Cambay ، وكانت في هذا الوقت تابعة لمحمود بقره ، سلطان جزيرت ، وقد بحثت - عبثا - عن الاسم الذي أطلقه عليها فارتيما ، والذي يتخذ طابع الأسماء العربية - في مراجع أخرى ، سواء في فترة رحلة فارتيما أو قبلها أو بعدها ، فلم أعثر له على أثر . فمؤلف قرعة العيون حدثنا عن اعتماد مدمر في بندر ديو Bander Diu في البحر الهندي ، في شهر يناير ١٤٩٥ تسبب في فقد سفن كثيرة ، ويحدثنا مؤلف آخر بعد ذلك بحمس سنوات عن وفاة شخص اسمه عبد الله بن محمد بن علوى - وهو شريف يعنى مشهور - في بندر ديو بالهند ، إلا أن صفة (الرومية) لم تلحق باسم المدينة في المؤلفين السابقين ٠٠٠٠ وتقع مدينة ديو في الطرف الشرقى للجزيرة (أى جزيرة ديو) ، وهى مدينة جيدة التحصين ، يحيط بها سور فوقه أبراج يبعد الواحد عن الآخر بمسافات منتظمة . والقناة (الممر المائى) الواقعة بين الجزيرة والبر لا تمكن السفن من الإبحار ، خلا قوارب الصيد ، والمراكب الصغيرة ، ومع ذلك فالميناء ممتاز بالنسبة للسفن متوسطة الحجم . ونظرا لهذا الأمر المشار اليه آنفا ، فإننا يجب أن نسقط هذا الموضع من اعتبارنا عند الحديث عن رحلة فارتيما (بمعنى أنه ليس المكان أو الموضع الذى أشار له فارتيما) وقد زار قبصر فريدرك Caesar Fredericke ، موضعا بهذا الاسم (ديو Diu) سنة ١٥٦٢ وقال « انها مدينة صغيرة عامرة بالحركة التجارية فالسفن تشحن هنا كميات كبيرة من البضائع ثم تنجى بعد ذلك الى هرمز ومكة المكرمة » . وقد استولى البرتغاليون على ديو سنة ١٥١٥ وظلت في حوزتهم حتى أيام بادجر (صاحب التعليق) وفى سنة ١٥٣٩ صد البرتغاليون هجوما على ديو قام به الاسطول التركى (العثمانى) بقيادة سليمان باشا الذى اضطر للعودة بإسطول له لسبويس ، وفى أثناء عودته (أى سليمان باشا) توقف لبعض الوقت فى زبيد فى اليمن ، وأثار الناس هناك لابتزازهم أموالا من الامام ٠٠٠ (ملخص تعليق بادجر) .

بعد ابحار استمر اثني عشر يوما ، وهي ميناء « تركي » يقع على مسافة قصيرة من الساحل ، وعندما يأتي المد يغدو جزيرة ، وعندما ينحسر الماء ، يمكن الوصول الى الساحل سيرا على الأقدام . وهذه المدينة تابعة لسلطان كمبي ، وحاكمها يسمى Menacheaz . وقد مكثنا في ديو يومين . ولا توجد بها تجارة ضخمة ، ويقيم هنا بشكل دائم أربعائة تاجر تركي . والمدينة محاطة بالأسوار ، وبها مدفعية كثيفة ، ولدى قاطني المدينة سفن معينة تسمى تالي Thalae وهي تختلف شيئا ما عن السفن الشراعية ذوات المجاديف galleys .

وقد غادرنا ديو وذهبنا الى جوجو (٢) التي تبعد عن ديو قرابة الأيام الثلاثة . وجوجو هذه ، ممتدة امتدادا كبيرا ، وبها تجارة عظيمة وحركة دائبة ، وننعم بالشراء . وكل سكانها - على أية حال - من المسلمين . وقد غادرنا جوجو ، وقصدنا منطقة أخرى تسمى جيلفار Guilfar وهي رائعة وممتازة وعامرة بكل شيء (٣) . وثمة ميناء جيد هنا ، أبحرنا منه بريح مواتية حتى وصلنا لميناء مسقط (٤) .

(٢) المقصود هنا - بدون شك - هي جوجها Gogha أو كما تسمى الآن Gogo وهي مدينة تقع في شبه جزيرة كروار على الساحل الغربي لخليج كمبي ، على بعد حوالي مائة ميل الى الشمال الشرقي من ديو ، ويصفها فوربس وهو مؤلف معاصر لبادجر صاحب التعليق كالتالي : « انها ميناء مرتب ومزدهر ، يسكنه أكثر من ثمانية آلاف نفس ، ولها مكلا (أى موضع قرب الساحل ترسو به السفن بسهولة) في خليج كمبي . ويسمى بحارة هذا الميناء باسم الجوجارين ، وبعضهم من المسلمين ، وبعضهم الآخر من الكولي أو الهندوس ، وهم عناصر تدعو للشفة وكان يحكم جوجو على أيام ملتون (١٦٨٨ - ١٧٢٣) حاكم من المغول العظام ، وقد استولى الانجليز عليها من المهرجات سنة ١٨٠٥ ، وهي الآن تشكل جزءا من ولاية أحمد آباد . » (تعليق بادجر) .

(٣) لابد أن يكون فارتيما قد عبر المحيط الهندي من (جوجو) ، ودخل الخليج الفارسي (العربي) ، لأن جيلفار Julfar تقع في الخليج العربي ، على الجانب الغربي لمسلم ، على بعد حوالي عشرين ميلا الى الجنوب من هذا الرأس ، وهي إحدى مدن خمس يسكنها العرب ، الا أن سكان جيلفار هم الأكثر تحضرا واستقرارا ، ويعملون بشكل أساسي في صيد اللؤلؤ والتجارة والزراعة . ويتكون طعامهم من التمور والقمح والشعير والحب وكثير من السمك . أما بقية أفراد القسلة فمشفولون بتدبير أمور معيشتهم بشكل غير مستقر ، وذلك بالصيد في الخلجان الصغيرة على الساحل أو بالتجول بين الصخور القاحلة في المناطق الداخلية ليدبر المريع الشحيح لقطعانهم . وقد استولى البرتغاليون على جيلفار في مطلع القرن السادس عشر ، وقد ظلوا في حماية القلعة هنا - لأغراض صيد اللؤلؤ - حتى طردوا من الخليج ، فاستعادها العرب ، وفي سنة ١٨١٩ دمرت حملة انجليزية مسقطية مشتركة الميناء والقلعة ، انتقاما من أعمال القرصنة التي ارتكبتها سفن تابعة لهؤلاء العرب - (تعليق بادجر) .

(٤) مسقط هي الميناء الرئيسي لعُمان ، ويحده البحر الهندي عند خط عرض ٢٢° و ٢٨° شمالا ، وخط طول ٥٩° و ١٩° شرقا - (عن بادجر) .

هرمز

وكيف يصيدون اللؤلؤ الضخام جدا ، عندها

وقد تابعنا (٥) رحلتنا فغادرنا مسقط ، وذهبنا لمدينة هرمز العظيمة . وهي في الغاية من الجمال . وهي عبارة عن جزيرة كبيرة ، ومركز ملاحى وتجارى . وتبعد عن البر عشرة أميال أو اثني عشر ميلا . وليس في هذه الجزيرة ماء أو طعام كافيان ، وانما يأتيها كل ذلك من البر . وبالقرب منها ، وعلى بعد ثلاثة أيام ، يصطادون أضخم اللؤلؤ في العالم ، أما طريقة صيدهم فسأروها لكم فيما يلي . هناك صيادون اختصاصيون في صيد اللؤلؤ . يركبون قوارب صغيرة ، ويقذف الواحد منهم بحجر كبير مربوط بحبل سميك من ناحية مؤخرة القارب ، وبحبل آخر من ناحية مقدمة القارب ، وذلك ليبقى - أى القارب - ثابتا ، ثم يقذفون بحبل آخر ، معلق به حجر أيضا ، الى قاع الخليج ، وفي وسط القارب يقبل أحد صيادي اللؤلؤ يعاق حقيبتين حول عنقه ويربط الى قدميه حجرا ثقيلا ويفوض خمس عشرة خطوة ويبقى تحت الماء بقدر ما يستطيع ليجمع الأصداف الحاوية على اللؤلؤ Oysters ، ويضعها في الحقيبة المعلقة حول عنقه ، ثم يتخلص من الحجر المربوط الى قدميه ويصعد الى ظاهر الماء مستخدما الجبال التي ذكرناها آنفا (٦) . وفي بعض الأحيان تتجمع سفن كثيرة تبلغ الثلاثمائة ، تابعة لبلدان ومناطق مختلفة في هذه الجزيرة التي يحكمها سلطان مسلم .

(٥) يحدثنا عبد الرزاق الذي زار الجزيرة قبل فارتينا بسنين سنة عن ازدهارها البحارى على نفس النحو الذي حدثنا به فارتينا ، أما رالف فتش Fitch فقد وصفها سنة ١٥٨٣ بأنها « جزيرة يصل محيطها الى حوالى ٢٥ أو ٣٠ ميلا ، وهي أكثر الجزر جفافا في العالم ، فليس من نبات ينمو بها ، وليس بها سوى الملح ، أما المستلزمات الضرورية لحياة سكانها كالمياه والأخشاب والطعام وكل ما هو ضرورى ، فيأتيها من فارس التي يبعد برها عن الجزيرة حوالى اثني عشر ميلا . وكان للبرتغاليين قلعة هناك عين فيها فالد من قبل ملك البرتغال . . . وفي هرمز تجار من مختلف الملاد ، وكثير منهم مسلمون ، وكثيرون أيضا من مختلف الأديان . ووجد هنا تجاره مزدهرة في كل أنواع البهار والعقاقير والحريير الخام والملابس الحريرية والسجاد العجمى الجميل ، ولؤلؤ كثيرة مجلوبة من البحرين - وهي أفضل أنواع اللؤلؤ وكثير من الخيول الفارسية المنتشرة في كل أنحاء الهند . . . وقد استولى البرتغاليون بقيادة ألوكيرك على هرمز سنة ١٥٠٨ ، وطردهم Gamrun الواقعة على البر الفارسى والتي عرفت بعده باسم بندر عباس . . . وفتراوح المسافة بين الجزيرة وبندر عباس ما بين أحد عشر ميلا ، واثني عشر ميلا - (بادجر)

(٦) هذا وصف دقيق لعملية صيد اللؤلؤ كما تتم حتى هذه الايام (أيام صاحب التعليق : بادجر) .

سلطان هرمز ، وقبسة ابنه على أبيه وأمه وأخوته

في الوقت الذي زرت فيه هرمز حدث ما سأقصه عليك . لقد كان لسلطان هرمز أحد عشر ابنا . كان أصغرهم بسيطا وينظر اليه على أنه نصف غبي ، أما الأكبر فكان ينظر اليه كشيطان طليق (غير مقيد أو لا يحد حركه حدود) . وكان هذا السلطان قد جلب عبيدين ، من أبناء مسيحيي القديس يوحنا Prester John اشتراهما صغيرين جدا وأحبهما كأولاده (V) . وكان هذان العبدان فارسين ماهرين كما كانا مشرفين على القلاع . وذات ليلة قام الابن الأكبر بسمل عيني أبيه السلطان وعيني أمه وعيون أخوته جميعا ، فيما عدا أخيه نصف العاقل half-witted الذي أشرنا اليه آنفا ، وحملهم جميعا بعد سمل عيونهم الى غرفة أبيه وأمه ، وأشعل النار في كل جثثهم وكل ما في الغرفة . وفي الصباح الباكر عرف ما حدث ، وامتألت المدينة بالشائعات ، وتحصن القاتل في القصر ، وأعلن نفسه سلطانا ، أما أخوه الأصغر الذي كان الناس يعتبرونه غيبا فلم يبد من الغباء والبله ما كان الناس يظنونه به ، ذلك لأنه عندما سمع بما حدث اعتصم بالمسجد وصرح قائلا : « يا الهى . . ان أخى شيطان شرير ، لقد قتل أبى وأمى وأخوتى جميعا ، وأحرق جثثهم بعد قتلهم » . وبعد مضي خمسة عشر يوما غاد السكون للمدينة ، فقد أرسل السلطان لأحد العبيدين اللذين أشرنا لهما آنفا ، وقال له : « تعال أنت يا محمود » فأجاب العبد محمود : « ايش قلت ياسيدى » أى ماذا تطلب ياسيدى ، فقال السلطان : « أنا سلطان ؟ اليس كذلك ؟ » فأجاب محمود (اى والده ، سيدى ، أنت سلطان » فأخذ السلطان بيده وأكرمه ثم قال له : « روح اقتل صاحبك وأنا أعطيك أربع قلاع أو خمس » فأجاب محمود « يا سيدى أنا أكلت معه من صباى . . ثلاثين سنة ونحن نعمل معا ، والله سيدى أنا قاصر » يعنى والله ياسيد لا أستطيع . عندئذ قال السلطان : « حسنا ، اذن دعه وحيدا » . وبعد هذا الحوار بأربعة أيام ، أرسل السلطان الى العبد الآخر ، وكان يسمى « قيم Caim » وطلب منه ما سبق أن طلبه من العبد محمود ، فقال قيم « بسم الله الرحمن الرحيم ، ياسيدى » وحمل سلاحه سرا واتخذ طريقه فورا ليقتل زميله محمودا . وعندما رآه محمود نظر في وجهه متفرسا وقال له : « يا خائن العهد والأمانة ، أنت لا تستطيع انكار خيانتها فقد اكتشفتها ، لكن انظر الآن لأنى سأقتلك قبل أن تقتلنى » .

ولما رأى قيم Caim " أن أمره قد كشف وسره قد عرف ، سحب خنجره وألقاه تحت قدمي محمود ، وركع على قدميه وهو يقول : « آه ، (V) يرجع المستشرق بادجر أنهما من الأبحاش .

يا سيدي فلتسامحنى ، فاننى أستحق الموت ، وإذا رأيت من الأفضل لك أن تتناول هذه الأسلحة وتقتلنى فلتفعل ، لأننى ما أتيت الا لقتلك » فأجاب محمود : « ربما كان ما وصفتك به من أنك خائن للعهد والأمانة كان قولاً صحيحاً ، فقد كنت دوماً معى ، تعمل معى ، وتأكل معى ، طوال ثلاثين سنة ، ثم تأتى بعد كل هذا لتقتلنى بهذه الطريقة الخسيسة . . يالك من مخلوق بائس ، لأنك لم تعرف أن هذا الرجل (السلطان) ما هو الا شيطان انهض ، على أية حال ، فقد عفوت عنك ، لكن عليك أن تفهم أن هذا الرجل (السلطان) قد حرصنى على قتلك منذ ثلاثة أيام لكننى ما كنت لأقبل . . والآن ، دع الأمر كله لله ، لكن اذهب ، وافعل ما سأقوله لك . اذهب الى السلطان وأخبره أنك قتلتنى » فأجاب قيم Caim « اننى مقتنع ، وسأفعل » وذهب للسلطان سريعاً ، وعندما رآه السلطان قال له : « حسنا ، أقتلت صاحبك ؟ » فأجاب قيم Caim « نعم ياسيدي ، قتلته والله » فقال له السلطان « تعال هنا » فاقترب قيم Caim . . السلطان ، وعندئذ طعنه السلطان عدة طعنات فى صدره وقتله . . وبعد ذلك بثلاثة أيام تسلم محمود سرا وذهب لغرفة السلطان ، فلما رآه اضطرب وصاح قائلاً : « آه يا كلب ، يا ابن الكلب ، ألا زلت حياً ؟ ! » فأجاب محمود : « اننى حى رغم أنفك ، وسأقتلك ، لأنك أدنى منزلة من الكلب أو الشيطان ، واقتتلا للحظة وقد حمل كل منهما سلاحه ، وقتل محمود السلطان وتحصن بالقصر . . ولأن الناس فى هذه المدينة كانوا يحبونه ، فقد هروا جميعاً الى القصر وراحوا يهتفون « يعيش محمود السلطان » واستمر محمود سلطاناً لمدة عشرين يوماً ، وبعد ذلك أرسل لكل شيوخ Lords وتجار المدينة وتحدث اليهم بهذه الكلمات الحكيمة : « ان ما فعلته كان لابد أن يحدث ، ولأننى أعرف أنه لا حق لى فى السلطنة ، لذا فاننى أرجو كل الناس أن يسمحوا لى بتنصيب ابن السلطان الذى قتله ابنه ، ذلك الابن الذى كان يعتبره الناس مجنوناً ، ليكون حاكماً (ملكاً) » وبذلك فقد جعله محمود ملكاً . . وعلى أية حال فان محموداً - فى حقيقة الأمر - كان هو الحاكم الحقيقى . . وقال الناس فى المدينة « حقيقة ان محموداً هذا لابد أن يكون حبيب الرحمن » (٨) فحقيقة الأمر أن محموداً هذا كان يحكم المدينة والسلطان معاً ، اذ لم يكن ثمة ذكر (أو قيمة) لهذا السلطان (٩) . . ويجب أن تعلم أنه يوجد بهذه المدينة بشكل عام أربع مائة تاجر أجنبى يتاجرون فى الحرير واللؤلؤ والجواهر والبهار .

(٨) نص العبارة : the friend of God ، وقد آثرنا ترجمتها كما يطالع القارىء فى المتن .

(٩) يذكر المستشرق بادجر محقق الرحلات أنه لم يجد أية معلومات تاريخية فى المصادر عن هذه الأحداث .

والطعام الشائع هنا يتكون من الأرز الذى يستخدمه الناس أكثر من الخبز ، لأن القمح لا ينمو فى هذا المكان .

هراة Eri فى خراسان Corazani

ببلاد فارس ، ووفرة كثير من الأشياء بها

خاصة الراوند Rhubarb

وبعد أن سمعت هذه الحكاية المؤسفة ، ورأيت عادات أهل جزيرة هرمز ، غادرتها وتوغلت فى بلاد فارس ، وبعد رحلة استغرقت اثني عشر يوما ، وجدت مدينة يقال لها هراة Eri (١٠) فى منطقة يقال لها خراسان ، ويقال لها أيضا the Romagna ، وملك خراسان يسكن فى المدينة (هراة) العامرة بمختلف البضائع خاصة الحرير ، فيمكنك فى يوم واحد أن تشتري هنا ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف حمل بعير من الحرير . وهراة عامرة بأنواع الأطعمة (١١) ، ويوجد بها سوق كبير للراوند (١٢) . وقد رأيت من يشتري ستة أرطال منه بدوكات ducat ، ومعنى هذا أن الرطل الواحد يساوى اثنتى عشرة أونصة ounces . وتضم مدينة هراة حوالى ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ نفس . وكل السكان مسلمون . وقد غادرت هراة وسافرت برا لمدة عشرين يوما فوجدت مدنا وقلاعا عامرة بالسكان .

(١٠) Eri أو Heri هو الاسم القديم لمدينة هراة Herat لكن السؤال هل المقصود هو هذه المدينة ذاتها ، أم مدينة أخرى زارها فارتيجا . لقد كانت هراة أثناء زيارة فارتيجا عاصمة لخراسان ومقرا للسلطان حسين ميرزا . وعلى أية حال فمن خلال وصفه يمكننا القول أن المقصود هو هراة المعروفة ، وأنه زارها فعلا ولم ينقل سماعه - (موجز تعليق بادجر) .

(١١) هراة هى أكثر مناطق خراسان خصوبة - (من تعليق بادجر) .
(١٢) نبات عشبي معمر من الفصيلة البطاطية . عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية - (المترجم) .

ويذكر بادجر أن هراة هى مفتاح التجارة بين تركستان وأفغانستان وفارس والهند ، وقل شأنها الآن (أيام بادجر) عما كانت عليه فى الأيام الخوالى . وفى فترة زيارة فارتيجا ، هناك احتمال كبير أن تكون هى المعبر الرئيسى بين التبت ومنغوليا - وهما المنطقتان الرئيسيتان لزراعة الراوند - والمناطق الغربية . وهذا يفسر وفرة هذا العقار (الراوند) فى أسواق هراة - (مختصر تعليق بادجر) .

نهر يوفرا Euphra

الذى أعتقد أنه نهر الفرات Euphrates

لقد وصلت الى نهر عظيم وجميل يسميه الناس هناك يوفرا Eufra (١٣) ، ولكن أقصى ما أستطيع أن أحكم به أننى أعتقد أنه نهر الفرات ، نظرا لاتساعه وطوله on account of its great size .

لقد سافرنا لمدة أيام ثلاثة الى جهة اليسار ، وان كنا متتبعين لهذا النهر ، فوجدت مدينة يقال لها شيراز (١٤) Schirazo ، وكانت المدينة تستقبل زعيمها its lord وهو فارسى مسلم على مذهب الفرس Who is a persian & Mohammadan from the persians.

ويوجد فى شيراز جواهر كثيرة من الفيروز turquoises وكميات هائلة من الياقوت الأحمر Balass rubies . حقيقة ان هذه الأحجار الكريمة لا يتم انتاجها هنا ، وانما ترد (كما ذكرت التقارير) من بداخستان Badachsam التى تزخر أيضا بكميات ضخمة جدا من التجارة البحرية الفائقة ultra marine ؟ ، وكثير من التوتيا tucia والمسك (١٥) . ويجب أن تعلم أنه من النادر أن نصادف المسك فى بلادنا دون أن يكون مغشوشا . وترجع هذه الحقيقة الى أننى قد رأيت بعض التجارب والخبرات فى هذا الصدد . أخذ قنبنة bladder مسك فى الصباح ،

(١٣) نظرا لعدم وجود نهر بين هراة وشيراز له الاسم نفسه ، أو اسم قريب ، فأننى أميل الى الظن واحتمال أن يكون فارتبما قد صادف نهر بدوان Pulwan القريب من المرقاب Merghab التى تبعد ثمانين ميلا الى الشمال الشرقى من شيراز . ويجرى نهر بدوان فى بندمير Bendemir وبشكل سيلا سريعا ، ولعبوره لابد من اجتياز جسر يبلغ عرضه ثلاثمائة قدم ، ولابد أن يكون فارتبما قد عبر هذا الجسر قبل الوصول الى شيراز - (مختصر تعليق فارتبما) .

(١٤) شيراز سوق عظم للفيروز ، وأفضل أنواعه توجد فى جبال قريبة من نيسابور فى خراسان - (بادجر) .

(١٥) بداخستان Badakhshan تقع فى خانات القندز Kunduz لازالت مشهورة بمحاجر اللازورد (حجر كريم سماوى اللون) ومناجم الياقوت . أما التوتيا فقد كتبها فارتبما محرفة هكذا fucia وتستخدم فى صنع الكحل . أما المسك فمن المحتمل أنه يصل الى بداخستان من التبت وتتاريا حيث توجد أفضل أنواعه - (مختصر تعليق بادجر) .

واكسرها ، ودع ثلاثة رجال أو أربعة يشمونها بالترتيب ، فسيؤدي ذلك على الفور الى خروج الدم من أنوفهم ، وحدوث هذا ، دليل على أنه مسك حقيقى وليس مغشوشا .

وقد سألت عن المدة التى يمكن أن يحتفظ بها المسك بجودته ، فقال لى أحد التجار « ان المسك اذا لم يكن مغشوشا فانه يستمر صالحا لمدة سنوات عشر » .

وقد خطر لى - بناء على ذلك - أن المسك الذى يصل الى بلادنا (أوروبا) قد غشه هؤلاء الفرس ، فهم أمكر خلق الله وأبرعهم فى تزييف الأشياء ، وفى الوقت نفسه فأننى أقول : انهم أفضل الأصدقاء (الرفاق) وأكثر خلق الله تحرا (ليبرالية) ، انى أقول ذلك لأنى لمستهم مع تاجر فارس قابلته فى شيراز Schirazo . وعلى أية حال فقد كان الرجل من هراة Eri التى سبق ذكرها عند حديثى عن خراسان Corazani . وقد كان هذا الرجل يعرفنى منذ عامين عندما كنت فى مكة وقال لى : ماذا تفعل هنا يا يونس ؟ ألسنت أنت الذى لقيتكم فى مكة ؟ فقلت له : « اننى هو بعينه واننى فى رحلة حول العالم » فأجابنى : « الحمد لله لأننى وجدت صديقا سيكتشف العالم معى » وقد بقينا خمسة عشر يوما فى المدينة ذاتها (شيراز) وقال لى هذا التاجر واسمه المعلم ذو النور Cazazionor : (١٦) « لا تفارقنى ، لأننا سنكتشف جانبا طيبا من هذا العالم » .

ثم اتخذنا سبيلنا الى سمرقند Sambragante .

سمرقند (كما يسمونها) ، وهى مدينة كبيرة كالقاهرة

وهى واقعة تحت اضطهاد الصوفى . Sofi .

يقول التجار ان سمرقند (١٧) Sambragante مدينة كبيرة كالقاهرة . وملك هذه المدينة مسلم . ويقول بعض التجار انه يسيطر على ستين ألف فارس وكلهم بيض ومقاتلون شجعان . ولم نتقدم أبعد من هذا ، ونسبب ذلك أن الصوفى (الملك) يجوس خلال المنطقة ويحرق كل شيء ، ويقتل - خاصة - كل من يعتقد فى صحة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان .

(١٦) يقول بادجر أن المقطع الأول من هذا الاسم هو بلا شك خوجة والتى تختصر عادة بكلمة خوجة وتقابل بالانجليزية كلمة السيد Mister (بادجر) وهى فى الغالب تعنى (المعلم) باعتبار هذا الشخص كان تاجرا - (المترجم) .
(١٧) الشاه اسماعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية شن حربا قاسية فى فارس وخراسان منذ حوالى سنة ١٥٠٠ ، وكان متعصبا جدا للمذهب الشيعى الذى تلافاه عن والده خيدر - (المترجم) .

(رضى الله عنهم) مع أنهم كانوا من صحابة الرسول (ص) الا أن هذا الملك يحصى من يؤمنون بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وعلى (رضى الله عنه) • وقد قال لى رفيقى التاجر « تعال هنا يا يونس حتى تتأكله أنى راغب فيك ، وأنى أريد أن أحظى برفقتك ، فأننى سأزوجك ابنة أختى (شمس) • وحقا انها لاسم على مسمى فقد كانت رائعة الجمال • وقال لى ما هو أكثر من هذا : ويجب أن تعلم أننى الآن لن أسافر حول العالم لأننى فى حاجة الى الشروة ، لكننى أرحل بقصد المتعة ولأرى وأعرف •

وعندئذ شرعنا فى اتخاذ طريقنا للعودة الى هراة Eri • وعندما وصلنا الى منزله سرعان ما أرانى ابنة أخته التى أشرت اليها سابقا فتظاهرت باعجابى الشديد بها رغم أن عقلى كان مشغولا بأمور أخرى • لقد عدنا الى هرهز فى نهاية ثمانية أيام وركبنا مركبا وأبحرنا فى طريقنا للهند ، ووصلنا الى ميناء يقال له جو Cheo (١٨) •

(١٨) يرجح بادجر أن الميناء الذى كتبه فارتيمو Cheo هو نفسه الميناء الذى يكتب بالطريقة الانجليزية Jooa أو Joah أو Joah أو Kow وهو ببلاد السند - (مختصر تعليق بادجر) •

السفر الخامس

وهو السفر الأول عن الهند

مدينة كمبي Cambei ، العامرة بكل شيء

إذا لم تخنى الذاكرة ، فقد وعدت بأن أعالج الموضوعات باختصار ، حتى لا يكون سردى مملا لذا فسأستمر - باختصار - فى ذكر الأمور التى بدت لى جديرة بأن يعرفها الانسان ، وكذلك أكثر الأمور تشويقا وإثارة . لقد دخلنا الهند بالقرب من الميناء المذكور آنفا (جو Cheo) حيث يوجد نهر الهندوس Indus الكبير القريب من مدينة كمبي Combeia (١) . وتقع هذه المدينة داخل البر (اليابسة) بثلاثة أميال ، وهى الى الجنوب من نهر الهندوس المذكور آنفا . ويجب أن تعرف أنك لا تستطيع الذهاب الى هذه المدينة المذكورة بسفينة كبيرة أو متوسطة الا اذا كانت المياه مرتفعة ، فثمة نهر يصل اليها ، وأن المد يرتفع ثلاثة أميال أو أربعة ويجب أن تعرف أن المياه ترتفع عندما يكون القمر فى المحاق (متضائلا) on the wane ، على عكس ما يحدث فى بلادنا (الأوربية) اذ أن المد لا يكون الا والقمر فى التمام at the full (٢) . ومدينة

(١) يبدو حديث فارتيمّا عن موقع مدينة كمبي Cambay (الاكثر صحة Khumbayut) ونهر الهندوس Indus - مضطربا اضطرابا شديدا . وهذا ليس أمرا غريبا ففيليب بلديوس Philip Baldaeus الذى كتب بعد ذلك بقرن ونصف ذكر أن هذه المدينة « تقع عند مدخل أحد أكبر فروع النهر » (انظر : Collection of Voyages, Vol. III, III, p. 566) أما نيكولو دى كونى Nicolo de Conti الذى سبق فارتيمّا بخمسين عاما فيحدد موقعها بشكل أكثر دقة فيذكر أنها « فى الخليج الثانى بعد عبور مصب نهر الهندوس Indus » (انظر : India in the fifteenth Century, III, p. 10) وعلى أية حال فإن دى كونى كان محقا عندما حدد موقعها عند مصب نهر الهندوس وبالغرب من نهر آخر هو - بلاشك - نهر نيهى Myhee ، كما أن وصفه لهذا المصب الخليجي estuary يؤكد النص التالى الذى نستشهد به من قول هورسبرج Horsburgh « وفى مواجهة مدينة كمبي Cambay ، يوجد البحر على مسافة سبعة أميال أو ثمانية ، بعق قد يصل الى حوالى ثلاثة أميال ، الا أن المياه تكون ضحلة جدا من جانب لآخر حتى أثناء المد الأعظم at low water spring tides فتصبح الملاحة منعذرة حتى لأصغر القوارب بسبب جفاف الأرض » (انظر : India Directory, Vol. I, p. 485) (بادجر) (٢) هذا خطأ وقع فيه فارتيمّا ، ربما بسبب ما سمعه ، أو لقصور فى ملاحظته لاجد والجزر ذوى الحركة غير المعتادة والمحمزة فى خليج كمبي Cambay ، والتى تسمى - أى حركة المد والجزر - بالتبهور أو العر النهري bore التى وصفها الفهيد القبطان =

Cambeia مسورة على غرار أسوار مدننا ، والحقيقة أنها رائعة جدا ،

= انرساي Ethersay الذى كان يعمل فى البحرية الهندية ، قائلا : « النيهور الأساسى يرتفع خمسة أميال الى غرب الجنوب الغربى W.S.W. فى خليج كامبي Cambay Creek ولا يمكن ادراكه (تمييزه بوضوح) خلال المد الأدنى (الجزر) on the neaps دون ادراك المد الأعظم Spring tide المرتفع جدا ، والذى يسيفه (أى يسبق الجزر) وفى هذه الحالة يمكن ملاحظته بشكل غير واضح خلال ال quarter . وهو يبدأ - عموما - عندما يبدأ المد الأعظم the Springs فى الارتفاع ، فتزداد الموجة يوميا وتبلغ ارتفاعا يوازي ارتفاع المد ، أو عندما يبلغ المد أشده ، ويحدث أن يبلغ المد ذروته بعد أن يكون القمر فى الحام (بدرا) ، وبعد ميلاده (ميلاد القمر) بحوالى يومين ويعتمد ارتفاعه على وضع القمر بالنسبة للأرض ، وعلى هذا فانه عند ارتفاع المد واشتداده يكون القمر الجديد فى نقطة الحضيض القمري perigee ، ففي هذا الوقت تحدث أقصى درجات المد ، وتغدو امواج العبر bore فى أشدها ، وعندما يكون القمر تاما (بدرا) ويكون فى نقطة الأوج القمري apogee ، يكون المد الأدنى (الأصغر) أقل من أى مد أعظم ، يكون العبر فى أدنى (أقل) حالاته . ويختلف المد والجزر أيضا فى الليل عنه فى النهار لأن المد الأعلى هو الأعظم من حيث سرعته ، وطالما أن المد والجزر the two tides يختلفان من ستة أقدام الى ثمانية ، ويستمر كلاهما فترة زمنية واحدة ، وللمد الأعظم أقصى سرعة وهنا يكون موج التيهور فى أقصى ارتفاعه مع المد الأعظم » (انظر : Bombay Government Selections, No. XVII, p. 87) وقد عرف الدكتور فنسنت Vincent التيهور معتقدا على ما أورده مؤلف Periplus عن الملاحه فى خليج كمبي Cambay (انظر : Commerce & Navigation of the ancient, etc, Vol. II, p. 396.) متعرضا لمظهره وتأثيره بحيث لا ندعش من ملاحظات الرحالة الأوائل الذين زاروا الهند ازاء هذه الظاهرة . يذكر فوربز Forbes « ان اندفاع المد الأعظم لا يعاوم فهو قوى جدا ، وهو يشكل منظرا لا يمكن للعين أن تتحقق منه تماما . انه يشكل جدارا عموديا من الماء ، يبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام أو أربعة ، تمتد عبر الخليج على مدى رؤية العين ، وتبلغ سرعته ثنى عشر ميلا فى الساعة . وهذا المد بصوته المحذر يحمل تهديدا حقيقيا للملاح انذى يؤدى به جهله أو طيشه الى التفاضى عن هذا الصوت المحذر » . (انظر : Ras Mala, Voél. I, p. 319) - (بادجر) .

(٣) نظرا لصعوبة هذه النصوص والتعليقات التى أوردها بادجر عن المد والجزر والحضيض القمري ، والأوج والتيهور وما الى ذلك ، فقد آثرنا توضيح هذه المصطلحات بشكل يجعلها أقرب للفهم من خلال الرجوع لبعض المعاجم الجغرافية ، فيما يلى :

bore ترجمها المعاجم الجغرافية ، تيهور ، أو موجة مد ، أو عبر نهري . وورد فى معجم منكهوس وجون صمول ، تحت هذه المادة (bore) ما معناه : « جدار » أو « حائط من المياه المنكسرة المتحركة تجرى ضد التيار على السطح upstream فى المياه الضحلة عند مصب النهر ، ويمكن تقدير مداها بمدى المد والجزر appreciable tidal range ، ويسببها قيام المد الأعظم بالتصدى لفيضان النهر المتقدم نحو البحر (عند مصب النهر) مما يعوق تقدم مياه النهر التى تصب فى البحر (أو المحيط) نتيجة التصادم (الاحتكاك) سواء عند القاعدة (القاع) أو بمواجهة تدفق النهر عند السطح ، وتتلشى الموجات تدريجيا بمعنى أن ارتفاعها يقل شيئا فشيئا ، ويؤدى اصطدام موجة المد البحرى ، بماء المهر الندفع عند مصبه الى تراكم الوحل عند مدخل النهر وهذا يقتضى ازالته لتمكين السفن من الملاحه فيه .

عامرة بالशलّال والفاكهة الطيبة جدا . ويوجد هنا ثمانية أنواع أو تسعة من البهارات ، يقال لها : توربيدي *turbidi* ، وجالانجا *gallanga* وسبيكوندارو *Spicondaro* وسافيتيسكا *Saphetica* ولاكرا (٤) *lakra* وبهارات أخرى ، لا أستطيع تذكر أسمائها . ويتم انتاج كميات مائلة من القطن هنا ، ففي كل عام يتم تحميل أربعين أو خمسين سفينة

neap tide أما المد الأدنى أو الأصغر فيكون عندما تكون الأرض والشمس والقمر في حالة ربيع *quadrature*

spring tide أما المد الأعظم فيحدث عندما تكون الأرض والقمر والشمس في نفس الخط المستقيم ، (في حالة اقتران *Syzygy*) سواء مرتبطا بالممر الجدي (عند ميلاد القمر) أو في حالة انحراف القمر في النمام (بدرا) .

perigon وتسمى نقطة في مدار الكوكب ، عندما تكون في أدنى (أقرب مسافة) من الأرض ، ويستخدم هذا المصطلح الآن للإشارة إلى القمر عندما يكون بعده عن الأرض ٣٤٨٢٦٢ كيار متر ، وترجمتها *(Perigee)* بعض المراجع العربية بالحضيض القمري . *a Perigeantide* مد الحضيض القمري ، ويحدث هذا المد عندما يكون بعده عن الأرض ما يكون إلى الأرض (٣٤٨٢٦٢ كيلو متر) ، ويسمى المد الأعظم حيث يكون المد الأعظم *١٥* المرتفع (العالي) والمد الأعظم المنخفض (الجزر) *١٥* أكثر من المعتاد بكثير . *a poegeantide* المد الأكبر (مد الأوج) ، عندما يكون القمر في أبعد نقطة له عن الأرض (٣٩٨٥٧٩ كيلو متر) (٧٤٧٦٦٧ ميلا) ويسمى المد الأكبر بهذا الاسم عندما يكون المد الأكبر المرتفع أكثر انخفاضاً والجزر أكثر ارتفاعاً من المعتاد ويكون مدو المد أقل من المعتاد .

A dictionary of Geography & the natural مترجمة عن : *environment by F. J. Monkhouse & John Small.* (المرجع) .

(٤) أسقطت الطبعة اللاتينية لرحلة فارتيمو كل هذه التسميات للبهارات المخلفة في منطقة كمي . أما الطبعة الإيطالية التي قام عليها راموزيو *Ramusio* فذكرت *Turbitti* و *galanga* و *Spico nardo* و *asso fetida* ، ولكن *Lacca* أما النوع الأول الذي أسماه فارتيمو *turbidi* فهو غفار معروف تماماً باسم *turbith* ، وهو نوع من اللبلاب *Convolvulus (C. Tarpethum L.)* وهو يوجد في مختلف أنحاء الهند وكذلك في جزر بحر الجنوب . (إضافة من المترجم : بالرجوع لمعجم الشهابي لمصطلحات العلوم الزراعية وجدناه يذكر تحت مادة المحموديات أنها عن المحمودية أو السقمونيا ، وكان يمكن تسميتها اللبلابيات نسبة إلى اللبلاب) يقول بادجر : وقد وجدته مدرجا تحت هذا الاسم في قائمة الأدوية التي اشتراها الفبطان جون ساريس *John Saris* في سنة ١٦١٢ من قبطان سفينة هندية وصلت للمخا قادمة من سورات *Surat* أما الجالانجا *Galanga* فهي وفقاً لما ذكره بارتى *Baretti* نوع من المرنة *arrow-root* (إضافة من المترجم : عربها معجم المورد بالمرنة ، أما معجم العلوم الزراعية للشهابي فقد عربها أروروت أي أنه كتب المصطلح الاجنبي *(arrow-root)* بالحروف العربية ، وعرفه بأنه نبات ذو جذور نشوية ، وذكر منه أنواعاً هي : المرنة الهندية *Queensland arrow-root* وقنا مأكول *Indian arrow-root* "Maranta Indica" وذكر أنه يستخرج من عسافله نشا ، ومرنة قصبة *West Indian arrow-root* أو *Maranta ar undinaca* ويستخرج أيضاً من جذورها نوع من النشا) . وللمجالانجا استخدامات طبية . أما الاسبيكينارو *(Spikenard)* والسافيتيسكا *(assafetida)*

بالمنسوجات القطنية والحريير التي تصدر للبلاد المختلفة . وفي مملكة كمبي هذه يوجد أيضا على بعد ستة أيام ، جبل يستخرج منه العقيق الأحمر Cornelians ، وجبل آخر يستخرج منه العقيق الأبيض Chalcedonies . وعلى بعد تسعة أيام من كمبي يوجد جبل آخر يوجد به الألباس (٥) .

منزلة سلطان هذه المدينة العظيمة ، كمبي

سوف نتعرض الآن لمنزلة وأحوال السلطان محمود Machamuth سلطان كمبي . فمنذ حوالي أربعين عاما استولى على مملكة كمبي هذه من ملك جزيرات Guzerati والجوزاتيريون نوع من البشر لا يأكلون

ممعروفه تماما كادوية هندية (إضافة من المترجم : عرب معجم الشهابي الاسبكيانرو بالناردين السنبل وعرفه بأنه نبات من الفصيلة الناردية كان الناس يستخرجون من جذوره عطرا مشهورا ، والاسم العلمي لهذا النبات هو Nardostuchys jataman-i ويطلق الاسم أيضا على الزيت المستخرج من جذور هذا النبات ، وقد عدد معجم الشهابي أنواعا من هذا النبات (spikenard) ذكرها على النحو التالي : بالإضافة للناردين السنبل المذكور أعلاه ، ذكر أربله سنبلية ، والاذخر المكي Andropogon nordus وخزامى سنبلية Lavandula Spica أو اللافندر ٠٠ الخ) يقول بادجر : أما لك Lacca فهي بدون شك صبغة تنتجها حشرة اللك lac insect تعرض لها بالتفصيل الدكتور بوشنان Buchanan

(انظر : Journey through Mysore, Canara & Malabar)

في : (Pinkerton' Voyages, Vol. VIII, pp. 760-761.)

أما نيكولو دي كونتي Nicolo de Conti الذي كتب عن خليج كمبي فيذكر « أنه (أى كمبي) زاخر بالمارنطة (الناردين) واللک ، والنبلة (صبغة زرقاء) والاهليلج myrobalans والحريير » (إضافة من المترجم : بالرجوع لمعجم الشهابي لمصطلحات العلوم الزراعية . وجدنا التعريف التالي . الاهليلج نبات استوائي قابض ، منه الهندي الشعيرى ، ويسمى أيضا Terminilia ، ويسمى أيضا الأملج ، ويستعمل ثمره للأغراض الطبية واسمه العلمي Phyllanthus emblica يقول بادجر : أما نيكيتين Nikitin فيذكر : « اللک دايك دالوان "Lek daokyk daton. من بين منتجات هذه المنطقة (كمبي) وأظن أن الكلمة العربية عقيق مأخوذة منها (agates) ، أما كلمة dāl الهندوستانية فتعنى العدس lentils . (انظر ، India in the fifteenth Century, II, p. 20, (III, p. 19.) (بادجر) .

(٥) لا تزال كمبي مشهورة بالعقيق agates, Cornelians والجزع onyxes (أو العقيق اليماني ، وهو المقابل العربى الذى ورد فى معجم المصطلحات العلمية والفنية - انجليزى ، عربى ، الذى وضعه أحمد الخطيب ، ورغم أن بادجر قد ذكر agates و Cornelians على أنها مصطلحان مختلفان ، إلا أن المعاجم المنوفرة بين أيدينا تجعل العقيق هو المقابل العربى لكليهما ، إلا أنه لابد من فارق دقيق بين الكلمتين - (المترجم) المشغول =

اللعوم . ولا يقتلون أى كائن حى . وهم ليسوا مسلمين Moors وليسوا همجا أو وثنيين Heathens (٦) وأرى أنهم لو عمدوا لأمكن انقاذهم ،

= بأشكال مختلفة . وأفضل العقبي agates & Cornelian يوجد فى طبقة معينة تحب السطح بحوالى ثلاثين قدما فى ناع صغيرة فى بلال راجيبلا Rajpeeplai على ضفاف نيربودا Nerburda . على بعد حوالى سبعين ميلا الى الجنوب الشرقى من كمبي Cambey ولا أعلم بوجود أية مناجم ماس موجودة فى جربرات Guzerat أو حولها ، وربما كان فارسا يسير بها الى تلك الموجودة فى حولكوندا Golconda - (بادجر ٤) .

(٦) كان السلطان فى ذلك الوقت هو فتح خان Fath Khan ، ويلقب محمود بنرة Mahmud Bigarraha ، وقد تولى الحكم سنة ١٤٥٩ م وتوفى سنة ١٥١١ ، إلا أن فارسيا أخطأ فى تاريخه لعقاب الحكم . فقد أصبح جربرات Guzerat منفصلة عن دهلى Delhi تحت حكم ظفرخان Dhafir Khan الذى اسولى على السلطة فيها سنة ١٤٠٨ . ولم يعاصر فارسيا هذه الأحداث كما هو واضح . أما ذكر ملك جربرات الذى لم يكن مسلما ولا وثنيا heathen . فذلك يدعوى للظن بأنه حرف ما سمعه عن الانتصارات الحربية للسلطان محمود على بعض الأمراء المحليين ، فخلط زمن هذه الحروب كما خلط أو وهم فيما يتعلق باعقادهم فى القوة العليا Supreme power . ولعل أقرب الحوادث التاريخية التى يحتمل أن فارسيا قد خلط فيها بهذا الشأن ، هى استيلاء السلطان محمود على قلعة جرنار Girnar وجاناجاره Janagarah الحصينتين من راو ماندالك Rao Mandalik فى سنة ١٤٧٢ . وكانت هاتان القلعتان فى كتيوار Kattywar إحدى مقاطعات Province جربرات ويبدو أن هذه المقاطعة كان يقطنها فى ذلك الوقت الجينيون (اليانيون) Jains . وقد كتب بوستانز Postans عن جرنار Girnar ما يلى : « كل هذا الجبل الممير عامر بطهارة وفضيلة خاصة ، ذات أصول عريقة جدا ، وينبذ نظم العبادة الحالية مطعمة بالعقيدة البوذية القديمة الشائعة هنا ، فشعائر (نظم عبادة أو مراسم) بوذا pyadasi واضحة بما فيه الكفاية فقد كان جبل جرنارجار Girinagar وما حوله ، فى الماضى البعيد مقفلا للموحدين بالله Monotheists الذين اضمحلت نظم عبادتهم الآن وتلاشت من العبادة الجينية (اليانية) Jainism الحديثة » (انظر : Notes on a journey to Girinagar, p. 882.

وانسى أكثر ميلا الى هذا الاستنتاج السابق ، لأن وصف فارسيا لعقيدة وعادات البشر الذين أشار اليهم ولكون الجينيين (اليانيين) Jains عامة يكترون فى كمبي وما حولها ، وهم يحرسون حرصا شديدا على حياة الحيوان . فالشرافاكان the Shrivakans وهم إحدى فرق الجينيين (اليانيين) لديهم كثير من المصحات (pinjreepols) للحيوانات والزواحف ، مهما كانت قليلة الشأن . كما أن لديهم منشآت خاصة أخرى تسمى جفكوتى Jevkotee ، وهى عبارة عن قبة لها باب عند الفم يسهل دخول انسان زحفا - يضعون فيها السوس وغير ذلك من الحشرات التى يجدها فى الغلال (الجيوب) . ويمدونها بالطعام ، لفرط حرصهم (أى الشرافاكا) وعنايتهم الشديدة بكل ما فيه روح (بكل أشكال الحياة) . وأكثر من هذا فهم يؤمنون بعبادة اله واحد ، ويرفضون تماما وكالة (وساطة) كل من : Devats و Aryhuntas أو Goroos (انظر Fitch 342-5. Bombay Government Selections, No XXXIX, p. 342-5.) وقد كتب عن مستشفيات الحيوانات هذه (البنجربول) قائلا : « انهم فى كمبي لن يقتلوا ، ولا هم قتلوا أى كائن حى ، بل ان لديهم مصحات لمعالجة اطعام المرضى والضعاف من الكلاب والقطط ، وأخرى للطيور الضعيفة أو المريضة . بل انهم يقدمون اللحم للنمل » (انظر : (Pinkerton's Voyage Vol. IV, p. 409)

وذلك بسبب صدق أعمالهم ، وتحليلهم بالفضائل ، فهم لا يقومون بأى عمل يؤذى الآخرين مما يكرهون أن يفعله الآخرون معهم . أما لباسهم فأصفه كالتالى : بعض منهم يلبس قميصا ، وبعضهم الآخر عراة الا من قطعة قماش ، يلفها الواحد منهم حول خصره ويمشون حفاة ، ويضعون على رؤوسهم قطعة قماش حمراء كبيرة ، وألوان بشرتهم سمراء مصفرة وبسبب طيبتهن وحبتهن للسلام ، وجدنا السلطان محمودا الذى أشرنا اليه آنفا يستولى على مملكتهم .

وسوف أقص عليك الآن أسلوب حياة السلطان محمود هذا . فأول ما أذكره لكم أن هذا السلطان وكل شعبه من المسلمين ، ولديه عشرون ألف فارس . وعندما يستيقظ فى الصباح ، يأتى الى قصره خمسون فيلا وقد ركب على كل فيل رجل وقد دلى ساقيه على جانبي الفيل (يركب الواحد منهم منفرج الساقين *astride*) وتنعنى هذه الفيلة انحناء خاصة تحية للسلطان ، وهذا هو سبب مجيئها للقصر ، ولا سبب آخر . وتقوم الفيلة بالشيء نفسه عندما ينهض السلطان من فوق سريريه . وعندما يأكل السلطان تمزف خمسون آلة موسيقية أو ستون منها الأبواق *Trumpets* والطبول من مختلف الأنواع والمزامير (الصافرات) *Flageolets* والنايات *Fifes* وآلات أخرى كثيرة لا أذكرها مراعاة للاختصار .

وعندما يأكل السلطان أيضا تاتى الفيلة التى سبق أن ذكرتها لتحيته . وفى الوقت المناسب ، ساقص عليك من أمر هذه الفيلة ما يفيد ذكاءها وقدرتها على الفهم . وللسلطان محمود شوارب طويلة تحت أنفه ، وهى شوارب يبلغ طولها مبلغا كبيرا حتى انه ليعقدها فوق رأسه على نحو ما ترتبط النسوة ضفائرهن ، وللسلطة لحية بيضاء طويلة تصل الى حزام وسطه (٧) ويتناول هذا السلطان السم كل يوم . وعلى أية حال ، لايمكنك أن تتصور أنه يملا معدته به ولكنه يتناول قدرا معيناً ، وعندما يرغب فى قتل أى شخص ذى مكانة فانه يدعو للجلوس أمامه عاريا ، ثم يأكل فاكهة معينة تسمى شوفول *Chofole* وهى تشبه حبات عنب المسكات *muscatel nuts* (٨) ، ويأكل أيضا بعض أوراق الأعشاب ، تشبه

(٧) ذكر على محمود خان فى كتابه « تاريخ جزيرت » *history of Guzerat*

عن السلطان محمود ما يلى : « فيما يتعلق بلقبه « بقرة » فان أهل جزرات يقولون ان قرنى شاربيه كبيران ، وهما مضفوران ، ويشبهان قرنى البقرة ، لذا فقد أسموه السلطان محمود قرنى البقرة ، أو السلطان محمود بقرة » (انظر ترجمة Bird للكتاب المذكور pp. 202-203)

(٨) ذكر الشيء نفسه أوداردو باربوسا *Odoardo Barbosa* الذى يبدو أنه زار كمبى بعد موت السلطان محمود خان بفترة قصيرة . يقول أوداردو : « لقد سمعت أنه تعود تناول السم منذ الطفولة لخوف أبيه من أن يقتل بالسم وهو أسلوب القتل الشائع =

أوراق البرتقال الحامض Sour orange يسميها بعضهم تمبولي Tamboli تم يأكل بعض ما في القواقع والأصداف البحرية • يأكل كل ذلك معا ، وعندما يعضها جيدا ويمتلئ فمه بها يبصقها (يقذفها) على الشخص الذي يريد قتله ، فيقع ميتا على الأرض في غضون نصف ساعة • ولهذا السلطان ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف زوجة (وجارية) وفي كل ليلة يقضيها مع احدها ، توجد المرأة ميتة في الصباح واذا ما خلع هذا السلطان قميصه ، فلا يمكن لأى انسان أن يمس هذا القميص (وهذا ينطبق على كل ما يلبسه ، ففي كل يوم يختار ملابس جديدة • وقد سأل رفيقى كيف يتأتى لهذا السلطان أن يأكل السم على هذا النحو ؟ فأجابته بعض التجار الأكبر سنا من السلطان ، بأن أباه كان يطعمه السم منذ كان صغيرا • دعنا الآن نترك السلطان ، لنعود الى رحلتنا • فمعظم رجال هذه المدينة يرتدون قمصانا وهم قوم مقاتلون شديدي البأس ، كما أنهم تجار كبار • ومن المستحيل أن أصف روعة المنطقة ، فثمة حوالى ثلاثمائة سفينة من مختلف البلدان تتردد على هذه البلدة • فهذه المدينة (كمبي) ومدينة أخرى سأحدث عنها تمهد كل بلاد فارس وبلاد التتار وتركيا وسوريا وشمال أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا والقرن الأفريقي (Ethiopia) والهند كثير من الجزر المأهولة - بالحرير والمنسوجات القطنية • لذا فهذا السلطان يعيش في رخاء واسع ، ويدخل في معارك مع الملك المجاور له وهو ملك يوحى Ioghe التى تبعد خمسة عشر يوما •

= فى هذه البلاد ، لذا فقد اتخذ أبوه حذره ضد ذلك ، فبدأ يطعم ابنه بالسم بحركات خشلة ، وراح يزيد مقدار هذه الحركات بالتدريج حتى أصبح (أى ابنه) قادرا على تناول قدر كبير من السم حتى أصبح هو نفسه مسمما حتى ان الذبابة اذا ما حطت على يده فانها سرعان ما تنتفخ وتموت ، وقد ماتت نسوة كثيرات ممن ضاجعن للسبب نفسه • (انظر : Ramusio, Vol. I. I, pp. 294-5 أما فارتيما فيورد ما هو أكثر من هذه فبصة محمود بعد مضغه ورق البتل Betel Leaf مع فاكهة نخيل الأريكا the Areca palm ونخاع الأصداف - على أى شخص يريد جلالته قتله - تؤدى للقتل • وهذا يبعد عن الحصة فلم أجد ما بثبت هذه الرواية المبالغ فيها والنسب تذكرنا بحكايات المناعة من السم Mithridates ، وحكايات ألف ليلة وليلة ، فؤلف Miraat Sikandari نقل عن على محمد خان قوله : « ان السلطان محمود كان الأفضل من بين كل ملوك جزرات لعدائه واحسانه ومراعاته أحكام الشريعة الاسلامية كلها ، ولصلايته فى الحق فى الأمور كلها ، صغيرها وكبيرها ، وكان مشهورا بالقوة والشجاعة والتحرر » (انظر ترجمة Bird ، 203 p) (بادجر) •

(٩) لا يقصد فارتيما بمصطلح « اثيوبيا » دولة الحبشة المعروفة الآن ، وانما استخدمها فى أكثر من موضع من رحلاته للدلالة على كل ساحل أفريقيا الشرقي حتى سفالة (فى موزمبيق الحالية) كما أطلقها على مناطق زيلع وبربرة • (انظر نص رحلة فارتيما التى أشرنا لبياناتها البليوجرافية فى المقدمة وفى قائمة المراجع ، 289-298 pp) (المترجم -) •

ملك جوغى Joghe ، أسلوب حياته وعاداته

ملك جوغى (أو جوغى) (١٠) ذو سلطان واسع اذ يحكم حوالى ثلاثين ألف شخص ، وهو - وكل شعبه - وثنيون وينظر الملوك الوثنيون الآخرون له ولشعبه باعتبارهم قديسين (مقدسين) نظرا لأسلوبهم فى الحياة الذى سأذكره لكم هنا . فمن عادة ملك جوغى أن يذهب للحج كل ثلاث سنوات أو أربع مصطحبا معه ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من شعبه ، ومصطحبا معه زوجته وأطفاله . وهو يأخذ معه أربعة أو خمسة من طيور الزقراق Coursers والزباد Civet-Cats والقروود والبغاوات ، والصقور والنمور ، وهو يمر بالهند كلها وهو فى طريقه للحج . أما ثيابه فمن جلد الماعز ، جلد ماعز لتغطية قبله ، وجلد ماعز لتغطية دبره ، وهو يجعل جانب الجلد الذى فيه الشعر (الوبر) الى الخارج . ولون بشره هذا الملك مسودة مشبعة بالصفرة dark tawny ففي هذه المنطقة نجد الناس أكثر سوادا ، وأبعد عن البياض . ويتزين هذا الملك وشعبه بكميات كبيرة من المجوهرات والملائى وغير ذلك من الأحجار الكريمة يعلقونها فى آذانهم ، وهم يرحلون لحجهم هذا وقد ارتدوا الزى الفضفاض على النسق الرومانى a l'apostolica (١١) وبعضهم يرتدى القمصان ، وقد غطى وجهه الملك وذراعه وكل جسده - وكذلك بعض النبلاء (ذوى الحيشيات) بمسحوق خشب الصندل ، والروائح العطرية الممتازة . وبعض هؤلاء الناس - ورعا وتقوى - تعودوا ألا يجلسوا فوق أى مقعد مرتفع ، بل ان

(١٠) لست بغادر على العرف على ملك يوغى "King of Joghe" (Joghees) الذى يقال ان السلطان محمودا دخل معه فى حرب . وليس من مصادر نقارن بها ما أورده فارتيمنا من أسماء ومسافات . وربما كان فارتيمنا يشير الى راجا Rajah ايدور Eedur فى مبهى كانتا Myhee Kanta الذى سار اليه السلطان محمود بجيش كبير فى سنة ١٤٩٤ م ، وبين راجات كولى Koolee Rajahs وجزرات Sovereigns Guzerat كانت توجد حروب مستمرة منذ سنة ١٤٠٠ حتى أصبحت جزرات احدى مقاطعات امبراطورية أكبر منذ سنة ١٥٨٣ م Akbar's empire (انظر : Bird's translation of the Mirât Ahmadi, pp. 121, 137, 222, 277, 325. . وانظر أيضا : Forber's Ras Mala, Vol. I, pp. 372, 381, 385 ...) وربما كان موضع الحج الذى أشار اليه فارتيمنا هو المزار البوذى المشهور (بوذخانا Boodkhana) فى بروتم perwutlum التى وصفها نيكيلين Nikilin قائلا : « انها قدس الهندوس اذ يتجمع فيها الناس من مختلف أنحاء الهند » (انظر : Century, III, p. 16. India in the 15th) (بادجر) .

(١١) أظن أن فارتيمنا استعار هذا من التعبير الرومانى Toga الذى يعنى الثوب الرومانى الفضفاض الذى كان الفنانون الايطاليون القدماء يرسمون الرسل والحواريين وقد ارتدوه وهو تعبير مقبول ومفارنته واردة ، نظرا لأن عامة الناس فى الهند يرتدون اللونجاتى longhati . وقد سبق لفارتيمنا عند حديثه عن لباس بعض أهل جنوب الجزيرة العربية ان أجرى مقارنة مماثلة - (بادجر) .

آخرين منهم لا يجلسون - ورعا وتقوى - على الأرض أبدا ، وآخرين منهم لا يمددون تمدا كاملا على الأرض ، وآخرين لا يتكلمون أبدا • وهم دائما يطوفون مع ثلاثة أو أربعة رفاق يقومون على خدمتهم • وكلهم - بوجه عام - يعلقون في رقابهم أبواقا صفارا a little horn وعندما يصلون الى إحدى المدن ، ينفخون جميعا في أبواقهم ، وهم يفعلون ذلك عندما يكونون في حاجة الى الصدقات • وإذا لم يكن الملك مصاحبا لهم فانهم يحجون على دفعات ، يبلغ عدد الدفعة الواحدة أربعمئة أو ثلاثمئة شخص على الأقل ويبقون في المدينة ثلاثة أيام في حالة سنجاني Signani (١٢) ، وبعضهم يحمل عصيا لها حلقات من الحديد عند أطرافها • وبعضهم يحمل أطباقا حديدية ذات حواف حادة كالأمواس وهم يقذفون بها بمقاليع ، عندما يريدون الحاق الأذى بأى شخص ، ولذلك فإن هؤلاء الناس عندما يصلون الى أية مدينة هندية ، فإن كل من فيها يحاول ارضاءهم لأنهم اذا ما حدث أن قتلوا أحدا - حتى ولو كان حاكم البلاد ، فإن أحدا لا يعاقبهم لأن الناس ينظرون اليهم كقديسين Saints (١٣) • وأرض جوغى ليست خصبة جدا لذا فهم يعانون من جذب المحاصيل وقلة المؤن ، فالجبال في بلادهم أكثر من السهول ، والسكان فقراء جدا وليس في بلادهم مواضع مسورة (١٤) • وتصل جواهر كثيرة الى بلادنا على يد هؤلاء الناس •

فبسبب حرية الحركة التى يتمتعون بها ، وكذلك بسبب صدقهم وطهارتهم ، فانهم يذهبون حيث تنتج الجواهر ، ويحملونها الى مناطق الهند الأخرى ، دون أن يدفعوا فيها شيئا without any expense ونظرا لأن بلادهم حصينة ، فقد كان السلطان محمود فى حرب معهم •

مدينة شول Cevul وعادات أهلها وشجاعتهم

عندما غادرت مدينة كمبى ، ظلمت فى حالة ترحال حتى وصلت مدينة أخرى هى شول التى تبعد عن كمبى اثنى عشر يوما وما بين المدينتين (كمبى وشول) يسمى جزرات Guzerati •

(١٢) Singani أو Zingani تعنى النحر gipsies (؟) - (بادجر) •
(١٣) من المؤكد أن ما ذكره فارتيما عن الممارسات القاسية والصارمة التى يمارسها الجوغيون الفقراء Joghee Fakirs ، وكذلك تقدير اخوتهم الدينية Co-religionists فيه كثير من الاعتدال فى الوصف ، وهو اعتدال نفوس ما كنيه برنير Bernier أو همilton اللذين أبديا كثيرا من الاشتمازان والقرف ازاء هذا الزهد (التقشف) الفاحش Filthy ascetics (انظر :
Pinkerton's Voyage, vol. VIII, p. 180, 317-8

(١٤) ما ذكره فارتيما من وصف للمنطقة ، يجعلنى أؤكد أنه يشير الى منطقة ميهى كانا Myhee Canta - (بادجر) •
(١٥) يكتب الكتاب الانجليز هذه المدينة بأشكال مختلفة Choul أو Chaul =

وملك شول وثنى والناس هنا ذوو بشرات سوداء مشبعة بهسفرة .
أما عن لباسهم — باستثناء بعض التجار المسلمين — فإنهم يلبسون قمصانا،
وبعضهم يسيرون عراة الا من قطعة قماش حول الخصر ، وهم حفاة
ولا يقطنون رؤوسهم . وهم مقاتلون ، وأسلحتهم هي السيوف والتروس
والأقواس والسهام المصنوعة من القصب والخشب ، ولديهم مدافع
they posses artillery . وهذه المدينة مسورة بنسكل جيد
وتبعد عن البحر بميلين . وفى هذه المدينة نهر فى غاية الجمال ، تغدو
وتروح فيه السفن الأجنبية بأعداد كبيرة فالمنطقة عامرة بكل شئ عدا القصب
وجوز الهند والكستناء chestnuts . وهم يحملون هنا كميات هائلة
من الفلال والشعير والخضروات من كل نوع، ويصنعون المنسوجات القطنية
هنا بكميات كبيرة .

ولن أصف لك عقائدهم هنا ، لأن عقائدهم هى نفس عقائد ملك
كلكتا Calicut التى سأذكرها لك عندما يحين وقت الحديث عن كلكتا .
ويوجد فى شول عدد كبير من التجار المسلمين . والمناخ هنا أقرب للحرارة
منه للبرودة . والعدالة تسير سيرا حسنا فى هذه البلاد ، وليس لدى ملكها
عدد كبير من المقاتلين ، ويملك السكان هنا خيولا وثيرانا وأبقارا بأعداد
كبيرة .

مدينة دابولى Dubulī

بعد أن رأينا مدينة شول وعادات أهلها ، رحلت الى مدينة أخرى

= أو Chowul ، وهى مدينة وميناء فى الكنكان الشمالى Northern Concan فى مقاطعة
(منطقة) تانا Tannah البريطانية الى الجنوب من بيمباى بثلاثة وعشرين ميلا . ويبدو
أنها كانت موضعا لتجارة هامة فيما مضى وقد زار نيكيتن Nikitin الرحالة الروسى
هذه المدينة وأسماها شيفيل Chivil قبل فارتيجا بحوالى خمس وثلاثين سنة ووصف
أحوال سكانها بتفصيل أكثر مما قدمه لنا فارتيجا ، فهو يقول « ان الناس يسيرون شبه
عراة ، ورؤوسهم عارية ، وكذلك صدورهم . . . وأميرهم their Kniaz يضع الفاتا fata
(وهو ثوب حريرى فضفاض) على رأسه ، وآخر ، حول خصره . (وهو ما يشير اليه
فارتيجا بمباراة alla apostolicha . أما خدم الأمير فيربطون (يعقدون) الفاتا fata
حول صدورهم ويحمل كل واحد منهم فى يده ترسا وسيفا (ذى حدين) أو سيفا معقوها
(أحديا) أو خنجرا أو سيفا ضالعا (وحيد الحد ، وطويل ، ومعقوف قليلا) أو فوسا
وسهاما ، الا أنهم جميعا عراة وحفاة » (انظر : voyage, XI, p. 408, VIII, p. 351.
أما رالف فتش Fitch الذى كان فى شول سنة ١٥٨٣ بعد سقوطها فى أيدي البرتغاليين
فيقول : « توجد هنا تجارة عظيمة فى كل أنواع البهار ، والأدوية والحريير والملابس الحريرية
والصندل والعاج وأسنان الفيلة » الا أن هذه التجارة قد انهارت بدرجة كبيرة زمن هملتون
Hamilton الذى نجده يقول : « ان هذا المكان بائس تماما الآن » (انظر Pinkerton's
voyage, XI, p. 408, VIII, p. 351.) (بادجر) .

تبعد عنها بيومين ، وهى مدينة دابولى (١٦) التى تقع على ساحل نهر كبير جدا . ومدينة دابولى ، ذات سور يشبه أسوار المدن فى بلادنا وهو بحالة جيدة جدا . وهذه المدينة وما حولها تشبه المدينة التى سبق أن ذكرتها (شول) . ويوجد عدد كبير جدا من التجار المسلمين هنا وملك دابولى وثنى ولديه حوالى ثلاثين ألف مقاتل الا أنهم يشبهون المقاتلين - فى شول Cevul التى سبق أن أشرت اليها . ويراعى الملك هنا تحقيق العدالة بشكل صارم ، أما أسلوب الحياة واللباس والعادات فى دابولى فهى جميعا تشبه ما فى مدينة شول .

جزيرة كاوه (جوجا) وملكها

لقد غادرت دابولى وتوجهت الى جزيرة جوجا (كاوه) التى تبعد عن البر الهندى حوالى ميل والتى تدفع سنويا لملك الدكن Deccan عشرة آلاف دوكلات ذهبى ، ويسمونها (أى الدوكوات) بارادى Paradi ، وهى (أى البارادى) أصغر من الأشرفى Seraphim القاهرى ، الا أنها أسمك وقد حفر شيطانان devils على أحد وجهيها ، وبعض الكتابات على الوجه الآخر (١٨) . وفى هذه الجزيرة قلعة تقع بالقرب من البحر وهى

(١٦) تقع فى المقاطعة البريطانية Rutnagherry ، عند خط طول ٣٤' و ١٧' ٥١٧٠٠٠ شرقا ، على الضفة الشمالية لنهر واششتى washishte (كان الملاحون الأوائل يسمونه هليوك Hulewacke أو كاليوكو Kalewacko - (بادجر) .

(١٧) جزيرة Coa التى يسميها ابن بطوطة كاوه (Kawah) يحتلها البرتغاليون الآن (أيام بادجر) الا أنها فى ذلك الوقت كانت تابعة لسلطنة الممالك فى الدكن ، وقد استولى البويرك على هذه الجزيرة سنة ١٥١٠ الا أن حاكمها عادل شاه Adil Shah سرعان ما طردهم . واستعادها البرتغاليون مرة أخرى فى العام التالى من خليفة عادل شاه ، ولا زالت فى حوزتهم حتى الآن (أيام بادجر) ولم تكن تجارتها مزدهرة جدا قبل البرتغاليين ، الا أنها - أى التجارة - عادت فازدهرت فى الفترة الباكزة من الحكم البرتغالى ، وقد ذكر رالف فيتش Fitch الذى زار Goa سنة ١٥٨٣ أنه يوجد فى هذه الجزيرة كثيرون من مختلف بلاد العالم ، الا أن وضعها الآن بانس تماما - (بادجر) .

(١٨) البارادو أو البيراتات Parado or Pertab ، المقصود بها نفس العملة التى نسمى الهن hun . ووفقا لما ذكره برينسب فان هذه العملة تحمل صورة Prinsep سيف (شيفا) Siva وبارباتى Parbati على أحد الوجهين ، ومعبد هرومى على الوجه الآخر ، وتسمى بين الأوربيين Pajoda الا أنه فى مجموعة مارسدن عن عملات جنوب الهند يوجد لوحة بقطعة عملة من النوع المشار اليه فى حجم ووصف (الكتابة) يتماثلان مع ما ذكره فارتيسا ، فعلى أحد وجهيها صورة شيفا وبارباتى Parbati وعلى الجانب الآخر شعار يبدو أنه لحاكمة (امرأة) اسمها سرى ساداسيفا Sri Sadasiva (انظر : Marsden's Numismatic Orientalia Vol II, p. 738) (بادجر) .

مسورة على غرار قلاعنا ، ويوجد فى هذه القلعة تحت امرته أربعمائة مملوك ، بل ان هذا القائد نفسه مملوك . وعندما يستطيع هذا القائد المملوكى تدبير رجل أبيض ، فانه يدفع له مبلغا كبيرا من المال ويخصص له على الأقل خمسة عشر أو عشرين بارادى Paradi فى الشهر . وقبل أن يدرجه ضمن قائمة الرجال القادرين (المقاتلين) فانه (أى القائد) يرسل فى طلب رداءين runies من الجلد واحد له (أى لقائد القلعة) والآخر لمن يريد القائه ادراجه ضمن رجال القلعة المقاتلين ، ويرتدى كل منهما رداءه الجلدى ، ويدخلان فى صراع (مصارعة) فاذا ما وجده القائد قويا ، أدرجه ضمن رجال القلعة المقاتلين واذا وجده غير قوى وظفه فى عمل آخر غير القتال . ويشن هذا القائد ومماليكه الأربعمائة حروبا شديدة ضد ملك نارسنجا (١٩) Narsinga الذى سستحدث عنه فى الوقت المناسب . وقد غادرت كاوة (جوجا) وسرت فى البر الهندى سبعة أيام حتى وصلت الى مدينة الدكن .

مدينة الدكن المدينة الهندية رائعة الجمال وجواهرها المتنوعة والشمينة

يحكم مدينة الدكن المذكورة ملك مسلم ، ورئيس القلعة الذى أشرنا له فى الفصل السابق يتبع ملك الدكن ويدفع له هو ومن معه من المماليك، ومدينة الدكن فى الغاية من الجمال ، وأرضها خصبة جدا . ولدى ملكها ، خمسة عشر ألف فارس وراجل . ويوجد قصر جميل بهذه المدينة ، به أربع وأربعون غرفة يتحتم عليك المرور بها جميعا قبل أن تصل لغرفة الملك . وهى مدينة مسورة على نسق أسوار المدن المسيحية ومنازلها جميلة جدا (*) . ويعيش ملك الدكن فى أبهة وعظمة فائقتين .

(١٩) المقصود راجا راجاياناجر Raja of Rajayanagar عاصمة المملكة البرممية المسهورة كارانتك Carantik التى كان بينها وبين سلطة عادل شاه فى الدكن حروب مسمرة فى هذه الفترة (انظر Scott's Ferishta, Vol. I, pp. 207-225) (بادجر) .

(★) المقصود هنا - بلا شك - هى بيجابور Bijapur وهى مدينة خربة ومهجورة الآن ، فى مقاطعة ساتارا Sattara district بالقرب من الحدود الشرفية نحو حدار آباد ، الا أنها كانت فيما مضى عاصمة مملكة الدكن الإسلامية . وقد ذكر فينش Fitch الذى زار جوجا Goa فى سنة ١٨٥٣ أن « بيجابور تقع فى منطقة الدكن (Hidalcán) التى تبعد عن جوجا ستة أيام أو سبعة . وتعد بيجابور Biscapor or Bijapur المدينة الرئيسية فى الدكن » وكان الأمير الحاكم على أيام رحلة فارتينا هو يوسف خان . الابن الشهير لمراد الثانى فى الأناضول الذى كان (أى الابن) قد تم شراؤه كعبد (مملوك) =

ويضع عدد كبير من خدمه على أحذيتهم الياقوت الأحمر والألماس وغير ذلك من الجواهر ، وعلى هذا يمكنك أن تتخيل كثرة ما يلبسونه في أصابعهم ويعلقونه في آذانهم ، منها ، ويوجد جبل (*) في هذه المملكة يستخرجون منه الألماس ، وهذا الجبل يبعد عن المدينة مسافة فرسخ ، وقد أحاطوه بسور وفرضوا عليه حراسة مشددة . وهذه المملكة عامرة بكل شيء . وأهلها جميعا من المسلمين .

ويتكون لباسهم من الأثواب robes أو القمصان الحريرية رائعة الجمال ويلبسون أحذية ، وسراويل قصيرة كذلك التي يرتديها البحارة . أما النساء فمحجبات كنسوة دمشق .

الأعمال العسكرية لملك الدكن

وملك الدكن الذي أشرنا اليه آنفا ، كل أهل مملكته مسلمون ، وهو في حالة حرب دائمة مع ملك نارسنجا Narsinga . وغالب عسكر ملك الدكن من الأجانب البيض (٢٠) ، أما لون شعبه فأسود مشبع بصفرة .

= ليكون حارسا لملك أحمد آباد (سدار) Bidar (Ahmedabad) إلا أنه سرعان ما وصل الى أرضي المناسب في الدولة ثم انفراد بالسلطة وانجد لنفسه اسم عادل شاه Adil Shah في سنة ١٥٠١ . ولا بد أن مواده كانت هائلة لأنه بسى قلعة بيجابور الصخمة التي جعلها مقرا له . وناكد حديث فارنيسا عن فخامة هذه المدينة وازدهارها وعن روعة بطانة ملكها وبسالة قواته العسكرية من خلال الآثار العظيمة التي تدل على موقع بيجابور التي كانت عاصمة دات يوم ، وكذلك ما ذكره فرنشا Ferisha عن حكم عادل شاه . وفرنشا هذا رار هذه المنطقة سنة ١٨٥٢ ووصف بقايا القصر Padishah's palace قائلا : « لقد كان فخما ورائعا حقا ، يعوى الوصف . فلا يمكنني القول اني رأيت قصرا أوروبيا قديما أو حديثا يذاته من حيث المساحة واسلوب العمارة ، فالجدران المحصنة التي تحيط بالقصر وملحانه يبلغ محيطها ميلا ونصف وتسور مساحة تبلغ حوالي اثنين وستين فداناً انجليزيا acres . والخندق المائي العريض الخارجى تظله أشجار التمر الهندي الضخمة ، كما أن الباحات التي تتخلل القلعة غاصة أيضا بالأشجار ٠٠٠٠ » وهو يقدر السكان الحاليين بحوالى أحد عشر ألف نفس (انظر : Bombay Quarterly Magazine, July 1853.

وانظر أيضا : Sydenham's Account of Bijapur (بادجر) .

(★) ربما كان هو الموقع الذي أشار اليه نافرنير Tavernier في قوله : راول المناجم التي زورها نفع ضمن حدود ملك بيجابور Visapour Bijapur في مقاطعة (ولاية) كارناتكا Carnatica ، وهذا المنجم يسمى رولكوندا ، Raolconda ويبعد عن جلكوندا Golconda بخمسة أيام ، ويبعد ثمانية أيام أو تسعة عن بيجابور (Visapoor)

(انظر : Pinkerton's Voyage, Vol. VIII, p. 235 (بادجر) .

(٢٠) وفقا لما ذكره فرنشا Ferishta فان عادل شاه قد أدخل في خدمته عددا كبيرا من المساعدين الأجانب ، وكان من بينهم كثير من الأحاش ، كما ذكر أن حليفه اسماعيل عادل شاه كون جبشا من ١٠٠٠٠ فارس من العرب والفرس والترك الازبك والاكراذ وغيرهم من الجنسيات الأخرى (انظر Scot's Translation, Vol. I, p. 245 .

وملك هذه البلاد قوى جدا وثرى جدا ومتحرر most liberal • وهو يمتلك
بالإضافة لذلك أسطولا بحريا وهو عدو لدود للمسيحيين (٢١) •
وقد غادرنا بلاده ، وذهبنا الى مدينة باناكالا Bathecala •

باناكالا ، ووفرة الأرز والسكر بها

تبعد باناكالا ، احدى مدن الهند العظيمة ، عن الدكن ، خمسة أيام ،
وملكها وثنى • ومدينة باناكالا مسورة ورائعة ، وتبعد عن ساحل البحر
حوالى ميل • وملكها (حاكمها) تابع لملك نارسنجا Narsinga •
وللمدينة ميناء ولا يمكن للسفن الاقتراب منها الا عبر نهر صغير • ويوجد
بها عدد كبير من التجار المسلمين نظرا لأنها مركز تجارى هام •

ويهر النهر المشار اليه فيما سبق ، بالقرب من أسوار المدينة العامرة
بالأرز والسكر ، خاصة الملابس (أو الحلوى) المصنوعة وفقا لطريقتنا
(الإيطالية أو الأوروبية) • ويوجد هنا الجوز والتين ، على شاكلة ما هو
موجود فى كلكتا • والناس هنا وثنئون كما هو الحال فى كلكتا ،
ولا نستثنى الا المسلمين الذين يعيشون وفقا للشريعة الاسلامية • وليس
من المألوف هنا وجود الخيول والبغال والحمير ، وانما توجد الأبقار
والجواميس والخراف والثيران والماعز • ولا يوجد هنا غلال أو شعير
أو خضر ، وانما توجد أفضل أنواع الفاكهة فى الهند • وقد غادرت هذا
المكان وذهبت الى جزيرة أنزديفا Anzediva (٢٢) يسكنها مسلمون
ووثنئون • وتبعد هذه الجزيرة عن الساحل بنصف ميل ومحيطها حوالى
عشرين ميلا • وليس هواؤها طيبا جدا ، كما أن أرضها ليست خصبة •
ويوجد ميناء ممتاز بين الجزيرة والساحل ، وفى هذه الجزيرة التى
أشرت لها يوجد ماء عذب ذو طعم ممتاز •

(٢١) طرد عادل شاه البرتغاليين من جوجا Goa بعد أن استولوا عليها للمرة الأولى
سنة ١٥١٠ • وقد أبدى حماسا دينيا فائقا انطلاقا من وعى سياسى وبعد أن كان عادل
شاه قد اعتنق المذهب الشيعى وجعله الدين الرسمى (الوطنى) عاد مرة أخرى فغير
آراءه ليهدىء من المعارضة الخطيرة التى أبداهها السنة المتحمسون ورفضهم لردته (أى تحوله
للمذهب الشيعى) - (بادجر) •

(٢٢) هى جزيرة تبعد عن ساحل كنارا الشمالية North Canara بميلين • ويبلغ
طولها حوالى الميل ، وهى من بين الممتلكات البرتغالية وتبدو صخرية من الخارج الا أن لها
جانبها المبهج من الجانب الآخر ، حيث حصنت بسور وبعض الأبراج « (انظر :
(Horsburgh's Directory, Vol. I, p. 507).

وقد استولى البرتغاليون عليها سنة ١٥٠٥ • وقد بالغ فارتيمو كثيرا فى ذكر أبعادها -

(بادجر) •

المقاطعات الهندية : سنتاكولا وأونور

ومانجولور ، وهي مناطق هندية رائعة

بعد مغادرتنا جزيرة أنزديفا Anzediva التي أشرت لها في الفصل السابق ، وصلنا إلى سنتاكولا (٢٣) Centacola التي تبعد يوما واحدا عن الجزيرة . وحاكم سنتاكولا ليس غنيا جدا . وتوجد هنا كميات كبيرة من لحوم البقر والأرز ، والفاكهة الطيبة الشائعة في الهند . ويوجد في هذه المدينة عدد كبير من التجار المسلمين . وحاكم هذه المدينة ونى . وأهاليها سود ، شيع سوادهم بالصفرة ، وهم عراة وحفاة ورءوسهم عارية . وحاكم سنتاكولا تابع للملك بيناكالا Bethacala . وقد غادرنا سنتاكولا ووصلنا إلى أونور (٢٤) onor التي وصلناها بعد يومين من مغادرة المدينة السابقة ، وملك أونور الوثني تابع للملك نارسينجا Narsinga ، وهو تابع

(٢٣) أميل إلى أن سنتاكولا هي أنكولا Uncola (التي أسماها هاملتون أنكالا ، واسماها بوشانان Buchanan أنكولا Ancola) وهي الموضع الرئيسي في أحد أسماء ولاية (أو مقاطعة) كانارا الشمالية البريطانية ، وهي مدينة تبعد عن بحر العرب أو شمال المحيط الهندي ، بميلين (انظر : Thornton's Gazetteer) وقد استغرق فارتيما يوما لبصل سنتاكولا من أنجديفا Angediva ، وتقع أنكولا على خط عرض ١٥° و ٥١° إلى الجنوب من هذه الجزيرة بخمسة أمال جغرافية . وقد جعل بوشانان المسافة ثمانية كوسات Cosses من أنكولا إلى سيداسيفاجور Sedasivghur ووصفها - أي أنكولا - بأن بها قلعة خربة وسوقا ، وسكانها قليلون « لأن السكان في هذا المكان لا يتجمعون في أعداد كبيرة ، وإنما تجدهم منتشرين في القرى والمزارع . وفي منتصف الطريق بين جوكرنا Gaukarna وأنكولا التي تبلغ ثلاث كوسات Cosses يقع جنجاوالى Gangawali وهو خليج صغير مالح الماء ومصبه تجاه البحر ضيق ، إلا أنه يشكل بحيرة على الساحل يبلغ عرضها ما بين الميل ونصف الميل . ويمكن للقوارب ذوات الحجم الكبير (Patemars) أن تتخطى الممر الضيق (الحاجز) وتصل في النهر مسافة ثلاث كوسات Cosses ولا يستخدم النهر في التجارة ، وتبدو شواطئه قاحلة رغم جمالها » (انظر : Pinkerton, Vol. VIII, 362, 756-7) .

(٢٤) هي هوناوار Honahwar أو الهينور كما أسماها ابن بطوطة أو هوناويرا Honawera كما أسماها بوشانان أو هونافر كما أسماها ولكز Honaver wilks وهي أونور Onore كما تعود الكتاب البريطانيون أن يطلقوا عليها ، وهي مدينة وميناء في ولاية كانارا الشمالية البريطانية . (وتقع إلى الجانب الشمالى للمصب الممتد أو عند الخليج الصغير الذى يستقبل عند طرفه الشمالى الشرقى نهر شيرافتي Sheravutty الهام الذى ينبع من الجبال الغربية Western ghats والبحيرة زاخرة بالأسماك التى يتم اصطيادها بكميات كبيرة للتجارة بها . وقد كان هذا الميناء فيما مضى مقرا لتجارة مزدهرة ولا زالت تجارة الفلفل وجوز الهند والفلفل betel-nuts والأسماك ، وغير ذلك ، خاصة عطر خشب الصندل الذى ينمو بكثرة هائلة فى التلال الصخرية » . (انظر : Thornton's Gazetteer) .

مخلص ، ويمتلك سبع سفن أو ثمانى لا تكف عن الابحار حول المنطقة ، وهو صديق كبير للملك البرتغال . أما عن ملابس أهل أونور فهم يسيرون عراة الا من أقمشة يلفونها حول خصورهم . ويوجد هنا أرز كثير ، كما هو مألوف فى الهند ، كما يوجد بعض الحيوانات كالخنازير وأيائل (جمع : أيل) Stags والذئاب والأسود ، كما توجد أعداد كبيرة من الطيور التى تختلف عن طيورنا (عن الطيور الأوروبية) ويوجد هنا أيضا كثير من الطواويس والبيغاوات . وتتوفر هنا لحوم الأبقار والأغنام بكميات كبيرة .

أما الورد والزهور والفاكهة فهى موجودة هنا على مدار العام . والهواء هنا منعش والناس أطول أعمارا منا (من الأوربيين) وبالقرب من ولاية (مقاطعة) أونور هذه ، يوجد مكان آخر يسمى مانجولور (٢٥) Mangolor كان به أكثر من خمسين أو ستين سفينة محملة بالأرز ، والسكان فى هذا المكان وثنيون ومسلمون .

أما عن أسلوب حياتهم وعاداتهم ولباسهم فهم لا يختلفون عن سكان أرزير التى سبق أن تحدثنا عنها ، وقد غادرنا مانجولور ، وذهبنا الى مدينة أخرى هى كانولور Canonor .

= وقد وصف ابن بطوطة الذى زار هوناوار Honahwar فى حوالى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ملامحها على النحو نفسه ، ونجده أيضا يقول ان نساء هذا البلد وكذلك كل نساء الهند فى المناطق الواقعة على الساحل لا يلبسن ثيابا مخططة ، فالواحدة مهن على سبيل المال تربط قطعة فماش حول خصرها ، وضع الجزء الباقى على رأسها وصدرها . والملك الحالى هو جمال الدين محمد بن حسن ، وهو أحد أفضل الأمراء . الا أنه نابع للملك كافر اسمه حوريب Horaib " « (انظر : Lee's translation, pp. 6-165) وقد بنى البرتغاليون فى القرن السادس عشر قلعة قوية هنا ، طردهم منها الراجا فى كانارا Rajah of Canara . وقد وصف هملتون المعبد الوثنى فى هوناوار ، ذلك المعبد الذى يزوره سنويا عدد كبير من الوثنيين . وعلى رمن ابن بطوطة كانت الغالبية العظمى من السكان مسلمين ، وكانوا يحفظون القرآن عن ظهر قلب - (بادجر) .

(٢٥) مدينة فى كانارا الجنوبية البريطانية تقع على الجانب الشمالى لصب نهر فرعى ينبع من الشمال الشرقى وبلتقى فى مصب واحد مع نهر نتراتتى Naitravutty الهام والذى لا تبحر فيه الا السفن الصغيره . . . وهى مدينة كبيرة يحيط بها من الشرق والغرب هذا النهران . اللذان يكونان معا مصبا . ومساكنها بشكل عام متواضعة ولا توجد بها منشآت عامة نستحق الذكر . ورغم أن مانجولور تعد مرفأ سببا الا أنها الميناء الرئيسى لمنطقة حيدر على Hyder Ali انظر : Thornton's Gazetteer وقد ذكر ان بطوطة الذى أسماها مانجرون Manjerun أنه « يوجد فى هذا المكان بعض أكبر تجار فارس واليمن . . . وملك هذه الأنحاء هو أعظم ملوك المالابار ، وبها حوالى أربعة آلاف تاجر مسلم » (انظر : Lee translation, p. 169) وكذلك نجد هملتون Hamilton يصفها بأنها « أعظم الأسواق فى كل ممالك (امارات) كانارى Canary dominions » (بادجر) .

كانونور

كانور (٢٦) مدينة كبيرة وجميلة ، يمتلك فيها ملك البرتغال قلعة حصينة جدا . وحاكم (ملك) هذه المدينة صديق كبير لملك البرتغال رغم أنه (أى ملك كانونور) وثنى (٢٧) . ويتم انزال الخيول المستوردة من

(٢٦) مدينة ومياه فى ولاية مالابار البريطانية British district of Malabar

ويقع على الشمالى الشمالى لخليج صغر مفتوح من ناحية الجنوب ، ولكنه محمى من ناحية بحر العرب بواسطة -رف عال abluif headland وهى عامره بالسكان . لا أن مبانها عر مستطاه . ومع هذا فيها مساكن كثره جيدة . حاصه تلك العائده الى اسره موبالى Mobali أو الاسره المساجه مالكة المدينة ويمثل مساء تجاريا هاما خاصة فى مجال العلف والعلال والأخشاب رجوز الهند » (انظر Thornton's Gazetteer

ويذكر هملدون أن البرتغاليين بنوا الحصن سنة ١٥٠٧ الا أن الاستيلاء على الجزيرة لم يسم على أية حال الا بعد هذا التاريخ . وقد طرد الهولنديون البرتغاليين منها فى حوالى سنة ١٦٦٠ وباعوها بالتالى لأسرة موبالى . ثم أوقعت (أى الجزيرة) فى يد السلطان تيبو Tippoو ثم استولى عليها الانجليز سنة ١٧٩١ بباده أيركرمى Abercrombie وذكر اسره موبالى Moplahs فى النفره السابعة يدفعى الى استنتاج استغنى آخر

للكلمة غر ما هو معروف . لابد انصرص ذلكان Duncan انها تسمى من Mahapilla التى معنى ابن المoha "Child of Mocha" « الواقعة فى شبه الجزيرة العربيه الى ودمت منها هذه الاسره لانه فى لغة المالابار كلمه Maha معنى مocha ، وكلمة بيللا Pilla معنى ابن . (انظر : Thornton's Gazetteer, sub Voce Malabar

الا أننى أمل الى أن هذا الاسم اما أن يكون بحرفيا للكلمة العربية « مفلح Muflih من الاصل العربى (ف ل ح) والتى تعنى الفالح أو المزدهر أو الناجح أو المنتصر . وهو معنى يمكن أن يطبق على هؤلاء الرجال المسلمين الأجانب فى الساحل الغربى للهند ، وقد تكون تسمية من الاصل العربى نفسه (ف ل ح) بمعنى الفلاح أو الزارع . وهذا يطابق عليهم أيضا ، فهم وفقا لما ذكره بوسان Buchanan نجار وفلاحون - (بادجر) .

(٢٧) ان ما حدث بعد ذلك سيجب أن فارتبما هنا قد استنى الأحداث فذكر ما حدث

بالفعل بعد سنج أو ثلاث من زيارته الأولى التى لابد أن تكون قد حدثت بين عامى ١٥٠٥ و ١٥٠٥ . فقد ظهر البرتغاليون للمرة الأولى عند كانونور بمياده بدرو العارز كابرال Pedro Alvarez Cabral فى ١٦ يناير سنة ١٥٠١ . وكانت النجربده البرتغالية التى قادها -ران دى نويفا Juan de Nueva فى نوفمبر من العام نفسه . وفى كلما الحالين (الحملة الأولى والثانية) فان السكان استنصوا الأجانب (البرتغاليين) بترحاب وعاملوهم أفضل معامله . بل ان الراجا Rajah نفسه عرض أن يؤمن لهم كميات كبيرة من المزن ومنطحات المنطقة بدلا من أن نهود سفنهم فارغة الى أوروبا . وفى سنة ١٥٠٢ أسس فاسكو دى جاما Vasso de Gama محطة نجارية هناك ، وقدم له الراجا فى العام السالى منزلا ، ودخل مع البرتغاليين فى حلف محموى ودفاعى ، الا انه يبدو أن القلعة لم تكن موجودة حتى سنة ١٥٠٧ . عندما قام دون فرانسيسكو دى ألميدا Don Francisco de Almeysa أول نائب للملك البرتغالى بالحصول على اذن بنائها فى الميناء حيث ترك لورنزو دى برتو Lorenzo de Britto معه ١٥٠ رجلا ، وسفينتين للبحار (للقيام بدوريات) حول الساحل . (انظر : Green's Collection of Voyages, Vol. I, pp. 48-60. (بادجر) .

بلاد فارس فى ميناء كانونور ويجب أن تعرف أنه يتم دفع خمس وعشرين
دوكات كرسوم جمارك عن كل حصان ، وبعد ذلك يتم ترحيلها برا الى
نارسنجا Narsinga . وفى هذه المدينة كثير من التجار المسلمين .
ولا تزرع الغلال والأعشاب ، ولا غير ذلك من المزروعات التى ألفناها فى
أوروبا ، فكل ما هو موجود هنا هو الخيار والبطيخ . ويقال ان الناس
هنا لا يأكلون الخبز ، وانما يأكلون السمك والأرز واللحم والجوز .
وسأحدثكم عن دينهم وعاداتهم عند الحديث عن كلكتا ، لان دينهم وعاداتهم
هى دين وعادات أهل كلكتا .

وتوجد هنا بهارات ، كالفلل والزنجبيل والهيل Cardamums
والشيب (٩) mirabolans (٩) وقليل من السن (أو القرفة) Cassia
وبوجه عام ، فكميات البهارات قليلة هنا . وليس للمدينة سور ،
ومساكنها بائسة . وتوجد هنا فاكهة مختلفة عن فاكهتنا الأوروبية وأعلى
منها جودة . وسأقارن بينهما فى الوقت المناسب . وقد أعدت المنطقة
اعدادا جيدا لمواجهة ظروف الحرب ، فيوجد بها عدد كبير من الخنادق التى
حفرها الناس بأنفسهم hollow places . ولدى ملك هذا البلد ٥٠٠٠٠
من النيرى (٢٨) Naeri يحاربون بالسيوف والتروس والسهام والأقواس
وبالمدافع artillery . وهم يسيرون حفاة وعراة الا من قطعة قماش
يلفونها حول أنفسهم ولا يغطون رؤوسهم الا اذا ذهبوا للقتال فعند ذلك
يضعون عمامهم حمر ذوات لفتين ويعقدونها (أى العمام) جميعا بطريقة
واحدة . وهم لا يستخدمون هنا الخيول أو البغال أو الجمال أو الحمير .
أما القبيلة فيستخدمونها أحيانا لكن ليس فى القتال . وسأحدثكم فى
الوقت المناسب عن الجهود التى بذلها ملك كانونور ضد البرتغاليين .
والحركة التجارية نشطة هنا ، اذ يصل كل عام الى كانونور ثلاثمائة سفينة
من مختلف بلاد العالم . لقد قضينا فى كانونور بضعة أيام ، ثم اتخذنا
طريقنا الى مملكة نارسنجا Narsinga وقد ظللنا مسافرين خمسة عشر
يوما فى اتجاه الشرق حتى وصلنا الى مدينة يقال لها بيسنجان Bisinegar

(٢٨) يذكر بوشنان : النير Nairs هم من السدرا Sudras الخالصين ، من
مالايالا Malayala ، ويدعون أنهم ولدوا جندا . . (خلقوا للقتال) . . وهم يشككون
الجهاز العسكرية للمالايالا ، وبهجتهم الكبرى فى امتلاك الأسلحة واستخدامها .
(انظر : Pinkerton's Voyage, VIII, 735-6.) (بادجر) .

بيسنجار ، وهي مدينة خصبة جدا

في مملكة نارسنجا بالهند

تتبع مدينة بيسنجار (٢٩) Bisinegar ملك نارسنجا ، وهي مدينة كبيرة ومحصنة بسور قوى • وتقع على جانب جبل ، ويبلغ محيطها ستة أميال ، ولها سور ثلاثي (أو ثلاثة أسوار متتالية ، سور وراء الآخر)

(٢٩) نارسنجا أو بيجاياناغار Narsinga or Bijayanagar أصبحت الآن مخربة (اعتقد أن الاسم الأخير هو الصحيح من الناحية الإملائية ومن ناحية ضبط الكلمة ، إلا أن الكتاب المحدثين وكذلك القدماء نسبيا ، يختلفون اختلافا كبيرا في طريقة كتابتها وضبطها) • وكانت نارسنجا فيما مضى عاصمة لمملكة برهما القديمة the ancient Brahminical Kingdom في كارناتك Carnatic التي كانت قبل الفتح الإسلامي لها بمند امتدادا كبيرا بن الملابار والسواحل الكوروماندلية Coromandel Coasts وتقع بن الساطيء النربي لنهر تونجا بورا Toongabura على خط عرض ١٩° ١٥' وخط طول ٧٦° ٠٠' وقد زارها عبد الرزاق • وكذلك نيكولو دي كونتي Nicolo de Conti الذي زارها في الفترة من ١٤٤٢ الى ١٤٤٥ ، كما وصفها بعد ذلك بحوالى خمس وعشرين سنة ، نيكيتين Nikitin وروايات هؤلاء الرحالة جميعا والتي طبعت في مجلد بعنوان India in the fifteenth Century والذي نشر ضمن منشورات Haklul Society - كلها (أى كل روايات الرحالة هؤلاء) تضافر في تأكيد ما ذكره فارتيما باختصار عن سعة وعظمة هذه المدينة التي كانت يوما عاصمة مشهورة ، وما ذكره عن فخامة بلاط ملكها • أما عن عدد الفيلة ، وقوتها وذكائها وجيش الراجا Rajah الكبير الذي قدره كونتي Conti بحوالى ٩٠.٠٠٠ مقاتل داخل المدينة وحدها - لحقد كان أيضا مثار اهتمام حاص للرحالة الأول • وفي الفترة التي زار فيها فارتيما هذه البلاد ، كانت ادارة الشؤون العامة في يد هيمراج Heemraj وهو أحد المسؤولين (الوزراء) الرئيسيين للدولة والذي أصبح الرضى على العرش عند موت الراجا سالف الذكر الذي ترك على العرش ابنه الصغير الذي سرعان ما مات ، فرتب هيمراج Heemraj الامور ليحفظ بالسلطة المطلقة لمدة أربعين عاما ، وقد خلفه في منصبه ابنه رامراج Ramraj ، وخلال فترة حكمه تحطمت قوة دولة بيجاياناغار Bijayanagar على يد تحالف ملوك الدكن المسلمين الذين قادوا معركة تاليكوتي Talikote ضدها في سنة ١٥٦٥ • وقد كتب فرشنا Ferishta قائلا : « انه منذ ذلك الوقت لم يستعد راجا raj بيجاياناغار (كتبها فرشنا : Beejnuggar) عظمته القديمة أبدا ، وخربت المدينة نفسها وهي الآن غير مأهولة بالمره ، بينما حاصر الزمادرة (جمع زمندار) Zamindar المنطقة ، وأصبح كل زمندار يدعى سلطة مستقلة في منطقته (ولايته) » وبعد حلول هذه الكارثة (الهزيمة) انتقل البلاط الى بناكوندا Pennaconda التي تبعد الى الجنوب من بلارى Bellary بحوالى تسعين ميلا ، حيث (فى بناكوندا) بقايا هذه الدولة القوية Powerful dynasty لا تزال موجودة تبعث على التأمل العميق في هذه العظمة الغابرة التي ظلت مستمرة حتى استولى أورنجزيب Aurungzib على هذه المنطقة في سنة ١٦٨٥ • وكانت بيجاياناغار على أية حال ، لا تزال مدينة كبيرة عندما زارها قبصر فردريك Scott's Ferishta Fredericke في سنة ١٥٦٧ • (انظر Vol. I, pp. 262-268 وانظر أيضا : Willk's historical sketches of the South of India, Calcutta, pp. 4-15). (بادجر) •

a triple circle of walls وهى عامرة بالبضائع ، وأرضها خصبة جدا ، وبها كل أنواع الأطعمة الشهية . وموقعها أكثر المواقع جمالا ، ولم أشهد هواء أرق ولا أطيب من هوائها ، وبها مواضع معينة للقنص وصيد الطيور وهى مواضع فى غاية من الجمال حتى انها - لفرط جمالها - ظهرت لى وكأنها فردوس ثان . وملك هذه البلاد وثنى وكذلك كل رعاياه . وهو ملك فى غاية القوة ويحتفظ بشكل دائم بأربعين ألف فارس .

ويجب أن تعرف أن الحصان الواحد يساوى على الأقل ٣٠٠ أو ٤٠٠ أو ٥٠٠ بارادى Paradi وبعض الخيول يتم شراء الواحد منها بمبلغ ٨٠٠ بارادى ، ويرجع ارتفاع ثمن الخيول الى أنها لا تستولد هنا ولا توجد أفراس هنا بأعداد كبيرة ، لأن الملوك الذين يسيطرون على الموانى لا يسمحون بجلبها الى هناك (الى هذه البلاد) ويمتلك ملك بيسنجر ٤٠٠ فيل وبعض الجمال العربية التى تعدو بخفة كبيرة . ولقد أتبع لى هنا أن أعابن بنفسى موضوعا جديرا بالاعتبار وهو ذكاء الفيلة وأدراكها وقوتها . سأذكر لكم أولا كيف يقاوم الفيل . عندما يذهب الفيل للمعركة يضعون عليه سرجا ، على النحو نفسه الذى يضع أهل مملكة نابولى Naples السروج على بغالهم ، ويثبت أهل بيسنجر هذه السروج على الفيلة بسلسلتين من الحديد تحت السروج مباشرة . وعلى كل جانب من جوانب السروج يوضع على الفيل صندوق خشبى كبير ومتين جدا ، يكمن فى كل صندوق من هذين الصندوقين ثلاثة مقاتلين . وعلى رقبة الفيل - بين الصندوقين - يضعون لوحا خشبيا عرضه نصف شبر Span ، وبين الصندوقين واللوح الخشبى يجلس رجل مفتوح الساقين (واضعا ساقا على كل جانب من جوانب الفيل astride) ، ويتحدث (أى الرجل) الى الفيل ، لأنه - أى الفيل - أكثر ذكاء من أى حيوان آخر فى العالم ، وكل الرجال السبعة فوق الفيل مسلحون بالاقواس والرماح والسيوف والسروج ، ويرتدون قمصانا مدرعة . وهم يسلحون الفيل أيضا خاصة رأسه وخرطومه ، فيثبتون فى خرطومه سيفا يبلغ طوله براكيان two braccia كما تبلغ سماكته وعرضه ، سماكة يد الرجل وعرضها . وبهذه الطريقة يحاربون ، ثم يشرع الرجل (المقاتل) الجالس على رقبة الفيل فى إصدار الأوامر له (للفيل) : للأمام سر ، خلفا در ، اضرب هذا ، كفى لا تضرب ، والفيل فى كل هذه الأحوال يفهم الأوامر كما لو كان انسانا . الا أنهم اذا ما شرعوا فى القتال ، فمن غير الممكن إيقافه لأن هؤلاء الناس يارعون جدا فى القذائف النارية fireworks ، كما أن الفيلة تهرب النار جدا ، الا أن هذه الحيوانات (الفيلة) - على أية حال - هى أكثر الحيوانات ذكاء وأدراكا ، وأقواها . وقد رأيت ثلاثة فيلة تسحب سفينة من البحر الى البر ، بالطريقة التى سأذكرها لك . عندما

كنت في كانون نور ، سحب بعض التجار المسلمين سفينة الى البر ، بنفس الطريقة التي يسحب بها المسيحيون سفنهم فهم (المسيحيون) يسحبون مقدم السفينة (القيدوم) أولا .

أما هنا فيضعون جانب السفينة أولا ، ويضعون تحتها ثلاث قطع خشبية ومن ناحية جانب السفينة المواجه للبحر ، رأيت ثلاثة أفيال تطأطأ رؤوسها وتدفع السفينة برؤوسها الى البر . ويقول كثيرون انه ليس للفيلة مفاصل (ركب) وحقيقة الأمر أن لها مفاصل لكنها منخفضة وليست مرتفعة كركب (مفاصل) الحيوانات الأخرى . وسوف أزيدك عن الفيلة حديثا ، فانائها أقوى من ذكورها وأكثر اعتزازا بالنفس ، وبعض انات الفيلة مصاب بالجنون . والأفيال التي ذكرتها لكم يبلغ حجم الواحد منها حجم ثلاث جواميس، وجلودها كجلد الجاموس ، وعيونها كعيون الخنازير، ويصل خرطوم الواحد منها الى الأرض ، وبخراطيمها تلك تضع الطعام والماء في أفواهها ، ففم الفيل تحت حنجرته Situated beneath their throat (؟) ، وهو (أى فم الفيل) في الغالب يشبه فم الخنزير أو سمك الحفش a sturgeon . وبخراطيم الفيلة مجوفة من الداخل وقد رأيتها مرات عدة تلتقط ببخراطيمها الكاترينو Quattrino من الأرض . وقد رأيتها تسحب ببخراطيمها فروع الأشجار التي لا يستطيع أربعة وعشرون رجلا من رجالنا (الأوروبيين) إسقاط الواحد منها وسحبه بجبل ، بينما ينسقطه الفيل ويسحبه بمجرد ثلاث هزات (دفعات) . وتوجد السننات التي يمكن رؤيتهما في الفك العلوي للفيل . وتبلغ طول الواحدة من أذن الفيل حوالى اثنين من الباليات two Palmi ، وأحيانا أطول من ذلك ، وأحيانا أقصر . أما سيقانها فهي أضخم عند الطرف السفلي منها عند الطرف العلوي . وقدم الفيل مستديرة كالصينية التي تقطع عليها اللحم ، وحول قدمه خمسة أطافر ، الواحد منها في حجم قوقعة المحار . وذيله في طول ذيل الجاهوسة ، أى حوالى ثلاثة بالميات Palmi وعليه قليل من الشعر المتناثر . وأنشئ الفيل أصغر حجما من الذكر . أما فيما يتعلق بارتفاع الفيل فقد رأيت كثيرا منها يبلغ ارتفاع الواحد منها ثلاثة عشر أو أربعة عشر بالمى . وقد ركبت فوق بعض الفيلة التي تبلغ هذا الارتفاع . ويقال ان هناك بعضا من الفيلة يبلغ ارتفاع الواحد منها خمسة عشر بالمى Palmi والفيلة تسير سيرا بطيئا جدا ولا يستطيع ركوبها من لم يعتد عليها . لأن ركوبها يربك الأمعاء على نحو ما يحدث للانسان عند السفر بحرا because it upsets their stomach, Just as it does in travelling by sea . وللفيل الصغير خطوة تشبه خطوة البغل ، وركوبه ممتهن . وعندما يشرع الانسان في ركوب الفيل يشئى احدى ساقيه الخلفيتين، وفوقها يصعد الى ظهره من يريه الركوب ، ويجب أن تساعد نفسك

أو يساعدك آخرون على ركوبه • ويجب أن تعلم أنه لا يوضع للفيل لجام •
ولا يربط بمقود (رسن) ولا يربط رأسه بأى شيء •

تناسل الفيلة

وعندما يريد الفيل الاتصال بأنثاه فإنه ينتحى بها فى مكان سرى ،
كان يذهب بها الى مياه مستنقعات معينة (٣٠) ثم يضاعفها كما يضاعف
الانسان أنثاه وفى بعض المناطق ، تعد أجزاء الفيل ، هى أفضل طعام يمكن
أن يقدم كهديّة للملك ، لأن الفيل يساوى فى بعض المناطق خمسين
دوكات ، ويساوى فى مناطق أخرى ألف دوكات أو ألفين • وأخيرا ، أقول
اننى رأيت بعض الفيلة لها من الذكاء والفطنة والفهم ، أكثر من أى بشر
قابلتهم • وملك نارسنجا Narsinga أغنى ملك تحدث الناس عنه •
وموقع المدينة يشبه موقع ميلان الا أنها ليست فى سهل من الأرض •
ويتخذ الملك مقره هنا ، وملكه يمتد ليشمل مساحة تساوى مساحة مناطق
نابلى والبندقية ، ويحد البحر مملكته من الجانبين • ويقول البرهميون
التابعون لمملكته his Brahmins (وهم رجال الدين فى مملكته) ان
عائده اليومى ١٢٠٠٠ باراداي Paradai • وهو فى حرب دائمة مع
الملوك المسلمين والوثنيين • وهو وثنى يعبد الشيطان كما هو الحال فى
كلكتا •

وسأحدثكم عن كيفية عبادتهم للشيطان عندما يحين الوقت المناسب •
وهم يعيشون عيشة الوثنيين • أما عن لباسهم ، فالرجال ذوو الوضعية
الاجتماعية العالية يلبسون قمصانا قصارا ، ويضعون على رؤوسهم أقمشة
حريرية موشاة بالذهب على النمط الاسلامى ، الا أنهم حفاة ، أما الناس
العاديون فيسير الواحد منهم عاريا الا من قطعة قماش حول خصره • ويضع
الملك على رأسه تاجا من ذهب يبلغ طوله (ارتفاعه) شبرين وعندما
يذهب للحرب يلبس ثوبا محشوا بالقطن (كاللحاف) وفوق هذا الثوب
يلبس ثوبا آخر (عباءة) مملوءا (محشوا) بالببزووات (القروش)
الذهبية Golden piasters ويحيط كل ملابسه بالمجوهرات من مختلف
الأنواع • وحصان الملك أغلى ثمنا من بعض مدننا نظرا لما عليه من زينة
ومجوهرات • وعندما يركب الملك حصانه بغية النزهة فإنه يكون مصحوبا
بثلاثة ملوك تابعين له أو أربعة ، وكثيرين من النبلاء وخمسة آلاف حصان •
لذا يمكن اعتباره حاكما قويا جدا • أما العملة السائدة فى مملكته فهي
البارداو Pardao ، ولديه عملة فضية أيضا هى التار Tare بالاضافة
لعملات ذهبية صغيرة هى الفانوم fanom ، والعشرون فانوم تساوى

بارداو واحدا ، كما أن سنتين تار تساوى يارداو واحدا • وتوجد عملة أخرى هي الكاس Cas ، ستون منها تساوى تارا فضيا واحدا (٣١) ويمكنك أن

عملة ذهبية	عملة ذهبية
فارتيم (١٥٠٤ - ١٥٠٥ م)	عبد الرزاق (١٤٤٣ م)
.....	فاراه Varaha = ٢ ينار ، كوبيكي
.....	Kopeki برتاب Pertab = ٢ فاراه
بارداو ١٠٠٠	فانوم = ١٠/١ البرتاب
نانوم = $\frac{1}{100}$ بارداو (فضة)	(فضة خالصة)
نار = ١٥/١ من الفانوم (نحاس)	نار = ١/٦ فانوم (نحاس)
الكاس = $\frac{1}{10}$ من التار الفضي (وهو	جيتل Djitel = ٢ تار
يساوى الكاترينو البندقى Quattrino	

(٣١) فيما بلى متارنه بن العملة الهندية Hindu Coins السائدة فى بيجاياناچار = وفيتمها النسبية كما ذكرها عبد الرزاق وفارتيم •
والفاراه Varaha ونصف الفاراه كان يسميها الكتاب المسلمون بعد ذلك باسم الهن Hun . أما الأوربيون فاسموا باجودا Pagoda وهذا الاسم الأخير اشتقه البرتغاليون من المعبد الهرمي المرسوم على أحد وجهي العملة • أما عبد الرزاق فقد ذكر الفاراه Varaha وبرتاب Pertab باعتبارهما الباجودا Pagoda والباجودين Single & double pagoda بعد ذلك بفترة من الزمن (أى الباجودا والباجودين) • ولم يذكر فارتيم أى شيء عن الفاراه ، إلا أنه نظرا لأنه - أى فارتيم - قد جعل البارداو Padao يساوى عشرين فانوم ، سما كان عبد الرزاق قد جعله يساوى عشرة فانومات فقط - لذا فمن المحتمل أن يكون البارداو الذى ذكره (أى فارتيم) مساويا للفاراه Varaha أو ضعف الباجودا • وهنا يبدو أن العملات الذهبية فى دولة بيجاياناچار Bipayanagar لم يدخل عليها تغيير مادي فى غضون نصف القرن الذى يمثل الفارق الزمنى بين رحلتى الرحالين •

أما العملة الفضية فلا بد أنها كانت تتداول بكثرة لأنه بينما وجدنا عبد الرزاق يجعل الفانوم مساويا لستة تارات Tars فقط ، فإن فارتيم يجعله مساويا لخمس عشرة تارا • وربما كان التار الذى ذكره فارتيم من معدن أدنى قيمة من معدن التار الذى ذكره عبد الرزاق خاصة وأنه أى عبد الرزاق قد ذكر أنه من الفضة الخالصة •

وثمة تباين كبير بين الرحالين فيما يتعلق بالنقود النحاسية ، ويكفى حقيقة أن أشهر إلى الاستدلال الذى مؤداه أن الجيتل Djitel والكاس Casa عملتان مختلفتان ، ولأننى لست خبيرا فى علم النميات ، لذا فانه يتحتم على أن أترك الاختصاصيين لحل هذا التناقض • ولقد قدم برينسب prinsep مساعدة هزيلة فيما يتعلق بالعملات الهندية القديمة فى منطقة كارناتك Carnatic

ومن الجدير بالذكر أن عبد الرزاق وفارتيم لم يذكر الكوارى Cohrie كجزء مهم لنظام العملة • وقد ذكره ابن بطوطة باسمه العربى : الودع وذكر أنه يجمع من جزر المالديف ، ويرسل بكميات كبيرة إلى البنغال حيث يستخدم فيها (فى البنغال) أيضا كبديل للنفود • (انظر : Lee's tran lation, p. 178)

أما حديث نيكولو دى كونتى Nicolo de Conti عن العملة الهندية فى أيامه فهو =

تذهب الى أى مكان فى هذه المملكة بأمان ، الا أنه من الضرورى أن تحترس من بعض الأسود فى الطريق .

ولن أحدث عن طعام هؤلاء الناس الآن ، لأننى سأصفه عندما أصل الى كلكتا حيث تشيع نفس العادات ونفس أسلوب الحياة . وملك هذه البلاد صديق كبير للمسيحيين ، خاصة ملك البرتغال فهو لا يعرف كثيرا عن مسيحيين آخرين وعندما يصل البرتغاليون لبلاده يستقبلونهم بترحاب . وبعد أن مكثنا فى هذه المدينة العظيمة ثلاثة أيام عدنا الى كانونور ، وبعد أن وصلنا اليها بعد ثلاثة أيام ذهبنا برا الى مدينة تورما باتانى Torma-Patani .

تورما باتانى وباندارانى وكابوجاتو

تبعد تورما باتانى (٣٢) Tormapatani عن كانونور ، اثني عشر ميلا ، وحاكها وثنى ، وأرضها ليست خصبة جدا وتبعد عن البحر ميلا واحدا ، وبها نهر ليس ضخما جدا . ويوجد هنا سفن كثيرة للتجار المسلمين . ويعيش الناس هنا عيشة بائسة وأعظم ثروات هذه المنطقة تتمثل فى جوز الهند Indian nuts التى يأكلونها مع قليل من الأرز . وتتوفر هنا بكثرة أخشاب لبناء السفن . ويوجد هنا حوالى ١٥٠٠٠ مسلم وهم رعيا لسلطان وثنى . ولن أحدث الآن عن أسلوب حياتهم ، فسأتناوله عند الحديث عن كلكتا ، لان الناس هنا لهم عقائد أهل كلكتا وأسلوب

= حديث هام وغير كاف . فهو يقول : « فى بعض مناطق الهند كان الدوكات البندقى متداوليا مضى . وكانت العملة الذهبية التى تزن ضعف الفلورين Florin ، والنى تزن اقل من الفلورين سألده فى بعض المناطق . وتوجد بالاضافة لهذا النقود الفضية والنحاسية . وفى بعض المناطق تستخدم قطع الذهب ذات الوزن المحدد ، كعود » (انظر : India in the 15th Century, II, p. 30.

(٣١) تورماباتانى هى بدون شك التى أسماها هملتون دورماباتام Dormapatam . وهى ميناء بالقرب من نهر تليشerry Tellicherry التى تقع الى الشمال قليلا من تورماباتانى وهى ما افترض أن غارتيجا يشير اليها (دورماباتام) ، وقد أسماها باربوسا Barbosa ، ترماباتانى Termapatani " وذكر أنها تقع على نهر له مصبان على البحر ، ويسكنها بشكل أساسى الموبلاى Mupulars (Moplahs) وهم تجار كبار ، وهى حد مملكة كانونور من ناحية كلكتا (فى اتجاه كلكتا) (انظر Rumusio, Vol. I, p. 335) والمناطق المجاورة لها ذات انتاج وفير ، والأراضى المنخفضة تنتج محصولين من الارز سنويا ، وفى بعض المناطق ثلاثة محاصيل . كما تنمو نخيل جوز الهند بوفرة . ويعد عدد السكان بعشرين ألف ، غالبهم من الموبلاء المسلمين (انظر Thornton's Gazetteer) وأميل الى أن جرافاتان Jara-fatfan او بارافسان Badafattan هما بين هيل Hill وكلكتا من ناحية ودورميتان من ناحية أخرى ، او كما كتبها بالدوس Baldaeus ، رماباتان termapatan . اما هيل Hill فأميل الى أنها اولالا Ulala التى وصفها بوشانان Buchanan بأنها مدينة كبيرة على الجانب الجنوبى لبحيرة مانجالور Mangalore ، التى كانت فيما مضى مقرا (عاصمة) لأمير صغير .

(انظر : Pinkerton's Voyage, Vol VIII, p. 747.

حياتهم • والمسكن هنا غير جيدة ، اذ يساوى الواحد منها نصف دوكان
كما سأوضح لك فيما بعد • وقد مكثنا هنا يومين ثم غادرنا • وذهبنا الى
موضع يقال له باندارانى (٣٣) Pandarani . يبعد يوما عن تورما باتانى،

(٣٣) باندارانى Pandarani وكذلك كابوجانو Capogatto الى سيرد ذكرها في
المن بعد ذلك ، قد اخفقتا من الخرايط المعاصرة ، واذا لم يكونا هما : واداكار
Waddakarre ويكودي Tikodi ، فان البحث عنهما يجب ان يكون بقرب هذين
الموضعين ، اللذين وجدت الرحالة القدماء قد كتبوهما بطرق مختلفة • فقد كتبهما هملتون
Burgara و Cottica ، وعن هذه الأخيرة كويكا كتب أنها « صخرة الاضاحى
Sacrifice Rock التى تمتد ثمانية أميال فى البحر » وهى - بلا شك ما قال عنها فارتينا
"insula deshabitata" اما دنيل D'Anville فقد كتب عن Bergare و Cotta
وقد كتب بوشنان Buchanan الأولى ، هكذا Barrygurry أو Vadacurry
أما أروسمث Arrow Smith فقد كتب Cotta هكذا Kotacull ، ولا نهاية لهذا
الاختلاف المربك • الا ان المكائين - على أية حال قد ذكرهما بوصوح بالدبوس Baldaeus
عند حديثه عن الوجود البرى على الأول فى ساحل المالابار ، « بين كانونور و كلكتا تقع
مدينه بانان Panane على الساحل ٠٠٠ وكان السموين Sammoryn قد اتخذ هذا
المكان مقرا لافامته عندما وصل فاسكو دى جاما الى هذه الأنحاء ٠٠٠ وقد أرسل السموين
بعض المرشدين ليدل الأسطول البرتغالى الى ميناء كابوجيت Capogate حيث يوجد مرقا
أفضل وأكثر أمنا (انظر Churchill's Collection of Voyages, Vol. III, p. 625)
وثمة نص آخر عن هذه الزبارة التى تمت سنة ١٤٩٨ تذكر أن دى جاما وصل الى
البر عند باداران Padarane وأنه واصل ابصاره بعد ذلك الى Kapokats
حيث استراح بحارته • (انظر : Green's Collection, Vol. I, pp. 30-31)
ومذا الموضع (باندارانى Pandarani أو بانان Panane) يجب ألا نخلطه بموضع
آخر ذكره فارتينا وهو بانان Panani ، الى الجنوب من كلكتا ، وهو نفس الموضع
الذى كتبه ثورنتون • يونانى ponany •

وقد ذكر باربوسا Barbosa أيضا بانديرانى Panderani الواقعة بين كانانور
وكلكتا وقال ان سكانها مسلمون ، وانها مرقا كبير للسفن ، الا أنه جعل موقعها الى الجنوب
من كابوجانو Capogatto ، بينما تحدث فارتينا عن باندارانى الواقعة الى الشمال من
كابوجانو • واعتقد ان هذا المناقض الظاهرى يرجع الى التماثل فى اسمى الموضعين
(موضعين باسم واحد) فكابوجانو التى وصفها باربوسا ذكر أنها تقع على بعد اثني عشر
ميلا على نهر نارما باتان Tarmapatam ، بينما كابوجانو التى يتحدث عنها فارتينا يذكر
أنها ميناء ولا تبعد عن كلكتا بأكثر من أربعة فراسخ • وهنا لا أجد صعوبة فى التعرف
عليها من خلال حديث باربوسا عن كابوكار Capucar التى تقع كما ذكر هو الى الجنوب
من كلكتا بأربعة فراسخ • وقد ذكر عنها : « خلف باندارانى يوجد موضع آخر على نهر
سمى كابوكار ، يسكنه (أى الموضع) مسلمون كثيرون وهم من أهل البلاد ، وه كثير
من السفن ، والمسلمون هنا يتاجرون فى بضائع المنطقة تجارة هائلة ٠٠٠ والى الخلف
من هذا الموضع بسبعة أميال نوجد كلكتا » (انظر Ramusio, Vol. I, p. 311)

ونجد فى رواية باربوسا عن هذا الجزء من الساحل كما ذكره راموسيو Ramusio
عدة ثغرات ترجع بوصوح الى خلل فى المخطوطة الأصلية • وفيما بلى قائمته بالمواضع والبلدان
- على التوالى - بين كانانور وكلكتا : كانانور ، كريكات Crecate ٠٠٠ تارما باتام ، تركودي
Tircori ، بانديرانى ، كابوكار ، كلكتا •

وهي تابعة لملك كلكتا . وهي مكان بائس ولا ميماء له ، وفي مواجهة بانداراني على بعد ثلاثة فراسخ في البحر ، توجد جزيرة غير مأهولة .
 واسلوب حياة اهل بانداراني وعاداتهم هي نفسها الموجودة في كلكتا .
 وهذه المدينة (بانداراني) غير مستوية وارضها مرتفعة . وقد غادرناها وذهبنا الى هونسلو آخر يسمى كابوجاتو Copogatto تابع أيضا لملك كلكتا . وفي كابوجاتو قصر رائع ، مبنى على الطراز القديم ويوجد الى الجنوب نهر سنير ، وتبعد هذه المدينة عن كلكتا بأربعة فراسخ . وليس لدى ما أقوله هنا فأحوال الناس وعاداتهم تشبه ما هو موجود في كلكتا ، كما لن أكتب عن أسلوب الحياة والعادات والمقائد والقضاء واللباس ، ولا عن شيسافول Chivaval ودابول Dabul وبثاكال Bathacala ولا عن ملك أونور Onor ولا منجالور Mangalor ، ولا كانونور ، ولا عن ملك كوشن Cucin ولا عن ملك كيكولون Caicolone ولا عن ملك كولون Colon ، ولا عن ملك نارسنجا Narsinga

أما الآن فسأحدثكم عن ملك كلكتا لأنه أهم من كل الملوك المذكورين آنفا ويسمى ساموري (٣٤) Samory وهي كلمة تعني في لغة الوثنيين « الاله على الأرض "God on earth" » .

= ورغم أن وصف فارتيما مختلف اختلافا كبيرا ، الا أنني أميل الى أن بانداراني التي ذكرها هي فانداريننا Fandaraina التي ذكرها ابن بطوطة والتي حظ رجاله فيها قبل أن يصل الى كلكتا من الشمال » .

(انظر : Lee's translation, p. 171)

(٣٤) الكلمة الانجليزية Zamorin . وفقا لما يقوله البعض ، تحريف لكلمة Tamuri التي تطلق على أكثر أسرات طبقة النير Nair Caste أهمية . يقول بوشانان : « يدعى التاموري أنهم من طبقة أرقى من البرهما Brahmins وأنهم لا يقلون عن أحد أبدا الا الآلهة التي لا يراها أحد ، ويقر أتباعهم ذلك ، الا أن البرهما يعتبرونه ادعاء سخيفا ومقيتيا ، ولا ينظرون اليهم الا على أنهم سدرا Sudra (انظر : Pinkerton's Voyage, Vol. VIII, p. 835) وهناك آخرون يجعلون

هذا الاسم مشتقا من Zamoodin التي تعني البحر ، اي أن 'Zamorin of Calicut' تعني « سادة البحر (the lord of the Sea) (بادجر) » .

السفر السادس

وهو السفر الثاني عن الهند

بعد أن وصلت بالقارىء - تقريباً - الى رأس الهند ، كما يقال ، وهو الموضع الذى تتجلى فيه أقصى درجات عظمة الهند ، ظهر لى من الملائم أن أبدأ كتاباً ثانياً لأطرح أمام القراء بفئاتهم المختلفة أموراً فى غاية الأهمية ، كما أنها أمور ممتعة ذهنياً ، بالإضافة الى أنها تشكل حافزاً يزيـد من شغفنا بالرحلة حول العالم ، ويزيد من معارفنا التى تخدم أهدافنا ، تاركين كل شىء - على أية حال - لحكم الرجال الذين ربما زاروا بلداناً أكثر من تلك التى زرتها .



كلكتا ، المدينة الهندية الواسعة جداً

كلكتا (١) مدينة على الساحل ، يضرب البحر بأمواله حوائط منازلها ، وليس لها ميناء ، وإنما يوجد الى الجنوب بحوالى ميل ، نهر ضيق عريض مصبـه ، لا يزيـد ارتفاع الماء فيه عن خمسة أشبار أو سبعة . وهذا النهر يمر خلال كلكتا وله فروع كثيرة . وليس لكلكتا سور ، وتمتد مساكنها نحو ميل ، وهى مساكن متلاصقة ، ثم تأتى المنازل الواسعة ، وهذه متباعدة بعضها عن بعضها الآخر (٢) ، وتغطى مساحة تبلغ حوالى

(١) كلكتا ميناء فى ولاية مالابار البريطانية The British district of Malabar « وتقع على ساحل مكشوف حيث لا نهر ولا مرفأ . وإنما يرسو السفن فى عرض البحر » فى البحر المكشوف open beach ويقال ان المرفأ كان رحاً واسعاً يوماً ما الا أن الرمال تراكمت فيه وقد تحدث فوربز Forbes الذى زاره سنة ١٧٧٢ بأبعاسه مرفأ ليس به الا هليل مما يثير الرحالة ، فلس فيه الا عدد من الأكواخ المنخفضة المسفوفة بأخشاب أشجار جوز الهند Cocoa nuts على الساحل الرملى « Thornton's (Gazetteer) وقد وصف ابن بطوطة كلكتا بأبعاسها إحدى أعظم الموانئ فى منطقة مالابار « وقد وصفها نيكولو دى كودى Nicolo de Conti « كمدينة بحرية . محيطها ثمانية أميال ، وهى سوى كبير ، لكل الهند « كما وصفها عبد الرزاق بأبعاسها « ميناء آمن تماماً يشبه ميناء هرمز ، يردّه تجار من كل المدن ومن كل البلاد » .

(٢) يطلق الانجليز الهنود Anglo-Indians على هذه المنازل ذات الباحات المكشوفة حولها اسم : houses with Compounds .

ستة أميال • والمساكن هنا بائية جدا ، وجدرانها في ارتفاع رجل يركب حصانا ، وغالبها غطيت سقوفه بأوراق النباتات وليس لهذه المنازل غرف علوية ، والسبب في ذلك أنهم عندما يحفرون في الأرض الى عمق أربعة أشبار أو خمسة يجدون ماء ، لذلك لا يستطيعون بناء منازل ضخمة (٣) • وعلى أية حال فإن منزل التاجر يساوى خمسة عشر دوكات أو دوكتين في أقصى تقدير •

ملك كلكتا ، ودين شعبه

ملك كلكتا وثني Pagan ، وعبادة الشيطان worships the devil هي السائدة على النحو الذى سنذكره لك • فهم يعرفون أن هناك الها هو الذى خلق السماء والأرض وكل العالم (٤) وهم يقولون ان الله اذا أراد أن يقضى عليك أو على هذا أو ذاك ، فإنه لا يسعده كاله - فى هذه الحالة - أن يفعل ذلك ، لذا فهو يرسل روحه التى هى الشيطان الى العالم لتحقيق قضائه ، وبالنسبة له (الله) فإن من يفعل خيرا ، يجازيه الله بالخير ، ومن يفعل شرا يجازيه بالشر • ويسمون الشيطان ديمو Deumo (٥) أما الاله (الله) فيسمونه تاميراني Tamerani (٦) • ويحتفظ ملك كلكتا بالشيطان ديمو فى معبده his chapel بقصره ، على هذا النحو : يبلغ عرض معبده خطوتين

(٣) ذكر فارتيما فى فصل لاحق ، السبب نفسه لتعليل انخفاض قصر زامورين (فى كلكتا Zamorin وعدم فخامته •

(٤) « أنهم جميعا يعتقدون فى وجود اله أعظم a great God الا أنهم لم يستطيعوا تصور هيئته ، كما أنهم لم يصنعوا له تمثالا » هاملتون •

(٥) « الكلمة Dev تعنى - بشكل غير واضح - موجودا (أو ساكنا dweller) فى العوالم العلوية upper Worlds ، كما تعنى - بشكل أكثر تخصيصا - أحد ساكنى السويرجا Swerga ، وهى الفردوس التى تحكم منها الهند • وتتحدث الكتب المقدسة الهندوسية عن مائة وثلاثين مليون من ال Devs ، لكنها - أى هذه الكتب عندما تتحدث عن الله (أو الرب God) فإنها لا تقصد الا موجودا واحدا فقط

the term can only apply to one being

(انظر : Forbes's Ras Mala, Vol. II, pp. 423-442.

وقد فرق فارتيما بين مصطلحي (الديافولو Diavolo) و (الشياطين Sathanas) لقد جعل الشياطين شخصيات علوية héigher personage بشكل واضح • الا أنه مما يدعو للدهشة أن فارتيما قد قدم لنا - مع شيء من التجاوز - معلومات صحيحة عن أصل الآلهة وتعدادهم وعبادتهم عند الهندوس •

(٦) تامارين Tambaran التى تعنى السيد أو الزعيم ، هى كلمة شائعة كالتب من ألقاب السيادة والتشريف فى المالابار - بين أفراد الطبقات العليا لجماعة النير Nairs .

فى جهاته الأربع ، ويبلغ ارتفاعه ثلاث خطوات ، ولهذا المعبد باب خشبي مغطى بـصور الشياطين المنقوشة بالحجر البارز (V) *Cavved in relief* وفى وسط هذا المعبد يوجد شيطان منحوت من المعدن جالس على معدن مصنوع من المعدن كذلك . ولهذا الشيطان تاج مصنوع على شاكلة تاج المملكة الباباوية *The Papal Kingdom* ولهذا الشيطان ثلاثة تيجان ، وله أيضا أربعة قرون وأربعة أسنان ، وفم واسع جدا وأنف ضخم ، وعينان مرتبطتان للناحية . أما اليدين فمصنوعتان بطريقة تجعلهما مسيحيين بخصائص اللحم *flesh-hook* أما قدماه فشبيهتان قدمي (أصابع) الديك ، لذا منتظره مربع وكل الصور حول هذا المعبد سالف الذكر تمثل شياطين *Devils* وعلى كل جانب من جوانبه توجد الشياطين *Sathanas* وقد جلست على مقعد وضعت فى لهب النار ، حيث يوجد أعداد كبيرة من الأرواح ، وقد صور لهب النار فى صول الأصبع ونصف الأصبع . ويقبض الشيطان سالف الذكر على إحدى الأرواح فى فمه بيده اليمنى ، وعلى روح أخرى بيده اليسرى تحت خصره . وفى كل صليب يقرؤم البرهمنيون *Brahmins* وهم بمثابة الكهنة (أو رجال الدين) بغسل هذا الصنم (الشيطان) من مختلف جوانبه بالماء المعطر ثم يسكبون عليه العطر الخالص ثم يتعبدون له (يصلون له *worship it*) وفى بعض الأحيان يقدمون له خلال الاسـجـوع أضحية ، بالطريقة التالية : ان لديهم منضدة صغيرة خاصة ، صنعوها وزخرفوها على شاكلة مذبح الكنيسة *altar* ، يبلغ ارتفاعها عن الأرض ثلاثة أشبار ويبلغ عرضها أربعة أشبار ، ويبلغ طولها خمسة أشبار ، وهى مزخرفة بالزهور والورود وغير ذلك من الزخارف ، بطريقة جيدة تماما . وفوق هذه المنضدة يضعون دم الديك والفحم المشتعل فى آنية من الفضة ويصبون فوقهما (دم الديك والفحم المشتعل) كثيرا من العطور (والبخور) . ولديهم أيضا مبخرة ينشرون البخور بواسطتها حول المذبح (المنضدة) أنف الذكر . ولديهم جرس صغير من الفضة يقرع بشكل سريع المتتابع ، ولديهم سكين فضية يذبحون بها الديك

(V) ينسب رجال الدين الكبار المعابد ، إلا أننا لمست ضخمة ولا جميلة وكل صورها سوداء وبشعة وفقا لنجيلهم للآلهة الشيطانية *the infernal gods* التى يعتقدون أن لها بعض السلطة فى حكم العالم ، خاصة فى المواسم المعتدلة والمواسم المؤذية مما يؤثر فى مواسم الحصاد ، أو القحط والجفاف ، لذا فهم فى كل موسم من هذه المراسم يذبحون بعبادة خاصة لها (أى لهذه الآلهة الشيطانية) .

(انظر : *Pinkerton's Voyages, Vol. VIII. p. 376.*)

وتدل عبارات *Hamilton* على أنه - مثل فارنيسا - قد فهم مصطلح *devs* كمرادف لمصطلح *Devils* .

ويدهنونها بالدم ، وفى بعض الأحيان يضعونها على النار ، وفى أحيان أخرى يأخذونها ويقومون بحركات شبيهة بتلك الحركات التى يقوم بها شخص يجمع أن يبارز ، وأخيرا يحرقون كل الدم المراق من الديك ، وتظل الشموغ موقدة طوال الوقت . ويضع رجل الدين الذى يجمع القيام بطقوس الأضحية حول ذراعيه ويديه وقدميه بعض الحلقات (الأساور) الفضية التى تحدث أصواتا عالية جدا كأنها أجراس ، ويضع حول رقبته حجابا (تعويذة) لا أدرى عنها شيئا ، وعندما ينتهى من طقوس الأضحية يملأ يديه الاثنتين بالحبوب ويتراجع عن المذبح (المنضدة) سالفة الذكر ، ويسير للخلف وهو ينظر دوما للمذبح المتسار اليه ، حتى يصل الى شجرة بعينها ، وعندما ينثر الحبوب من فوق رأسه على الشجرة ويجعلها - أى الحبوب - على أعلى الشجرة بقدر ما يستطيع ، ثم يعود بعد ذلك ، وينقل كل ما هو موضوع على المذبح (المنضدة) (٨) .

كيفية تناول ملك كلكتا طعامه

عندما يرغب ملك كلكتا فى تناول طعامه ، فانه يتبع العادات التالية : يجب أن تعرف أن على أربعة من البرهمنين ذوى المكانة أن يأخذوا الطعام الذى سيأكله الملك ويحملوه للشيطان the devil ثم يتعبدوا له (يصلوا له) فى البداية ، بالطريقة التالية : يضع الواحد منهم يديه متشابكتين فوق رأس الشيطان ثم يقبضها اليه (أى الى شخص البرهمى) وهما متشابكتان ، وقد جعل أصبع الايهام مرتفعا الى أعلى ، ثم يقدمون له (أى للشيطان) الطعام الذى سيقدم للملك ، ثم يجلسون على هذه الحال مدة تكفى ليتناول فيها الشخص طعامه ، وبعد ذلك يذهب البرهمنون السالف ذكرهم بهذا الطعام الى الملك ، ويجب أن تعلم أنهم يؤدون هذه الطقوس بهدف توقير الوثن (وثن الشيطان) فحسب ،

(٨) لم اكن قادرا على التحقق من هذه الطقوس الخاصة ، الا انه من المعروف بشكل عام أن الاضحيات الحيوانية Animal Sacrifices بحمل الى حد كبير أن تكون لارضاء البوتيا Bhuta او الأرواح الشريرة ، وهذه الاضحيات يقدمها البرهمنون على اختلاف مذاهبهم . ومن بن الاضحيات التى يقدمها الهندوس فى مبسوري Mysore - بكثرة يذكر أبى دبو Abbé Dubois الحواميس ، والخنازير والكباش والدوك ، وما الى ذلك ومن المحتمل أن يكون المقصود بالحجاب (التعويذة) الذى أسماه فارتيما باسم بنتاكولا Penta Cola - هو الأساور البرهمية المسماة بونوب poonoeb .

بأظهار أن الملك لن يأكل طعامه إلا إذا قدموه لديمسو Deumo
أولا (٩) •

ويوضع الطعام في آنية خشبية بها ورقة شجر كبيرة حيث يكون
الطعام الممنوع من الارر وعيره فوق ورقه الشجر هذه • ويتناول الملك
طعامه على الارض دون مائدة أو غيرها ، ويكون البرهميون واقفين
حوله على بعد ثلاث خطوات أو أربع ، وقد أبدوا له كل مظاهر التبجيل
والاحترام ، ويظلون منحنين عاكدين أيديهم أمام أفواههم ، ومن غير
المسموح لأى واحد منهم بالكلام أثناء تحدث الملك وانما يقفون مصغيين
لكلماته بتوقير شديد • وعندما ينتهى الملك من تناول وجبته يأخذ
البرهميون سالفو الذكر ما تبقى من طعام الملك ويحملونه الى ساحة القصر
ويضعونه على الأرض ، ثم يقوم البرهميون بالتصفيق بأيديهم ثلاث مرات
فيتجتمع عدد كبير من الغربان السود فيلتهمون هذا الطعام • وقد درب
البرهميون هذه الغربان لهذا الغرض ، وهى غربان حرة تطير حيثما
يحلوا لها ، ولا تتعرض للأذى من أحد •

(٩) هذا يؤكد بوضوح قول القديس بولس فى الاصحاح الاول آية ٨ ، فيما يتعلق
باللحم التى تقدم للأوثان •

ولا يأكل البرهمى الا الطعام الذى أعده افراد طائفته البرهمية • وقد ذكر بوشانان
Buchanan أن الكوروم Kurum وهو النظام الأعلى عند النير Nairs فى مالابار
Malabar — يتم بطهى الطعام — فى كل المناسبات العامة ، ومن الدلالات الأكيدة عند
الهندوس على السمو الروحى أو الارتفاع الى مستوى طبقة ذات أبعاد روحية تجعلها فوق
الوجود المادى أن يأكل أى شخص طعاما أعده شخص أو أشخاص أرقى منه بالميلاد •
وقد لاحظ ماركو بولو العادة الشائعة بين البرهميين وهى أنهم يأكلون على أوراق الأشجار ،
فبدلاً عن المصنوع فإنهم يضعون طعامهم على الأوراق الجافة لنبات تفاح الجنة ، وقد يقصد
ماركو بولو بذلك أوراق نبات لسان الحمل أو أدن الجدى Plantain • انظر :
Pinkerton's Voyages (Green's Collection, Vol IV,, p. 616) Vol. VIII,
pp. 735-6.

وقد وصف Forbes التفاصيل الكاملة لوجبات الطعام عند البرهميين كالتالى :
« يقوم البرهمى — عندما يكون طعامه جاهزاً — وقبل تناول طعامه بشعائر التبرون
Turpun وذلك بأن يملأ وعاء نحاسياً بالماء ، ويضع فيه قليلاً من حبات الشعير والسمسم
وأوراق شجرة الريحان المقدسة basil والصندل وغير ذلك • ثم يقوم بذكر الأسماء
التي يستطيع تذكرها سواء أسماء آبائه وأجداده لأبيه وأجداده لأمه ، وأصدقائه
الذين وافتهم منيتهم • ثم بعد ذلك يمارس شعائر الهوم hom ويقصد بها عبادة النار ،
وداك بمنزلة بعض الأرض والزبد النقى فى أثناء نحاسى صغيراً أو وعاء فخارى به نار مشتعلة
وهو ينتمى أثناء ذلك بأسماء الشياطين Devils • ويقوم البرهمى بحزن خمسة مقادير من
الطعام للبقر والمعدمين والكلاب والنمل والغربان • ثم يأخذ قليلاً من كل صحن ويقدمه
للشيطان فى وعاء مقسم الى خمسة أقسام • وبعد ذلك يجلس — أى البرهمى — لتناول
إفطاره » •

انظر Bas Mala, Vol. II, p. 257.

البرهميون ، كهنة كلكتا

ومن المناسب أن تعرف من هم هؤلاء البراهمة ، بالإضافة إلى الطرافة المتمثلة في أمرهم ، يجب أن تعلم أنهم رؤساء أو زعماء العقيدة البرهمية ، وهم يشبهون الكهنة في العقيدة المسيحية . وعندما يريد الملك أن يتزوج فانه - أى الملك - يختار أكثر هؤلاء البراهمة نراء وكرم محتد ، ليضامج زوجته - أى زوجة الملك - فى الليلة الأولى من عقد قرانه ، أى الملك - عليها ، ليغض بكارتها (١٠) . ولا تظن أن البرهمى يقوم بهذه المهمة راغباً فرحاً ، وإنما يتعين على الملك أن يدفع له لقاء ذلك أربعمائة دوكلات أو خمسمائة . ولا يمارس هذا العمل (تكليف البرهمى بغض بكاره زوجته) فى كلكتا - سوى الملك . وسوف نصف الآن أديان الوثنيين فى كلكتا .

وثنيو كلكتا - وطبقاتهم

أولى طبقات الوثنيين فى كلكتا هى طبقة البراهمة ، والطبقة الثانية تتمثل فى النيرى Naeri ، وهم مثل النبلاء أو الأشراف فى مجتمعنا الأوروبي ويتحتم عليهم أن يتمنطقوا بالسيف ، أو أن يحملوا الرماح والأقواس . وعندما يسيرون فى الشوارع بدون سلاح فانهم فى هذه الحال لا يزيدون عن كونهم أناسا عاديين . أما الطبقة الثالثة من هؤلاء الوثنيين فتسمى النيفا Tiva وهم حرفيون artizans ، والطبقة الرابعة تسمى المشوا Mechua وهم صائدو الأسماك ، والطبقة الخامسة تسمى البوليار Poliar وهم يجمعون الفلفل والبندق والجوز ويعصرون الخمر Wine . والطبقة السادسة تسمى هيرافا Hirava وهم الذين يزرعون الأرز ويجمعونه . والطبقتان الأخرتان وهما البوليار والهيرافا لا يقترب أفرادهما من أفراد طبقة النيرى Naeri أو البراهمة وإنما يبقون على بعد خمسين خطوة من أى واحد من

(١٠) بذكر هاملتون ما يلى « عندما يتزوج السامورى Samorin فانه يجب الا يضامج زوجته الا بعد أن يقوم النامبورى Nambourie وهو رئيس الكهنة - بمضاجعتها ، وإذا سر من مضاجعتها فانه يقضى معها ثلاث ليال لأن أول ثمار زواجها يجب أن يكون قربانا مقدسا للاله الذى تعبد العروس » وقد أكد بوشانان Buchanan ذلك بقوله : وهؤلاء السدات (من أسرة تامورى Tamuri يلقهن - عموما - النامبورى "Namuris" انظر : Pinkerton's voyages. Vol. III, pp. 374, 834.

الطبقتين المذكورتين الا اذا تلقوا دعوة بالاقتراب . وهم (أفراد طبقتي البوليوار والهيرا فا) لا يسرون الا خلال طرق خاصة عبر المستنقعات Marshes ، وهم فى سيرهم عبر هذه الطرق يصيحون بأصوات عالية حتى لا يلتقون بالنيرى أو البراهمة . وإذا حدث أن توقف أفراد هاتين الطبقتين (البوليوار والهيرا فا) عن الصياح بأصوات عالية وكان أى من أفراد النيرى يسير فى الطريق ذاته ورأى ثمارهم أو التقى بأحد منهم ، فان النيرى يقتله دون أن يتحمل أى عقاب . لذلك نجد أفراد هاتين الطبقتين (البوليوار والهيرا فا) يصيحون دائما . والآن ، فقد قمصنا عليك خبر هذه الطبقات الوثنية الست (١١) .

لباس الملك والملكة وسائر الناس فى كلكتا وكذلك طعامهم

انهم جميعا يسسرون عراة حفاة الا من قطعة من نسيج قطنى أو حيرى حول الوسط ولا يضعون فوق رؤوسهم غطاء (١٢) وبعض

(١١) نفرا فى كتابات هاملتون Hamilton تصنيفا مشابها لما رواه فارتيجا ، نوره كالتالى : هناك درجات عديدة فى المؤسسة الدينية the Church وكذلك فى الدولة ، فالنامبورى هم الطبقة الأولى فى المجالين الدينى والدينوى (على صعيد الدين وعلى صعيد الدولة) والبراهمة هم الطبقة الثانية فى المؤسسة الدينية the Church فقط . أما الميت Buts أو السخرة فهم الطبقة التى تلى البراهمة مباشرة . أما النيرى Nayers فعددهم كبير جدا وهم الطبقة التى تلى الطبقة السابقة . أما اليايفى Tayvees فهم زراع أشجار الكاكاو وهم يلون الطبقة السالفة فى شرف المحتد next to the gentry أما البوليوار pouliars فهى الطبقة التى تقدم العمال والحرفيين Mechanics أما المكوا (المشوا) Muckwas أو الصيادون فهم أعلى محندا (طبقة) - فيما أعلم - من البوليوار Pouliars الا أنهم - أى أفراد طبقة البوليوار - هم أدنى المخلوقات وهم مستثنون من المنع بأية فداسة ولا يسرى عليهم أى قانون انسانى . فاذا تقابل أحد أفراد البوليوار أو اليايفى مع أحد أفراد النيرى Nair فى الطريق ، فيجب عليه (فرد البوليوار أو اليايفى) أن يتندجى. جانبا لى الطريق لصاحب المقام الرفيع - ليمر، وذلك حتى لا يلوث الهواء ، حتى لا يعرض للعقاب الشديد أو حتى القتل ، وأفراد البوليوار هم الأسوأ حالا بكثير من غيرهم ، فاذا رأى الواحد منهم شخصا يقترب فان عليه (أى الفرد من البوليوار) أن يعرى كالكلب ويجرى بعيدا. حتى يتيح لهذا الشخص المقرب الا يتنفس من الهواء نفسه « والبوليوار يبدون كأولئك الذين وصفهم بوشانان Buchanan تحت اسم النيادى Niadis فهم يشبهون فى صفاتهم ما ذكره فارتيجا رغم أنه ذكر أنهم زراع أرز . بينما البوليوار لا يسمح لهم بحرث الأرض وانما يقطنون الغابات والمستنقعات Wood & Marshes ويعيشون بشكل أساسى على الصيد والتسول . انظر : Pinkerton's Voyages. Vol. VIII. pp. 375, 738-9.

(١٢) كما قال Ralph Fitch بأسلوب ساخر : « أما الملك فيسير عاريا كسائر الناس » .

التجار المسلمين Moors يرتدون قمصانا Shirt تمتد حتى الخصر waist أما الوثنيون فلا يرتدون القمصان . والنسوة يسرن عراة ويتركن شعورهن طويلة ، أما فيما يتعلق بطعام الملك والأشراف فهم لا يأكلون اللحوم الا باذن البراهمة ، أما الطبقات الأخرى فيأكل أفرادها مختلف أنواع اللحوم باستثناء لحم البقر (١٣) ويأكل أفراد الهيرافا والبوليار الفئران والأسماك بعد تجفيفها في الشمس .

الطقوس التي يمارسونها بعد موت الملك

إذا مات الملك وكان له أبناء ذكور أو اخوة أو أبناء أخ فان أيا منهم لا يخلفه في الملك وانما يخلفه أحد أبناء أخته (١٤) وإذا لم يكن للأخت ابن ، خلفه أقرب أقربائه . وقد سادت هذه العادة لأن البراهمة لهم حق فض بكارة الملكة ، وعندما يسافر الملك ، يقوم أحد البراهمة حتى ولو لم يتجاوز عمره العشرين بالبقاء مع الملكة في المنزل ، ويشعر الملك بامتنان شديد إذا ضاجع هذا البرهمى زوجته (الملكة) ولذا فمن المؤكد أن أخته وهو قد ولدا من شخص واحد (من صلب واحد) لذا فهي - أي أخته - أكثر قرابة مؤكدة له من أبنائه (أبناء الملك) .

ولذا فوراة الملك تكون لأبنائها (أبناء أخته) . ويخلق كل الناس في المملكة لحاهم ورؤوسهم عند موت الملك ، ولا يتركون من شعور رؤوسهم ولحاهم الا جزءا وفقا لما يراه كل شخص . ويحظر على صائدي الأسماك الصيد لثمانية أيام ، ويمارس الناس هذه العادات ذاتها اذا مات أحد أقرباء الملك . وكنوع من الوفاء لقريبه الميت ، فان الملك لا يضاجع زوجته مدة عام ولا يأكل التنبول betel مدة عام أيضا . ويشبهه التنبول أوراق البرتقال الحامض Sour orange (قد يقصد الليمون) ، وهو - أي التنبول - طعام شائع بينهم . والتنبول بالنسبة لهم ،

(١٣) لا يستطيع أحد من البراهمة الجنوبيين تذوق أى طعام حيواني دون أن يفقد الانتماء لطبقته . أما النير Nair فمسموح لهم أن يتناولوا لحوم الغزلان والماعز والدجاج والأسماك « بوشانان » .

(١٤) يؤكد بوشانان ذلك بقوله : « الوراثة تتم من خلال الانتماء الامومي ، ويضيف بصدد حديثه عن حالة خاصة يرث فيها ابن الأخت منصب الراجا Rajaship » ان ابنه لا يدعى وراثة منصب الراجا (الامارة) وانما سيخلفه ابن أخته "niece" انظر Pinkerton's Voyage, Vol VIII, p. 745 وكان هذا الامر موجودا على أيام ابن بطوطة .

كالحلوى بالنسبة لنا نحن الأوروبيين ، وان كان هدفهم الأساسي من تناوله هو تحقيق اللذة الحسية ، ويتناولون معه فاكهة الكوفولو Cofrôlo التي تثمرها شجرة الأريشا Arecha (١٥) وساقها تشبه ساق النخلة وطريقة اثمارها لا تختلف عن النخلة أيضا ، وكذلك نوعا من الكلس Lime مصنوع من أصناف المحار يسمونه سيوناما Cionama . (١٦) .

كيف يتبادل الوثنيون أحيانا زوجاتهم

توجد عادة تبادل الزوجات بين الوثنيين . فعلى بعض الأحيان يحدث أن يكون تاجران تربط بينهما صداقة عميقة ، فيقول أحدهما للآخر : « لقد دامت صداقتنا طويلا » فيجيبه : « نعم اننى صديقك منذ أمد طويل » فيقول له : « أقول الحق ؟ » فيجيبه : « نعم » ، فيقول له : « بالله عليك ! » فيكون الجواب : « بالله » عندئذ يقول له : « اذن دعنا نتبادل زوجتي ، خذ زوجتي وأعطني زوجتك » فيقول له : « أمن قلبك هذا الطلب ؟ » فيرد عليه : « اى وربنى ! » عندئذ يأخذه الى البيت ويقول لزوجته : « تعالى أيتها الزوجة ! اذهبي مع هذا الرجل فهو زوجك ، فتقول الزوجة : « أحقا تقول بالله » فيرد عليها : « أقول الحق » فتجيب الزوجة « هذا يسعدنى ! » وتذهب معه الى بيته وعندما يقابل زوجته الأولى يطلب منها أن ترافق صديقه ، وبهذه الطريقة يتبادلان زوجتيهما ، الا أن أبناء كل واحد منهما يبقون معه . وبين طبقات الوثنيين الذين أشرنا اليهم فيما سبق يكون للمرأة خمسة أزواج أو ستة أو سبعة ، بل وأحيانا ثمانية (١٧) وينام كل واحد منهم معها ليلة ، وعندما تنجب فإنها هى التى تحدد والد الطفل ، وهكذا يتحدد النسب بكلمة منها .

(١٥) نخلة الأريكا The Areca palm .

(١٦) شونام Chunam هى الكلمة الهندوسانية الشائعة للكلس Lime .

(١٧) تعدد الأزواج Poliandria الذى شاع فى كلكتا ، تناوله أيضا نيكولو دى كونتى Nicolo de Conti وعبد الرزاق ، وهم (دى كونتى وعبد الرزاق وفارتيما) يختلفون فى التفاصيل ، كما هو متوقع خاصة فى موضوع كهذا مرتبط بصميم الحياة المنزلية لأهل البلاد ، مما يجعله عرضة لاقحام أفكار خاطئة فيه ، وقد كان الدكتور بوشانان أكثر دقة فى عرضه لهذا الموضوع وفيما يلى نورد بعض ما ذكره : « يتزوج النير Nair قبل بلوغ الواحد منهم سن العاشرة . . . الا أن الزوج لا يضاجع زوجته . ويمكننا ان تعدد هذه الامور شيئا بذيئا وفاحشا . والزوج فى هذه الحالة يتفق على زوجته فهو يتكفل بما تحتاجه من دهان وملابس وزينة وطعام ، الا انها مع ذلك تعيش فى بيت أمها ، =

اسلوب الحياة وضبط العدالة بين الوثنيين

يجلس هؤلاء الوثنيون على الأرض لتناول طعامهم في أوان معدنية ويستخدمون ملعقة من أوراق الاشجار ، وهم دائما يأكلون الأرز والسمك والبهنات والفاكهة . أما الزراع بطبقتهم فيأكلون من القدر مباشرة ، وعندما يتناولون الأرز بأيديهم من القدر فانهم يجعلونه كالكرة بالضغط عليه ثم يضعونه في أفواههم . وفيما يتعلق بالقوانين السائدة بينهم فإنه اذا قتل أحدهم شخصا فإن الملك يأمر باعداد وتد (خازوق) طوله أربع خطوات ، ويندب جيذا من أحد طرفيه ، ثم يؤتى بعصتين وتثبتان في الخازوق المشار اليه على بعد شبرين من الطرف المذهب ثم يدق هذا الود (الخازوق) في منتصف ظهر المذنب حتى يخرج من الناحية الأخرى ، وبذلك يلقى المذنب حتفه . وتسمى هذه الطريقة في التعذيب باسم الأنكالفنت Uncalvet ، واذا أقدم شخص على جرح آخر أو ضربه بالعصا ، أمره الملك بدفع تعويض مالى ، فاذا دفعه سقط ذنبه ، واذا كان لأحد مال عند الآخر ، وأظهر صاحب الدين الايصال الدال على ذلك شريطة الا يقل المبلغ عن مائة من وحدات العملة في هذا البلد ، ففي هذه الحال يتم الآتى ، دعنا نفترض أن أحدهم يتحتم عليه أن يدفع لى خمسا وعشرين دوكات ، وأن المدين وعدنى بالدفع عدة مرات ولم يدفع ولم أكن راغبا فى امهاله أكثر من ذلك ولم أكن كذلك راغبا فى التنازل عن هذا الدين ، ففي هذه الحال على أن آخذ غصنا أخضر فى يدي وأن أسير بهدوء ورقة خلف المدين وأن أرسم بهذا الغصن الأخضر دائرة حوله (أى حول المدين) فاذا أحكمت الدائرة حوله قلت له هذه الكلمات ثلاث مرات : « اندى أظالبك بحق رؤوس البراهمة ورأس الملك الا تغادر هذه الدائرة حتى تدفع لى كل حقى » وفى هذه الحال ، فإنه سيرضىنى ، أو أن عليه أن يبقى داخل هذه الدائرة حتى يموت ، دون أى حراسة تجبره على ذلك ؟ واذا حدث وهرب من هذه الدائرة ولم يدفع لى ، فإن الملك يقتله (١٨) .

= واذا مات والدها فانها تعيش مع أخيها ، ويضاجعها فى هذه الأثناء أى شخص يقع عليه اختيارها سواء من طبقتها أو من طبقة أعلى من طبقتها . ولا يعيب المرأة البؤسة بأية حال أن تقول انها أقامت علاقات جنسية مع أشخاص عديدين ، بل العكس هو الصحيح فالمرأة من النير Nair تفخر بكثرة عشاقها من البراهمة والرجاوت (الامراء الهنود) وغيرهم من ذوى المحدث الكريم ونتيجة هذه الأوضاع الغريبة فلا أحد من النير Nair يعرف أباه وينظر كل فرد منهم الى أولاد أخته باعتبارهم ورثته . (١٨) من الملاحظ أن مسألة العدالة فى الهند كانت محل اعجاب منذ زمن طويل ، فالكاتب الاغريق والرومان بدءا من ديودور الصقلي Diodorus-siculus قد أثبتوا عليها . كما شهد ماركو بولو الى جانبها . وأخيرا فإن الكتاب العرب قد شهدوا شهادة فى صالحها ، =

طريقة العبادة عند الوثنيين

في الصباح الباكر ، يذهب هؤلاء الوثنيون للاغتسال عند البركة a tank المليئة بالماء الراكد ، وبعد اغتسالهم يتحتم عليهم ألا يلمسوا أى شخص حتى يؤدوا صلواتهم فى منازلهم (١٩) ويقولون انهم يؤدون صلواتهم على هذا النحو : انهم يتمددون على الأرض بطريقة سرية جدا ويقومون بحركة شيطانية معينة diabolical action بعيونهم ، ويؤدون حركات أخرى مرعبة بأفواههم ، ويستمررون فى أداء هذه الحركات لمدة ربع ساعة ، ثم تأتى ساعة الأكل ، وهم لا يستطيعون الأكل الا اذا كان الطعام من اعداد رجل ، فالتسوة لا يطبخن الا لأنفسهن . وهذه هي العادة الشائعة بين الرجال . أما النسوة فينتظرن حتى يغتسلن ويتعطرن ، وفى كل مرة يرغب فيها الرجل فى مضاجعة زوجته

= فالادريسي يذكر لنا أن العدالة شئ غريزى أو فطرة عند سكان الهند وليس لديهم ما يوازئها أهمية . ويقال ان عددهم الكبير والرخاء الذى يعيشون فيه يرجع الى سلامة طوبيتهم واخلاصهم فى تنفيذ العهود والمواثيق واستقامة سلوكهم بشكل عام . وأكثر من هذا فالزائرون لبلادهم يزداد عددهم فبلادهم مزدهرة والناس يتمتعون بالوفرة والسلام ، وكدليل على موالاتهم للحق وكراميتهم للباطل ، نضرب مثلا : اذا كان لدى رجل مال عند رجل آخر ، والتقى به الدائن فى أى مكان رسم حوله دائرة ودخل معه فيها ، فلا يستطيع المدين أن يخرج من الدائرة الا اذا أرضى الدائن . (المدعى) لكن اذا فشل الدائن فى اجباره على الدفع أو قرر أن يسامحه فانه أى الدائن يخطو خارج الدائرة » ويذكر لنا عبد الرزاق عند حديثه عن كلمكتا أن « الأمن والعدالة مؤثلان وراسخان فى هذه المدينة لدرجة أن أكثر التجار ثراء يجلبون عبر البحار الى كلمكتا بضائع هائلة يفرغونها ويوصلونها الى أسواق دون أن يجدوا حاجة الى مراجعتها أو عدّها ودون أن يجدوا حاجة الى حراستها » انظر : *Indio in the fifteenth Century, I, p. 14.*

والاجراءات المتخذة ضد المدين كما وصفها الادريسي وفارتيما ، والتي قرر ماركو بولو من قبلهما أنه رأها تنفذ ضد شخص ملك المالابار ، أكدها هاملتون Hamilton مع اختلاف طفيف . يقول هاملتون : « ان لديهم طريقة جيدة للقبض على المدينين ، ان يوجد شخص معين يحمل عصا صغيرة يرسله القاضى الذى يكون برهيا ، وعندما يمر هذا الشخص على المدين يقوم برسم دائرة حوله بالعصا ويأمره باسم الملك والقاضى الا يغادر الدائرة الا بعد استرضاء الدائن اما بالدفع أو بطلب السماح ، وليس من عقوبة اقل من الموت تنتظر المدين اذا غادر سجنه هذا بالخروج من الدائرة المرسومة » انظر : *Pinkerton's Voyages, Vol. III, p. 377.*

وقد ذكر ديودور الصقلي طريقة الاعدام بالخازوق impaling فى الهند Lib. II, 18. (١٩) البراهمة ملزمون بالاستحمام الكامل (غسل كل أبدانهم) قبل تناول الطعام . وبقيتهم يندر أن يستحم قبل شروق الشمس سواء كان ذلك بالماء الدافئ فى المنازل أم فى البركة أو النهر . وبعد ارتداء ملابسهم ، يجلس هؤلاء البراهمة لتناول الطعام شريطة أن يبتعدوا عن كل ما ينجسهم أو يوسخهم مما يضطر الواحد منهم للتوقف عن تناول طعامه .

انظر Forbes's Ras Mala, Vol. II, pp. 255-58. (باهر)

فانها تغتسل وتتعطر بطريقة رائعة والنبسوة بشكل عام وفي كل الأحوال يرحن ويجنن معطرات وقد تحلين بالمجوهرات في أيديهن وآذانهن وأقدامهن بأذرعهن .

الطريقة التي يحارب بها هؤلاء الوثنيون

يتدرب هؤلاء الوثنيون - بشكل عام - يوميا ، بالسيوف والتروس والرمح . وعندما يذهبون للقتال يحتفظ ملك كلكتا دائما بمائة ألف من المشاة لأنهم لا يستطيعون استخدام الخيول ، ويصحب بعض الفيلة لاستخدامه الشخصي فقط . ويلف كل فرد من أفراد الجيش قطعه قماش حريرية قرمزية اللون حول رأسه ، ويحملون السيوف والتروس والرمح والأقواس ، ويحمل الملك مظلة ، بدلا من العلم (أو اللواء) ، وهذه المظلة تأخذ شكل مقدمة الحذاء (*) وهي مكونة من أوراق الشجر ومثبتة على طرف خيزرانة Cane وقد صممت لتحمي الملك من الشمس . وعندما يكون هؤلاء الناس في ميدان القتال ، ويكون الجيشان المقتتلان على بعد مرمى قوسين ، فإن الملك يقول للبراهمة : « اذهبوا الى معسكر الأعداء وقولوا لملكهم أن يدع مائة من النيري Naeri الذين لديه يأتون ، وأننى سوف ألقاهم بمائة من النيري التابعين لي » وبهذه الطريقة يلتقون في منتصف المسافة ، ويشرعون في الاقتتال بهذه الطريقة . ورغم أنهم قد يقتتلون مدة ثلاثة أيام ، فإن الواحد منهم يوجه دائما لخصمه ضربتين مباشرتين ، أحدهما في الرأس والأخرى في الساق ، وعندما يقتل من أى من الطرفين أربعة أو ستة يتدخل البراهمة بين المقتتلين ، فيعود كل فريق الى معسكره . وسرعان ما يعود البراهمة آنفو الذكر الى جيش كل طرف . قائلين : « ألا ترغبون في المزيد ؟ » فيجيب الملك : « لا » .

وهذه هي طريقة اقتتالهم ، مائة مقابل مائة . وفي بعض الأحيان يركب الملك فيلا ، وفي أحيان أخرى يحمله النيري Naeri الذين يجرون دائما ، ودائما ما تصاحب الملك الآلات الموسيقية المتعددة . ويدفع الملك لكل واحد من النيري أربعة كارلينات Carlini في الشهر ، أما في أثناء الحرب فيدفع لكل واحد نصف دوكات ، وهم

(*) البص : Like the stem of a boot وقد يكون هناك خطأ مطبعي وربما كان المقصود مقدمة السفينة - (المترجم) .

يعيشون من هذه الرواتب • وهؤلاء الناس لهم أسنان سوداء بسبب الأوراق التي ذكرت لك لتوى أنهم يأكلونها • وعندما يموت واحد من النيري فانه يحرق في حفل مهيب للغاية ، ويحفظ بعض الناس رماد جثته • أما الناس العاديون ، فان الواحد منهم اذا مات دفنوه في منزله ، وبعضهم يدفونه في حديقة بيته (٢٠) •

وتسك عملة هذا البلد هنا ، على النحو الذي أخبرتك به عند الحديث عن نارسنجا Narsinga • وعندما كنت في كلكتا وجدت عددا كبيرا جدا من البشر الذين ينتمون الى أجناس مختلفة وبلاد مختلفة ، وقد كنت شغوفاً لمعرفة المناطق والبلاد التي قدم منها هؤلاء البشر المختلفون فسألت وعرفت أنه وجد هنا عدد كبير جدا من التجار المسلمين ، كثيرون منهم قدموا من مكة ، وجانب منهم قدم من البنغال Banghella ، وبعضهم قدم من Ternasseri وبعضهم من Pego ، وكثيرون جدا قدموا من Giormandel وعدد كبير من Zaicolon ، ومن سومطرة ، وعدد ليس بالقليل من Colon و Caicolon ، وعدد كبير جدا من Bathcala ومن Dabuli ومن Combeia Chievuli ومن Ormus • وكان هناك أيضا عدد من فارس وبلا العرب السعيدة ، وثم عدد من سوريا وتركيا ، وعدد من ألبانيا ونارسنجا Narsinga • لقد كان هناك تجار من كل هذه الآفاق في الوقت الذي كنت فيه في كلكتا • ويجب أن يكون معلوما أن الوثنيين من أهل البلاد لا يبحرون كثيرا ، لذا فالمسلمون هم الذين يجلبون البضائع اذ يوجد في كلكتا ١٥٠٠٠ مسلم على الأقل مما يجعلهم يشكلون أكثرية أهل البلد (٢١) •

(٢٠) أكد ذلك بوشانان Buchanan إذ ذكر أن النير يحرقون موتاهم ، أما الطبقات الدنيا فيدفنهم •

(٢١) ذلك أنه لم يكن لدى الهندوس Hindoos بحارة أبدا ، ولكن الهندوس لم يكن لديهم أبدا بحارة ، فان هذا يقصر • الصمت العالي - في الغالب - من قبل الكتاب القدماء - ازاء الشئون البحرية للهند ، بينما وصف أكثرهم تكوين الجيش الهندي بالتفصيل • ويبدو أن هناك احتمالا كبيرا أن ما ذكر في شرائع مانو Manu عن العقود التي يبرهن بموجبها البحارة سفنهم مقابل مال يقترضونه للقيام برحلاتهم bottomry مما دفع سيد وليم جونز Sir William Jones الى القول بأن الهند لابد أن يكون لديهم بحارة في هذا العهد ، الا أن الإشارة الى ذلك في شرائع مانو Manu يقصد بها في الأساس ، الملاحة النهرية • river navigation ، فالإشراف على هذه الملاحة يقتضى تدوين حركتها لدى مسئول (مأمور تنفيذ) water bailiffs الذي كان من بين واجباته أيضا الحفاظ على الحدود بين الحقول للتأكد من أن كل زارع يأخذ حقه من ماء القنوات والترع ••• الخ • (See Manu, VIII, 408-409) .

طريقة الابحار في كلكتا

يبدو لي ملائما ومحققا للغرض ، أن أشرح لك كيف يبجر هؤلاء الناس على طول ساحل كلكتا والأوقات التي يبجرون فيها وكيف يبنون سفنهم . فباديء ذي بدء نجدهم يصنعون سفنهم كما لو كانت مكشوفة open ، وتتكون كل سفينة من ثلاثمائة أو أربعمائة جزع شجرة . butts وعند بنائهم لهذه السفن لا يستخدمون أية حبال Oakun بين كل لوح خشب ولوح آخر ، بأي شكل من الأشكال ، وإنما يصلون كل لوح بالآخر بطريقة محكمة تمنع تسرب الماء ، ثم يطلونها من الخارج بالقار (الزفت) ، ويدقون فيها مسامير حديدية ضخمة جدا . ولا تتخيل - على أية حال - أنهم لا يمتلكون حبالا فهي تأتيهم بكميات كبيرة من بلدان أخرى ، لكن عاداتهم لم تجر على استخدامها. في صناعة سفنهم (٢٢) ولديهم أخشاب ممتازة كتلك التي في بلادنا ، وإن كان ما لديهم (٢٣) منها أكثر بكثير مما عندنا . وأشرعة سفنهم مصنوعة من القطن ، ويحملون معهم أسفل الشراع الأصلي شراعا اضافيا ينشرونه عندما يبجرون لتستوعب مزيدا من الهواء ، وبهذا تراهم يستخدمون للسفينة شراعين ، بينما نحن في أوروبا نستخدم شراعا واحدا . ويحمل البحارة معهم أيضا مراسي Anchors من الرخام طول الواحدة منها ثمانية بالميات palmi وعرضها اثنان من بالميات ، ويربطون في هذه القطعة حبلين . فتلك

ويقرر أريان Arrian - بشكل واضح - أن الرحلات البحرية كانت ممنوعة ، ويذكر بلني Pliny أن الهنود لا يهاجرون أبدا (vi, 20) وزعم أنه يمكننا التجاوز في القول بأن ملاحظتهم كانت مقصورة على الأنهار ، إلا أن الأدلة تؤكد أنهم لم يكونوا بحاجة بالمعنى المعتاد الذي تقصده بقولنا (بحارة) .

ومما لا شك فيه كراهية الهندوس للبحر لاعتبارات دينية أو لفطرتهم التي جبلوا عليها ، أو لزاج من هذه المشاعر - هذه الكراهية - أيا كان سببها - جعلت الملاحة في المحيط الهندي منذ عهود قديمة في أيدي العرب الأكثر مهارة في هذا المضمار مما جعلهم يسودون ويحرزون قصب السبق في الساحل الغربي . وقد لاحظ ماركو بولو كراهية الهندوس ذات الطابع الديني للبحر الذي ذكر عند حديثه عن عادات أهل المالابار أن شهادة الشخص الذي يركب البحر غير مقبولة باعتباره شخصا متهورا يائسا . (See Pinkerton's Voyages, Vol. VII, p. 163.)

(٢٢) يتفق هينو الوصف بشكل عام مع الطريقة المتبعة في بناء السفن في ساحل المالابار . إلا أن ماركو بولو - على أية حال - يقرر أن السفن التي يشتم انشاؤها هناك - على أيامه - كانت تشيد جيدا بالحبال Well chaulked with Oakum وربما كان هذا خطأ من جانبه أو خطأ في الترجمة الانجليزية .

(٢٣) في تقرير نشرته الجمعية الملكية الآسيوية Royal asiatic Society (No. VI, 350-369) ثم حصر ١٢٠ نوعا لها قيمة عالية من الأخشاب يتم انتاجها في المالابار .

اذن هي هيئة مراسيهم • أما عن الزمن الذي تستغرقه رحلاتهم فهو كالتالى : من فارس الى رأس كومير Cumerin الذى يبعد عن كيكيتا مسافة ثمانية أيام ابصارا الى الجنوب • ويمكنك الابصار خلال ثمانية أشهر فى السنة او بمعنى آخر من ديسمبر الى ابريل ، أما فى الفترة من أول مايو الى منتصف اغسطس فمن الضروري تجنب هذا الساحل فى هذه الفترة يكون البحر عنيقا وعاصفا • ويجب أن تعرف أنه خلال شهور مايو ويونية ويولية واغسطس يهطل المطر بشكل مستمر ليلا ونهارا ولا تظهر الشمس الا قليلا ، أما فى الشهور الأخرى فلا يهطل المطر أبدا (٢٤) • وفى نهاية شهر ابريل يبحرون من ساحل كيكيتا ويعبرون عند رأس كومير Cumerin ثم يدخلون مرحلة أمنة من الابصار خلال هذه الشهور الأربعة يتاجرون خلالها فى كميات صغيرة من التوابل (٢٥) • أما عن مسميات سفنهم فهناك السمبوك Sambuchi وقاعه مسطح flat bottomer ، أما السفن المصنوعة على شياكلة سيفتينا فيسمونها كابل Capel ، وهناك سفن صغيرة يسمون الواحد منها باراو parao ، وهى سفن مصنوعة من قطعة واحدة ويبلغ طولها عشر خطوات ، ويجذفون لها بمجاديف من الخيزران وساريتها من خيزران أيضا • وهناك نوع آخر من المراكب الصغيرة يسمى الماديا Olmadia وهو من قطعة خشب واحدة وهناك نوع من السفن يبحر بالشرع والمجاديف • وهذه الأنواع الأخيرة من السفن ، تصنع من قطعة واحدة ويبلغ طول السفينة منها اثنتى عشرة خطوة أو ثلاث عشرة خطوة • وفتحات هذه السفن الصغيرة ضيقة جدا لدرجة أن أحدا لا يستطيع الجلوس الى جانب الآخر ، وانما لابد من الجلوس خلفه ، وهى سفن مدببة عند مقدماتها وعند مؤخراتها ، وتسمى الواحدة منها كاتورى Chaturi (٢٦) ،

(٢٤) هذا كلام صحيح بشكل عام عن انتشار الرياح خلال موسمى الرياح الموسمية monsoons (بادجر) •

(٢٥) كثير من السفن تغادر ساحل المالابار فى هذا الموسم من السنة قاصدة الأرخيل الهندى وتعود ، أو تتخذ طريقها الى الخليج الفارسى أو البحر الأحمر فى بداية موسم الرياح الموسمية الشمالية الشرقية north-east monsoon « لان الرياح الجنوبية الغربية التى تسود خارج رأس أشن Achin-head من شهر ابريل الى شهر اكتوبر » نادرا ما تهب بعيدا فى المضيق (أو البوغاز) خاصة بالقرب من جانب سومطرة ، وبسبب أن قوة الرياح الموسمية تقاومها الجبال والأراضى المرتفعة التى تمتد من أشن Achin وعلى طول ساحل بدرى Pedri ، فان هذه الرياح تنجح فى التسلل خفيفة وهادئة أو على هيئة نسيم أو بشكل عاصف من سومطرة أثناء الليل « (Horsburg's Directory, Part II) (بادجر) •

(٢٦) هذه الأسماء الدالة على السفن والقوارب تقدم لنا دليلا آخر غير مباشر على خطأ المقولة القائلة بأن الهندوس الأوائل كانوا بحارة فكل الأسماء — فيما عدا الكابل Capel =

وتبحر بالأشرعة أو المجاديف ، بطريقة أيسر وأفضل من أى سفينة شراعية ذات مجاديف galley أو أى سفينة من نوع فوستا fusta أو أى سفينة بصاريتين brigantine ، تلك هى مراكب البحر ، وتصنع سفن (٢٧) الكاتورى آنفة الذكر فى جزيرة قريبة تسمى بوركى porcai •

قصر ملك كلكتا

يبلغ محيط قصر الملك ، ميلا • وجدرانه منخفضة الارتفاع - كما ذكرت آنفا - وبها تقسيمات جميلة من الخشب حفرت عليها صور الشياطين حفرا بارزا ، وأرضية القصر مزينة كلها بروث البقر (٢٨) وهذا المنزل (القصر) يستأهل مائتى دوكات أو نحو ذلك • ولقد عرفت الآن السبب فى أنهم لا يستطيعون الحفر لوضع أساسات لمبانيهم ، فالمياه قريبة جدا من السطح • ومن المحال أن تقدر المجوهرات التى يتحلى بها الملك - رغم أنه على أيامى لم تكن أحواله على ما يرام لأنه كان فى حرب مع ملك البرتغال ، بالإضافة الى أنه كان مريضا بمرض الفرنجة فى حنجرته • ومع هذا فقد كانت الجواهر تتدلى من أذنيه ، وتطوق معصميه وذراعيه وساقيه ، وتغطى قدميه ، بشكل يشير دهشة الناظر • أما خزائنه فتحوى قوالب ذهب ، ونقودا ذهبية مختومة ، يقول البراهمة عنها ان العصبية البالغة مائة رجل تنوء بحملها • ويقول ان هذا الكنز متوارث عن عشرة

= أو Kapal التى ذكر كروفورد Crawford انها ترجع فى الاصل الى لغة التيلوجو Telugu أو التيلنجا Telinga - مشتقة من لغات أجنبية غر هندية فالبراو Parao أصلها جاوى أو ملاوى والسمبوك كلمة عربية والموديا Almadia من الكلمة العربية المدية Muadiah والكاتورى أو الشاتورى أرى أنها من الكلمة شختور Shakhtur وهى الكلمة الدالة على القارب فى سواحل سوريا كما أنها كلمة غير مجهولة فى البحر الأحمر والخليج الفارسى • أما فاستا Fusta فكلمة ايطالية تدل على نوع من القوارب الخفيفة •

(٢٧) ما دمت لا تعرف اسما لجزيرة بهذا الاسم بالقرب من كلكتا فانى أظن أن هارتيمما يشير الى مدينة بهذا الاسم تقع على الساحل ، الى الجنوب بدرجتين من كلكتا « فليس هناك مرفأ أو ميناء من أى نوع اذ تتوقف السفن المحملة بالبضائع فى عرض البحر فى مياه يبلغ عمقها ثمانتين fathoms على بعد ميل ونصف أو ميلين من الشاطئ • وقد كانت فى وقت مضى موضعا ذا أهمية فائقة أكثر مما هى عليه الآن وكانت حاضرة دولة صغيرة (راج Raj) •

(٢٨) يستخدم الهنود مذاب روث البقر (ويسمونه الجوبار) فى طلاء جدران وأرضيات اكواخهم الطينية - (عن بادجر) •

ملوك أو اثني عشر ملكا سابقين ، ليكون تحت طلب الشعب • ويمتلك ملك كلكتا أيضا صندوق جواهر يبلغ ارتفاعه ثلاثة أشبار ونصف ، مملوءا بمختلف أنواع الجواهر •

بهارات منطقة كلكتا

توجد أشجار الفلفل بكثرة في منطقة كلكتا ، بل وتوجد بعض أشجارها داخل مدينة كلكتا ذاتها • وسيقان أشجار الفلفل كسيقان أشجار العنب ، ويزرعونها بالقرب من بعض الأشجار الأخرى ، لأن شجرة الفلفل - كشجرة العنب - لا تنتصب بمفردها • وتنمو - كشجرة اللبلاب فهي تنتشر وتتسلق بقدر ارتفاع الأخشاب أو الشجرة التي تتسلق عليها • ولها فروع كثيرة يبلغ طول الواحد منها ما بين بالمين Palmi وثلاثة ، أما أوراقها فتشبه أوراق أشجار البرتقال البلدي (الحامض) وإن كانت أكثر منه جفافا ، والجزء التحتي من سطح الورقة مباشرة يمتلىء بالعروق الدقيقة • وفي كل فرع من فروع الشجرة نجد خمسة عناقيد أو ستة أو ثمانية ، الواحد منها أطول من اصبع الانسان قليلا ، وتشبه حبات الزبيب وإن كانت أكثر انتظاما ، كما أنها خضراء كالحصرم (العنب غير الناضج) •

وأهل البلاد يحصدونه في حالته الخضراء ويتركونه في الشمس لثلاثة أيام أو أربعة حتى يصبح أسود بالشكل الذي نراه في أوروبا - وذلك دون أن يقوموا إزائه بأى عمل سوى تركه في الشمس للمدة المذكورة آنفا • ويجب أن تعلموا أنهم لا يشذبون (يلقمون) هذه الأشجار ولا هم يعزقون حولها •

ويزرع في منطقة كلكتا أيضا - الزنجبيل ، وهو نبات جذري ، وتوجد بعض الجذور التي يبلغ وزن الواحد منها أربع أونصات أو ثمانية أو اثنتي عشرة • وعندما يحفرون لجمعه يكون ساق النبات قد وصل طوله الى ثلاثة أشبار أو أربعة ، ويشبه شكله بعض أنواع الغاب البلدي ، وأثناء جمعهم لجذور الزنجبيل ينزعون البراعم (العيون) الشبيهة ببراعم (عيون) قصب السكر ، وذلك ليزرعوها في وقت الجمع ، فيضعونها في الحفرة ذاتها ، ويخطونها بالتراب نفسه ، وفي نهاية العام يعودون لجمعه ، ويعودون لزراعته بالطريقة ذاتها • وتنمو جذور الزنجبيل في تربة حمراء أو على الجبال ، وفي السهول • وتزرع هنا كل أنواع الأملج

Myrobalans (٢٩) ، (٣٠) وساق هذه الشجرة كساق شجرة الكمثرى متوسطة الحجم ، وهى تثمر على شاكلة شجرة الفلفل .

بعض فواكه كلكتا

وجدت فى كلكتا نوعا من الفاكهة يسمونه سيكارا Ciccara (٣١) وساق شجرتها كساق شجرة الكمثرى ، ويبلغ طول الثمرة بالميين أو بالميين ونصف البالم ، أما سسماكتها ففى حجم سسماكة فخذ الرجل وتنمو هذه الفاكهة على جذع الشجرة ، تحت الفروع ، أقرب ما تكون الى منتصف الساق . ولونها أخضر وتبدو كأكواز (جفع كوز) الصنوبر ، وان كانت خطوطها أدق ، وعندما تبدأ فى النضوج يصبح جلدها أسود وتبدو نثنة . وتجمع هذه الفاكهة فى شهر ديسمبر ، وعند أكلها تبدو كالشمام ، أو السفرجل العجمى عندما يكون ناضجا جدا ، وتبدو أحيانا كمستحضر من عسل النحل ، وتعطى أيضا طعم البرتقال السكرى ، وبداخل هذه الفاكهة بعض القشور الرقيقة كما فى الرمان ، وداخل هذه القشور توجد ثمرة أخرى اذا وضعت على جمرة نار ، ثم أكلت ، لكان طعمها ألد من الكستناء الممتازة ، لقد كانت ألد وأمتع فاكهة أكلتها على الإطلاق .

وتوجد هنا فاكهة أخرى يسمونها امبا Amba ، (ثمرة المانجو) وشجرتها كشجرة الكمثرى ، وهى (الثمرة) كالجوزة عندنا فى شهر أغسطس ، وعندما تنضج يصبح لونها أصفر لامعا ، وبداخلها بذرة كاللوزة الجافة ، والمانجو أفضل من البرقوق البمشقى : والمخللات المعذولة من هذه الفاكهة بالطريقة نفسها التى نخلل بها الزيتون ، الا أن مخلل المانجو يفوقه بكثير .

(٢٩) نبات يستعمل ثمره للأغراض الطبية ويسمى أيضا emblic واسمه العلمى Phyllanthus emblica . عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية - (المترجم) .

(٣٠) الاهليلج Terminalia (بكسر اللام الثانية) وهو جنس شجر هندى . من أنواعه ما يسمى الاهليلج الهندى فى مصر ، والهندي الشعيرى فى الشام ، وتستعمل ثماره لتنظيف جهاز الهضم . والأملج - فيما يقول بادجر - أحد أنواعه . عن معجم الشهابى للعلوم الزراعية ، وتعليق بادجر .

(٣١) من الواضح أن المقصود بهذه الفاكهة ما يسمى جاكى Jack التى تثمرها شجرة الخبز Jack tree التى لها ثمار كبيرة بقدر لب الانسان ، فيها لب نشوى يستعمل كالحلوى وهناك نوع له لب سكرى يؤكل ، والاسم العلمى لهذه الشجرة هو : Artocarpus integrifolia

(عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية وتعليق بادجر) .

ورثة فاكهة أخرى هنا تشبه البطيخ ، ولها نفس تقسيماته ، وإذا قطعت وجدنا بداخلها ثلاث بذور أو أربع تبدو كحببات العنب ، أو الكرز الحامض . وشجرة هذه الفاكهة في ارتفاع شجرة السفرجل ، وأوراقها متشابهة . وهذه الفاكهة تسمى كوركوبال Corcopal (٣٢) ، وطعمها ممتاز ، وتستخدم كعلاج .

وقد وجدت أيضا ثلاث فواكه أخرى تشبه المشملة أو الزعرور medlar إلا أنها فاتحة اللون كالنفاخ ولا أتذكر أسماءها . ومرة أخرى رأيت فاكهة تشبه اليقطين في لونها ، وطولها شبران ، ولها أكثر من ثلاث زوائد (أصابع) من اللب ، وهي أفضل من الدباء (اليقطين) في صنع المربيات والمجبنات . إنها فاكهة تثير الدهشة ، ويسمونها كومولانجا Comolanga ، وتمتد ثمارها على الأرض كالبطيخ . وفي هذه البلاد شجرة متفردة جدا هي شجرة الموز الهندي ، ويسمونها مالا بولاندا Malapolanda وهي في طول قامة الانسان أو أطول قليلا ، وأوراقها هي فروعها ، فكل شجرة أربعة فروع أو خمسة ، وأوراقها ضخمة ، فالورقة الواحدة كافية ليستظل بها الانسان من الشمس ، ويحتمى من المطر . ومن وسط الشجرة يخرج فرع خاص يحمل أزهارا ، كساق نبات الفول ، وبعد تساقط الأزهار يظهر الموز ، والموزة الواحدة في سماكة ساق الرمح . وهم يجمعون الموز قبل أن ينضج ، ويتركونه في بيوتهم حتى يتم نضجه . والفرع الواحد يؤتى مائتي موزة أو نحو ذلك . وهناك ثلاثة أنواع من الموز : النوع الأول يسمونه كيانشابالون Cianchapalon وهو منشط لمن يأكله . ولونه أصفر على نحو ما ، وقشرته رقيقة جدا . والنوع الثانى يسمونه كاديلابلون Cadelaplون وهو أفضل من النوعين الآخرين . أما النوع الثالث فلاذع . والنوعان الأولان طيبان كالذى عندنا ، إلا انهما أفضل . ولا تثمر شجرة الموز الا مرة واحدة . ودائما يكون على ساق هذه الشجرة خمسون أو ستون فرخا (برعا) ، ويقوم المالك بنزعها ، ويزرعها مرة أخرى ، وفي نهاية العام تنتج ثمرا . وإذا كان الموز المجموع أخضر ولم يقترب من مرحلة النضج ، وضعوا عليه قليلا من الجير (٣٣) للتعجيل بنضجه . ويجب أن تعلموا أن كميات كبيرة من هذه الفاكهة متوفرة طوال العام ، وتباع العشرون موزة بكاترينو a quattrion . وتتوافر الورد والزهود هنا طوال العام .

(٣٢) لا يستخدم هذا الاسم الآن ، وقد خمن العالم بنت أنها ربما كانت الباباوا Papau وهي الدباء الهندي ، إلا أن حصة الأوراق وعدد البذور لا يؤيدان هذا الرأي .
(عن بادجر)
(٣٣) الكلمة الانجليزية Lime ولا ندرى هل المقصود هو الليمون أم الجير أم دبق الطيور .

أكثر الأشجار فائدة في العالم

مأصف لك شجرة أخرى هي أفضل أشجار العالم واسمها تنجما Tenga (شجرة الكاكاو) وساقها كساق نخلة البلح . ومن هذه الشجرة يستفيدون بعشر فوائد ، فأخشابها وقود ، وجوزها طعام ، وأليافها تستخدم في الملاحة البحرية ، ومنها يصنعون أنسجة تبدو كالحرير ، يكفنون بها موتاهم ، وفحما ممتازا ، ومنها يستخرجون نبيذا ، وماء ، وزيتا ، وسكرا ، ويغطون مساكنهم بأوراقها التي تتساقط عند سقوط الفروع ، فيتفادون بذلك أضرار مياه الأمطار المتساقطة لنصف عام . وتثمر هذه الشجرة حبات الكاكاو ، بالكيفية نفسها التي تثمر بها النخلة بلحا ، وتنتج كل شجرة ما بين مائة الى مائتين من هذه الحبات .

وتستخدم قشور هذه الحبات كوقود ، وئمة قشر ثان (تحت القشر الأول) من مادة كالكطن أو الكتان ينزع ويترك للعمال يضربون عليه (ينجذونه) ، ومن الزهرة يصنعون نسيجا يبدو كالحرير . والجزء الخشن الذي يغزلونه يصنعون منه حبلا قصيرة ، ويقتلون هذه الحبال الصغيرة فيجعلون منها حبلا طويلة وسميكة يستخدمها البحارة . ومن القشرة الأخرى يصنعون أجود أنواع الفحم النباتي .

وبعد نزع القشرة الثانية تصبح الثمرة صالحة للأكل ، وحجمها في بداية الأمر كحجم اصبع اليد الصغير ، وعندما تبدأ الثمرة في النمو يظهر الماء خلالها ، وعندما يكتمل نموها تصبح مليئة بالماء ، حتى ان هناك بعض الثمرات التي تشتمل على كأسين من الماء ، وهو أفضل ما يشرب فهو كماء الزهر وحلو تماما . وأفضل أنواع الزيوت يصنع من هذه الثمرة وله ثمانى فوائد . وئمة فروع أخرى في شجرة الكاكاو لا يدعونها تنتج ثمرا ، وانما يشقونها من الوسط ويحنونها بشكل خاص ، ويفتحونها بالسكين صباحا ومساء ويضعون فيها (أى فى هذه الأفرع) سائلا خاصا ثم يتركون الفرع المائل يساقطه فيكون عصيرا له مذاق خاص ، يجمعونه فى قارورة ، وتنتج الشجرة من هذا العصير ما مقداره سعة ابريق فى اليوم واللييلة ، ويغلوونه ثلاث مرات فيبيدو كالبراندى ويؤثر فى رأس الانسان (عقله) بمجرد شمه ، وهذا هو النبيذ الشائع بين أهل هذه البلاد . ومن فرع آخر من فروع هذه الشجرة يستخرجون عصيرا بالطريقة ذاتها التي شرحتها آنفا ويحولونه بالغلى الى سكر ، ولكنه ليس طيبا جدا . وشجرة الكاكاو لا تخلو أبدا من ثمار اما خضراء واما جافة ، وتؤتى محصولها بعد خمس سنوات ، وتنتشر أشجار الكاكاو على مساحة مائتى ميل من البلاد ، وليست مشاعا وانما لها ملاكها .

ونظرا لفائدة هذه الشجرة ، فان السلام يمكن أن يسود بين ملكين

تجاربا وقتل كل منهما أبناء الآخر ، لكنه لا يمكن أن يسود اذا قطع أحدهما أشجار الكاكاو التي يمتلكها الآخر . وتعيش شجرة الكاكاو ما بين عشرين سنة وخمس وعشرين سنة ، وتنمو في التربة الرملية . وعند زراعة البذور (التي هي نفسها الثمار) فلا بد من موالاتها حتى تنبت كالتالى : يذهب الزارع كل مساء لكشف التربة عنها حتى تتعرض لهواء الليل البارد ، وفى الصباح الباكر يعود ليغطيها حتى لا تلفحها الشمس وهكذا حتى تنبت وتنمو .

وفى كلكتا كميات كبيرة من السمسم ، يستخرجون منه زيتا رائعا .

طريقة بذرهم الأرز

عندما يرغب أهل كلكتا فى بذر الأرز ، يقومون بما هو آت :
فى البداية يحرقون الأرض مستخدمين الثيران كما نفعل فى بلادنا ، وأثناء بذرهم البذور تعزف كل الآلات الموسيقية فى المدينة بشكل مستمر محدثة بهجة ، كما يقوم عشرة أشخاص أو اثنا عشر شخصا بارتداء ملابس الشياطين ، ويشتركون مع العازفين فى أحداث صخب ، حتى يبارك الشيطان فى محصول الأرز فيجعله وفيرا .

الأطباء الذين يعودون المريض

فى كلكتا

عندما يمرض تاجر وثنى وتصبح حالته خطرة ، يذهب العازفون والرجال اللابسون كالشياطين - الآنف ذكرهم فى الفصل السابق - لزيارته فى الساعة الثانية أو الثالثة صباحا ، ويحمل الرجال الشياطين شعلات النار فى أفواههم ، ويلبس كل واحد منهم فى يديه ورجليه سنادات خشبية Crutches ، يبلغ ارتفاع السنادة منها مقدار خطوة ، ويصرخون ويصيحون بينما تعزف الآلات . والحق أقول لكم انه اذا لم يكن الشخص مريضا ، فانه سيقع على الأرض من فرط الرعب عند رؤية هؤلاء الحقرء بشعى المنظر . وهؤلاء هم الأطباء الذين يذهبون لعيادة المريض . ورغم أنهم قد يملأون معدتهم ويتخمون أنفسهم جدا ، فان ثلاثة جذور زنجبيل تسحق ويصنع منها حساء ، ثم يشرب ، كافية أن تشفى الواحد منهم فى غضون ثلاثة أيام ليقوم وكأنه لم يعان مرضا قط فهم يعيشون كالسوائم تماما .

الصرافون فى كلكتا

للصرافين والوزانين فى كلكتا بعض الموازين الدقيقة للغاية • حتى ان الصندوق بما فيه من موازين لا يزيد عن أقل من نصف أونصة وهم دقيقون جدا لدرجة تمييز شعرة فى الرأس عن شعرة أخرى • وعندما يرغبون فى اختبار أى قطعة ذهب يأخذون قيراطا من الذهب ، كما نفعل نحن فى أوروبا ، ويأخذون منه بمحك الذهب – كما نفعل – ويقومون بتفحصه – كما نفعل – فبعد أن يمتلى المحك بالذهب يأخذون كرة من مخلوط يشبه الشمع ، وبهذه الكرة يضغطون على محك الذهب ، ليعرفوا به ان كان هذا ذهباً جيداً أم من نوعية غير جيدة • وعندما تتشبع الكرة بالذهب يخرجون الذهب الذى اختبره المحك • وهؤلاء الصرافون فى للغاية من الدقة فى عملهم •

وعندما يرغب أحد التجار فى بيع البضائع أو شرائها ، فإن ذلك يكون دائما عن طريق الوسيط (السمسار أو الدلال) • وعندما يرغب البائع والمشتري فى عقد صفقة فإن التجار يقفون على هيئة حلقة ، ويمسك السمسار بقطعة قماش مبسوطة فى إحدى يديه ، ثم يمسك يد البائع اليمنى من الأصبعين الذين يليان الإبهام ، ثم يغطي اليدين (يد البائع ويد السمسار) بقطعة القماش آنفة الذكر • وتلامس يدهما تحت القماش بهذين الأصبعين ، ثم يشرعون فى العد من دوكات واحد الى مائة ألف دوكات ، سرا (دون أن يسمعها أحد) ، ودون أن يقولوا هذا كثير ، وإنما بمجرد لمس عقد (مفصل) الأصابع ، يفهمون السعر ، ويقول الواحد منهما : « نعم » أو « لا » ، وتكون اجابة السمسار : « نعم » أو « لا » • وعندما يتحقق السمسار من رغبة البائع يذهب للمشتري ومعه قطعة القماش نفسها ، ويخبره بطريقة اللمس ذاتها والآلف ذكرها ، بالمبلغ المطلوب ، فيخبره المشتري بطريقة اللمس ذاتها « اننى سأدفع له كثيرا » • وبهذه الطريقة يحددون السعر • وإذا كانت البضاعة التى يتفاوضون بشأنها بهارات spices ، فانهم يقدرونها بالبهار (وحدة وزن) وهو يزن ثلاثة قناطير من قناطيرنا (الأوربية) وإذا كانوا يتعاملون فى أثواب القماش تعاملوا بالعد بالعشرين ، والشئ نفسه ان كانوا يتعاملون فى الجواهر والكوريا تعنى الرقم ٢٠ ، وقد يتعاملون بالفاراسولا Farasola وهى وزن خمساً وعشرين ليرا Lire ايطالية (٥٤) •

(٣٤) أسماء هذه المكاييل والموازين ليست مألوفة – كما أخبرت – رغم أننى أظن أنها ما زالت تستخدم بين العرب الذين يترددون على ساحل الملابار وكلمة بهار عربية تشير عادة الى ما وزنه ثلاثمائة رطل ، ويذكر بعض المعجميين العرب أن الكلمة قد تكون من أصل قبطى ، بينما يرى برنسيب Prinsep أنها قد تكون هندية مشتقة من بهارا bhara =

كيفية اطعام البولياري ، والهيرا ، أطفالهم

نساء طبقتي البولياري والهيرا ، يرضعن أطفالهن حوالى ثلاثة أشهر من أئدائهن ، ثم يطعنهم اللبن الأبقار والماعز . وفى الصباح يطعنهم بشراة (يحشينهم حشوا) دون غسل وجوههم أو أبدانهم ثم يضعونهم فوق الرمال ويغطونهم بها ، ويظلون كذلك حتى المساء . لذا فالسواد شائع بينهم ، ولا يمكن تمييزهم عن عجول الجاموس الصغيرة أو الدببة ، فهؤلاء الأطفال يسدون كائنات مشوهة ، وكأنما أطعمهم الشيطان . وتقدم أمهاتهم لهم الطعام مرة ثانية فى المساء . وهؤلاء الناس هم أمهر شعوب العالم فى القفز والجري .

ويتحتم على ألا أهمل ذكر أنواع الحيوانات والطيور المختلفة فى كلكتا ، خاصة الأسود والخنازير البرية والذئاب والجاموس والماعز والأفيال (التى يجلبونها من أماكن أخرى لأنها غير متوفرة هنا) وأعداد كبيرة من الطواويس البرية ، وأعداد غفيرة من الببغاوات الخضراء ، وبعض أنواع الببغاوات الحمراء . ونظرا لكثرة الببغاوات كثرة هائلة فمن الضروري حراسة الأرض حتى لا تلتهمه . والواحد من هذه الببغاوات يساوى أربعة كاترينات ، وشدها رائع . وقد رأيت هنا أيضا نوعا آخر من الطيور يسمى سارو Saru (٣٥) ، وشدها هذه الطيور أفضل من أصوات الببغاوات الا أنها أصغر منها حجما . وثمة أنواع أخرى كثيرة من الطيور هنا ، تختلف عن الطيور التى نعرفها فى أوروبا . وعليكم أن تعلموا أنه خلال ساعة الصباح وساعة المساء ، ليس هناك ما هو أكثر

Lane's Arabic English Lexicon, Sub voce Bahâr, and: انظر baha (أو baha) = Prinesep's Useful tables part 1, p. 76 Calcutta 1834).

ويذكر كروفورد Crawford أنها (بهارا) وهى وحدة الوزن الوحيدة التى دخلت منطقة الأرخيبيل عن طريق العرب ، وكانت لا تزال مستخدمة بين أهل ملقى عندما وصلها البرتغاليون

(Descriptive Dictionary of the Indian Islands sub voce : Weights).

ويذكر هاملتون أن البهار كوحدة وزن استخدم فى أنحاء مختلفة من جزر الهند الشرقية على أيامه (Pinkerton Voyages Vol. VIII, p. 518.)

أما الكوريا Curia فهى بلا شك تقابل الكوراجا Koraja ، أما الفوراسولا Forasola فهى جمع فارسالا Farsala وكلامها يستخدمه العرب على سواحل البحر الأحمر والخليج الفارسى ، لكننى لا أعرف أصلها ، وإن كان الاسم الأخير يبدو أنه مطابق لكلمة Forasola التى هى تحريف لكلمة Parah وهذه الأخيرة وحدة وزن هندية قديمة كانت شائعة فى مختلف أنحاء الهند كما كانت مكيالا للجبر وغيره . أما الكوراجا فتعنى الرقم ٢٠ وتستخدم فى عد بالات جلود الحيوان والأقمشة ٠٠٠٠ الخ . فكل لغة قماش أو بالة جلد تحرى الواحدة منها عشرين قطعة . وكانت تكتب جورج (جمع : جورجيات) فى قوائم البضائع المشتراة فى المغا (باليمن) سنة ١٦١٢ ٠٠٠٠ (بادجر) . (٣٥) يقول بادجر : ربما كانت الكلمة من الفارسية Sar وهو طائر الزردوزر .

بهجة في هذا العالم من اصاخة السبع لشدو هذه الطيور ، فكأنكم في الفردوس فالأشجار كثيرة ، والخضرة دائمة ، ولا برودة قارسة ولا حرارة لأفحة .

ويوجد هنا أعداد هائلة من القروء ويساوى الواحد منها أربعة كاسات Casse والكاس الواحد يعادل كاترينو واحد Quattrino . وتلحق هذه القروء أضرارا كبيرة بالفقراء الذين يشتغلون بصناعة النبيذ (٣٦) لأنها تتسلى أشجار الكاكاو وتشرب ما بها من سائل ، وتلقى بالقوارير التي لا تستطيع شرب ما بها .

الحيات (٣٧) في كلكتا

في كلكتا نوع من الحيات أضخم من الخنزير الكبير ورأسها أكبر من رأسه بكثير ، ولها أقدام أربع وطولها أربع برازات (٣٨) braza . وهو يوجد في مستنقعات معينة . ويقول أهل كلكتا انه لا اسم لها ، الا انها حيوانات شريرة تلحق بأسنانها الضرر بالناس . وثمة ثلاثة أنواع أخرى من الكائنات اذا عضت شخصا عضه بسيطة ، سحبت دمه وسقط على الأرض مفارقا الحياة . وغالبا ما كان يحدث هنا ، أثناء وجودي بهذه البلاد ، أن لدغت هذه الكائنات أشخاصا عديدين . والنوع الأول من هذه الكائنات يشبه الأفعى الأصم ، والنوع الثاني هو العقارب والنوع الثالث هو الشريس thrice ، وخجته كخجتم العقرب . ويجب أن تعلم أنه اذا علم ملك كلكتا بمكان إحدى مستعمرات (أعشاش) هذه الكائنات المؤذية ، أقام فوقها منزلا صغيرا خوفا من تلويثها الماء واذا قتل أحد الأشخاص إحدى هذه الكائنات أعدته الملك في الحال ، ويسرى الحكم نفسه على كل من قتل بقرة . فهم يقولون أن هذه الحيات (المقصود الكائنات المؤذية : حيات ، عقارب . . . الخ) هي أرواح الله ، والا لما أعطاها الله مثل هذه القوة التي تمكنها بعضة بسيطة أن تورث الشخص مآزدا التهلكة في الحال . لذا فهناك عدد معين من هذه الكائنات يعرفها الوثنيون ولا يتخاشونها . وفي الفترة التي كنت فيها في كلكتا دخلت إحدى هذه الكائنات منزلا بالليل ولدغت تسعة أشخاص ، وفي الصباح

(٣٦) المقصود نبيذ شجرة الكاكاو (التودي Toddy) وقد أشارنا فيما إليه في فصل سابق .

(٣٧) أدبج. فارتيمافى هذا الفصل : العقارب ، والتناسيح ، وغيرها من الحيوانات والحشرات السامة ، وفارتيمافى يطلق على كل هذا اسما شاملا هو Serpents . لذلك لزم تنبيه القارئ - (المترجم) .

(٣٨) المقصود هنا هو التمساح - (بادجر) .

وجدوا جميعا أمواتا ومتورمين • وعندما يصادف أحد الوثنيين أيا من هذه الكائنات المؤذية ، أثناء قيامه برحلة ، اعتبر ذلك فلا حسنا •

الأضياء في منزل ملك كلكتا

بمنزل ملك كلكتا ، عُرف عديدة تضياء خالما يحل المساء بمصباحين أنبوية كالمزهريات على هيئة نافورات ، يبلغ تعدادها عشرة أو اثنتي عشرة ، من سبائك معدنية ، وارتفاع المصباح (النافورة) منها ارتفاع قامة رجل • ولكل من هذه المزهريات النافورية ثلاثة تجويفات لوضع الزيت على ارتفاع شبرين من الأرض • والطبقة الأولى من هذا المصباح (النافورة) بها زيت وفتائل قطن مضاءة ، دائرية تماما ، وفوق هذه الطبقة يوجد طبقة أخرى أكثر ضيقا من مصباح الطبقة الأولى (الأقرب للأرض) ومضاءة بالطريقة ذاتها ، وفي قمة المصباح (النافورة) توجد طبقة أخرى أصغر من الثانية يشتعل فيها الزيت • وقاعدة هذه النافورة ذات المصباح الثلاثة مثلثة الشكل ، وعلى وجه من وجوهها ، ثلاثة شياطين بالنحت البارز ، ذوو منظر مرعب • هذه هي الحوامل التي تضيء أمام الملك • ولهذا الملك عادة أخرى ، فعندما يموت واحد من ذوى قرباه - ينتظر حتي تنتهي سنة الحداد ، ثم يدعو كل رؤساء البراهمة في مملكته ، وبعض البراهمة من خارج مملكته ليعقيموا حفلا كبيرا لثلاثة أيام • ويتكون طعامهم من الأرز - الذي يطبخونه بطرق مختلفة - ولحوم الخنازير البرية ، وقدر كبير من لحم الغزال ، فهم صيادون مهرة • وبعد انقضاء الأيام الثلاثة يقدم الملك لكل رئيس برهمي ثلاثة باراديات Paradi واربعة وخمسة ، ثم يعود كل الى منزله ، ويقوم كل فرد من أفراد المملكة بحلق ذقنه ابتهاجا •

كيف اتى عدد كبير الى كلكتا في ٢٥ ديسمبر

لتلقى الغفران ؟

ثمة معبد في وسط بركة بالقرب من كلكتا ، على طراز معماري قديم ، به صقان من الأعمدة ، ويشبه كنيسة القديس جيوفاني في فونت بروما (٣٩) • وفي وسط هذا المعبد ، مذبح حجري تقدم فيه الاضحيات •

Padarane

(٣٩) ربما كان هو المعبد الذي زاره جاما في طريقه من باداران

الى كلكتا بست سنوات ٠٠٠ (بادجر) •

وبين كل عمودين من أعمدة الحلقة الدنيا تنتصب بعض تماثيل حجرية لسفن ، وطول كل سفينة حجرية خطوتان * وهى مملوءة بزيت خاص يقال له انا Enna (٤٠) وحول حواف البركة أعداد كبيرة من الأشجار من نوع واحد ، عليها مصابيح زيتية كثيرة جدا بحيث يصعب احصاؤها ، وحول المعبد نفسه توجد مصابيح زيتية كثيرة كثرة هائلة كتلك المعلقة على الأشجار . ولما حل اليوم الخامس والعشرون من ديسمبر أتى الى هنا النيرى Naeri والبرهميون - بعد أن يكونوا قد قطعوا رحلة مدتها خمسة عشر يوما ، كما يقال - لتقديم أضحياتهم (فى هذا المعبد) ويقومون جميعا بالاغتسال فى هذه البركة قبل تقديم الأضحيات * ثم يعتلى كبير براهمة الملك احدى السفن الحجرية الصغيرة وهو منفرج الساقين ، حيث يوجد الزيت ، ويتقدم كل هؤلاء الى البرهمنى ليمسح رؤوسهم جميعا بهذا الزيت ، ثم يقدمون أضحياتهم على المذبح اذ يوجد عند أحد طرفيه شيطان كبير جدا يتوجهون اليه جميعا بالعبادة ثم يعودون من حيث أتوا * وفى هذا الموسم تباح الأرض لثلاثة أيام فهم لا يستطيعون الانتقام من بعضهم (لا يستطيعون الأخذ بالثأر) والحق أقول ، اننى لم أر مثل هذا الجمع العظيم من الناس فى وقت واحد ، بهاستثناء ما رأيته فى مكة المكرمة * يبدو لى أننى شرحت لكم بما فيه الكفاية عادات أهل كلكتا وطرائق معيشتهم وعقائدهم وأضحياتهم * ولأنى بصدد مغادرتها ، فسأقص لكم خطوة خطوة بقية رحلتى وكل ما حدث لى خلالها *

(٤٠) ربما كانت من كلمة نه Neh وهى احدى الألفاظ السنسكريتية التى تطلق على الزيت مضافا اليها أداة التعريف العربية (ال) التى تنطق أحيانا (ان) فى حالة الادغام - (بادجر) *

السَّفَرُ السَّابِعُ

وهو السفر الثالث عن الهند

كان من رأى رفيقى خَوْجَة ذُو النُّور Cogiazenor (١) أنه لن يستطيع بيع بضائعه لأن الملك البرتغالى خرب كلكتا Calicut ، قال التجار الذين كانوا قد تعودوا التردد عليها ، لم يعودوا يفعلون ذلك ، وليس من المتوقع أن يأتوا مرة أخرى ، لأن ملك كلكتا وافق على رأى المسلمين بإعدام أربعة وثمانين برتغاليا ، رأيتهم بعينى وهم يعدمون . فالملك البرتغالى فى حالة حرب دائمة ، انه كل يوم يقتل ويقتل أعدادا كبيرة . ولذلك فالمدينة آنفة الذكر قد خربت لأنها فى حالة حرب دائمة (٢) . ولهذا فقد غادرناها ، بالطريق النهري . وحقا انه لنهر جميل ، بل أكثر الأنهار التى رأيتها جمالا ، ووصلت لمدينة يقال لها كاكولون Cacolon (٣) تبعد عن

(١) يبدو أنه الشخص نفسه الذى تعرف عليه فارتيا فى مدينة شيراز ، واتخذة رفيقا - (بادجر) .

(٢) رغم أن زامورين Zamorin قد استقبل لأول مرة فاسكو دى جاما بترحاب إلا أن المسلمين من أهل البلاد عامة - والعرب الوافدين خاصة ، الذين كان لهم تأثير كبير على بلاط الملك ، والذين كانوا يخشون على تجارتهم من المنافسة البرتغالية - بدلوا قصارى جهدهم لتغيير وجهة نظر الملك . ونتيجة هذا فقد غادر فاسكو دى جاما دون وضع أسس علاقات تجارية مع كلكتا . وبعد ذلك بعامين ، نجح بدرو كابرال Cabral فى تأسيس محطة تجارية هناك لكن التجار المكين رفضوا تقديم أى بضائع لها ، وحرصوا على الهجوم على المحطة ، فتم تدميرهم تماما ، وقتل عدد كبير من البرتغاليين . وكرد فعل ضد هذا الهجوم ، قصف كابرال المدينة بالمدافع ، كما الحق البرتغاليون بقيادة خوان دى نيفا Juan é Nueva الهزيمة بأسطول زامورين . وظهر فاسكو دى جاما فيها بين ١٥٠٢ و ١٥٠٣ مرة أخرى أمام كلكتا وحاصر خسين من المالابارين Malabarians فى البحر وشنتهم على سفنه . ثم أمر بإرسال أيديهم وأقدامهم المبتورة إلى البر ، وبعد ذلك قصف كلكتا بمدفعه لعدة ساعات فحطم عددا من المباني من بينها قصر زامورين . وفى سنة ١٥٠٥ قدم إلى كلكتا لوب سورز Lope Soarez بأسطول من ثلاثين سفينة ، وبهذه المناسبة سلم له الملك زامورين بعض الأسرى الذين وقعوا فى الأسر فى الحروب السابقة لهذا القائد البرتغالى ، إلا أنه قصف المدينة طوال يومين ، لأن بقية الأسرى لم يسلموا له ، ودمر جانب كبير من المدينة من جراء هذا القصف ، كما قتل ثلاثمائة من سكانها . وإذا وضعنا فى الاعتبار أن فارتيا يجب أن يكون فى كلكتا فى ذلك الوقت ، فالتنى أن هناك احتمالا كبيرا أن يكون البرتغاليون الثمانية والأربعون الذين زاهم قتل ، كانوا هم بأعينهم الأسرى الذين لم يسلموا إلى لوب سورز . Soarez (Greene's Collection of Voyage, Vol. 1, pp. 29-57. أنظر :)

(٣) لم تسمى الخرائط لسوء الحظ من أن أقرر ما إذا كان الإبحار داخل البر ممكنا عمليا فى اتجاه الجنوب بدءا من كلكتا ، أم لا ، ولم يحدثنا هورسبرج Horsburgh عن هذه المسألة بالذات ، إلا أنه إذا كان أطلس كيث جونستون الهيدروجرافى Keith Johnston's Atlas صحيحا ، فإن هناك اتصالا مائيا مستمرا ، تكونه الأنهار المختلفة =

كلكتا خمسين فرسخا (٤) •

وملك كاكولون وثنى ولا يتمتع بشراء كبير • أما عن أسلوب الحياة فيها ، وطريقة اللباس ، والعادات والتقاليد ، فجميعها على غرار ما فى كلكتا •

ويصل الى هنا تجار كثيرون لأن مساحات هائلة تزرع بالفلل ، وهو من نوع جيد • وفى هذه المدينة وجدنا بعض المسيحيين التابعين للقديس توما St Thomas ، وبعضهم تجار ، وعقيدتهم فى السيد المسيح (عليه السلام) كعقيدتنا • وهم يقولون انه كل ثلاث سنوات يأتيتهم من بابلون Babylon قس (كاهن) لتعميدهم • وهؤلاء المسيحيون يصومون الصيام الكبير Lent مدة أطول من المدة التى نصومها ، الا أنهم يحتفلون بعيد الفصح Easter مثلنا ، ويحتفظون له جميعا بالقدر نفسه من الاجلال والتقدير ، الذى نحفظ نحن به لهذا العيد ، غير أنهم يرتلون التراتيل الدينية بشكل جماعى كما يفعل اليونانيون • وأسماؤهم أربعة هى جون وجيمس وماتو Matthew وتوماس Thomas (٥) • ولا تختلف هذه

= والمصبات التى تجرى بمحاذاة الساحل ، ممتدة من بانان Panane لمسافة ثمانية وعشرين ميلا الى الجنوب من كلكتا وحتى كويلون Quilon التى تقع على بعد درجتين تقريبا من بانان Panane • وهذه الحقيقة تؤيد الى حد ما قول فارتيما أنه قد سلك فى رحلته الى هذه المنطقة نهرا ، الا أننى أميل الى الظن أنه ربما سلك مجرى موسميا مختصرا جدا الى البحر من مصب نهر الى مصب نهر آخر ٠٠٠٠ (بادجر) •

(٤) لقد بحثت عبثا عن هذا الموضع فى Thornton's Gazetteer • وجدت الاسم مكتوبا هكذا Kayan Kulam فى أطلس Keith Johnston ، الا أن Quilon أيضا كانت دلالتها (تحديدها) خاطئا • فالموضعان محددان ، ويدوان دائما ، ولكل واحد منهما اسم مميز عن اسم الموضع الآخر • وقد قال باربوسا Barbosa (بعد فارتيما بسنوات قلائل) : « بعد تجاوز الموضع المشار اليه (يقصد بورسا Porca) تبدأ مملكة كولان Coulan وأول موضع يواجه المسافر هو كانكولان Caincoulan الذى يسكنه كثيرون من الوثنيين Gentiles والمسلمين والمسيحيين المؤمنين بمذهب القديس توما Saint Thomas ويعيش عدد كبير منهم (أى من المسيحيين) بين الوثنيين فى المناطق الداخلية ، وينمو الفلفل الأسود بوفرة فى هذا الموضع وتشجته أعداد كبيرة من السفن » • أما بالدوز Baldaeus فيصف كانكولام Kayan Kulam بعد ذلك بحوالى قرن ونصف ، على هذا النحو : « والمملكة التالية المجاورة لبورسا porca ليست مترامية الأطراف ، وللهولنديين مركز تجارى بها ، أما هاملتون الذى كتبها على هذا النحو Coilcoloan . فيقول « إنها امارة صغيرة تشترك فى الحدود مع بوركا Porkah » • وهذان المؤلفان الاخيران ذكرا كولون Quilon أيضا ، والاول منهما كتبها هكذا Coulan ، أما الآخر فكتبها هكذا Coilan - (بادجر) •

(٥) لو أن فارتيما ذكر هذه الأسماء كامثلة لما يسمى به هؤلاء المسيحيون مواليدهم ، لكان أكثر دقة ، وربما كان هذا (أى ضرب الأمثلة) هو ما يقصده • ومن الصعب أن نقرر من خلال الروايات الناقصة والأحكام المسبقة مذهب هؤلاء المسيحيين أو أن نقرر ما اذا كانوا يتبعون مذهباً واحداً أو مذاهب مختلفة • فملاحظات فارتيما عنهم موجزة جدا ، =

المنطقة فى طبيعتها وهوائها وموقعها عما هو فى كلكتا . وفى نهاية اليوم الثالث غادرنا هذه البلدة وذهبنا الى مدينة أخرى يقال لها كولون (٦) Colon تبعد عن كالكون عشرين ميلا . وملكها ونى ، وهو قوى جدا ، فلديه ٢٠٠٠٠ فارس وعدد كبير من رماة السهام ، ولا يكف عن خوض غمار الحرب مع غيره من الملوك . ولهذه المنطقة ميناء جيد . ولا تنمو الغلال هنا ، الا أن الفاكهة والفلفل الأسود يزرعان بمساحات شاسعة كما هو الحال فى كلكتا . أما عن ألوان سحن هؤلاء الناس وطريقة لباسهم وأسلوب حياتهم وعاداتهم ، فهى جميعا كما فى كلكتا . وفى الوقت الذى زرت فيه هذه المدينة ، كان ملكها صديقا لملك البرتغال فى الوقت الذى كان فيه يخوض الحروب مع الملوك الآخرين ، فكان من الخير مغادرة هذا المكان ، فاتخذنا سميلنا بحرا لمدينة يقال لها شايلا Chayl (٧) تابعة لملك كولون Colon نفسه وتبعد عنها خمسين ميلا . وقد رأينا الناس يصطادون اللؤلؤ هنا ، بالطريقة ذاتها التى وصفتها لك عند حديثى عن هرمز .

= وما قاله ينطبق بدرجة واحدة على اليعاقبة السوريين أو النساطرة ، باستثناء ملاحظته عن بابلون ، فإذا ما ذكره صحيحا (أو كان خطؤه فى اسم الموضع أقل من خطئه فى تعريف المذهب) فلاشك أن ذلك يوجد علاقة بين هؤلاء المسيحيين الذين قابلهم فى كاكولون Cacolon بمدينة بابلون . فالكاثوليك أو بطرارية بابلون هما مسنيان غامضان لأسقفية النساطرة أثناء وجودها فى المراكز الملكية (المقار الملكية) فى Seleucia و Ctesiphon وبغداد (على التوالى) ، وفى وقت يرجع الى انشاء البطريركية النسطورية فى بغداد ، التى كانت مقرا للبطريرك اليعقوبى فى ذلك الوقت ، ولا يزال هذا البطريرك يتخذ من ماردن Mardin فى العراق مقرا له . وفى أيامنا هذه فإن مسيحيي المآبار - كما يسمون عادة - منقسمون الى قسمين متميزين عن بعضهما البعض ، أحدهما تابع للأسقفية البطريركية الكلدانية Chaldean Patriarch فى الموصل (الكلدانيون . اسم يطلق على النساطرة فى تركيا وفارس ، الذين أعلنوا تبعتهم لكنيسة روما) ، والأخرى تفر بالبطريركية السورية اليعقوبية فى ماردن ٠٠٠ الخ - (بادجر) .

(٦) وهى مدينة كويلون Quilon المعاصرة وتقع فى ولاية ترافانكور Travancore الوطنية ، على ساحل البحر ، فى منعطف يمكن السفن من الرسو فى حماية طبيعية تمتد حوالى ميلين ونصف أو ثلاثة أميال من الحصن ٠٠٠٠ الخ - (بادجر) .

٠ (٧) لا يظهر هذا الاسم على الخرائط ، لكن بمقارنة ما كتبه فارتيما بما كتبه باربوسا Barbosa نستنتج أنها هى نفسها المدينة التى أشار لها هاملتون باسم كويل Coil والتى حددها - أى هاملتون - الى الشمال الشرقى من توتيكارين Tutecareen ٠٠٠ التى كانت مشهورة بصيد اللؤلؤ .

كيورماندل Ciormandel المدينة الهندية

ثم تقدمنا حتى وصلنا لمدينة كيورماندل (٨) وهي منطقة بحرية ، تبعد عن كولون سبعة أيام بالطريق البحري ، وقد يزيد طول الرحلة اليها قليلا أو ينقص قليلا وفقا لمدى موااة الرياح • وكيورماندل مدينة كبيرة جدا ، ولا يحيطها سور ، وهي خاضعة للملك نارسنجا Narsinga ، وتقع كيورماندل قبالة جزيرة زيلون Zeilon بعد تجاوزك رأس كيوميرين Gumerin • وفي هذه الولاية يحصلون كميات كبيرة من الأرز ، وهي طريق (معبر) لبلاد ومناطق واسعة عظيمة • ويوجد هنا عدد كبير من التجار المسلمين يترددون عليها لجلب بضائعها • وليس ثمة بهارات من أى نوع تنمو هنا ، وإن كانت غاصة بالفاكهة ، كما هو الحال فى كلكتا • وقد وجدت بعض المسيحيين فى هذه الولاية ، وقد أخبرونى أن رفات القديس توماس Thomas موجود على بعد اثني عشر ميلا من هذه المدينة ، وأنه تحت حراسة بعض المسيحيين ، كما أخبرونى أن المسيحيين فى هذه المنطقة سوف لا يستطيعون الحياة فيها بعد أن قدم ملك البرتغال بقواته اليها ، لأنه أعدهم عددا كبيرا من المسلمين الذين ترتعد فرائصهم منذ ذلك الوقت خوفا من البرتغاليين، لذلك فهؤلاء المسيحيون البؤساء لن يستطيعوا البقاء هنا بعد ذلك ، لأن المسلمين يستدرجونهم بعيدا ويقتلونهم سرا حتى لا تصل أنباء قتلهم للملك نارسنجا Narsinga باعتباره صديقا حميما للمسيحيين عامة ، والبرتغاليين منهم على نحو خاص • وقد أخبرنى واحد من هؤلاء المسيحيين أيضا بمعجزة مبهرة جدا أخبره بها قسيسه ومؤدى هذه المعجزة أنه منذ خمسة وأربعين عاما اشتبك المسلمون مع المسيحيين ، وكان هناك جرحى من الطرفين ، ولكن أحد المسيحيين كان مضابا فى ذراعه بجرح بليغ أخطر من جروح الآخرين ، فذهب الى قبر القديس توماس ولمسه بذراعه الجريحة فشفى فى الحال (٩) ، ومنذ ذلك الوقت تعاطف

(٨) لا أعلم أن مدينة بهذا الاسم قد وجدت فى أى وقت على الساحل المشار اليه ، وعلى هذا فقد انتهيت الى الاستنتاج بأن فارتيجا يعطى اسم الولاية للمدينة الواقعة بها كما فى هذا المثال وكما فى حالة بيجابور Bijapur التى أسماها الدكن Decan (بادجر) •

(٩) انها معجزة بسيطة اذا قورنت بمعجزات أخرى كثيرة منسوبة لطريح القديس توماس • فقد ذكر باربوسا Barbosa روايات كاذبة عن أن الذراع اليمنى لهذا القديس (النبى) تخرج من قبره فى مالياپور Maliapur وظلت لفترة طويلة تستعصى على كل محاولة لدفعها - (بادجر) •

ملك نارسنجا مع المسيحيين . وقد باع رقيقى فى الرحلة بعضا من بضائعه هنا ، ولأن الحرب كانت مستعرة مع ملك تارناسارى Tarnasari فلم نمكث هنا سوى أيام قلائل ثم استقللنا سفينة مع بعض التجار الآخرين ، وكانت سفينتنا من النوع المسمى سمبان Sampan (١٠) لأن قيعانها مسطحة (مستوية) ، وأخذنا معنا قليلا من المياه وكثيرا من البضائع . وعبرنا خليجا يبلغ اثنى عشر أو خمسة عشر فرسخا حيث عانينا ولحققت بنا أضرار كثيرة لوجود كثير من المياه الضحلة والصخور ، وعلى أية حال ، فقد وصلنا لجزيرة اسمها سيلان (١١) ، محيطها حوالى ألف ميل ، وفقا لتقديرات سكانها .

جزيرة سيلان حيث يستخرجون الجواهر

فى جزيرة سيلان Zailon هذه ، أربعة ملوك (١٢) ، كلهم وثنيون . ولا أصف لك كل ما فى هذه الجزيرة ، لأن ملوكها كانوا يحارب بعضهم ، بعضهم الآخر ، لذلك لم نستطع الإقامة طويلا ، وبالتالي لم نستطع أن نرى أو نسمع بشكل كاف ، الا أنه فى الأيام القلائل التى مكثناها رأينا ما تقصه عليك . وفى البداية نقول لك ان الأفيال توجد هنا بأعداد هائلة (١٣) . وقد رأينا أيضا الياقوت الأحمر rubies ، على بعد ميلين من ساحل البحر ، حيث يوجد جبل شاهق ، ممتد امتدادا كبيرا ، وعند سفحه يوجد الياقوت الأحمر ، الآنف ذكره . وعندما يرغب أحد التجار فى البحث عن هذه الجواهر (الياقوت الأحمر) فلا بد له أن يطلب ذلك من

(١٠) اسم شائع لنوع من الزوارق فى الملايو وجاوا (بادجر) . أقول : هناك نوع من هذه الزوارق فى الخليج العربى وعمان وسواحل البحر الأحمر الشرقية يقال له (سنبوك) وتبدل النون ميمما هكذا (سنبوك) عند النطق ، وربما كان هو المقصود هنا - (المترجم) .

(١١) كتبها فارتيمما هكذا : Zailon - (المترجم)
(١٢) ذكر ماركو بولو أن عدد ملوك سيلان على أيامه كانوا - أيضا - أربعة ، وقد كتب السير ج . إ . تينلت سنة ١٥٠٥ ما يؤكد ذلك فقد ذكر أن كل السواحل فى أيدى المسلمين ، أما الجزء الشمالى فى أيدى المالاباريين وعاصمة دولتهم جافنا باتان ، أما المنطقة الوسطى فمقسمة الى كيانات قبلية ويوجد كيان سياسى آخر فى الجنوب عاصمته كوتا . . . (مختصر عن بادجر) .

(١٣) بدأت الأفيال تتناقص بعد ذلك - (عن بادجر) .

الملك قبل أن يشرع في البحث ، وأن يشتري برازا braza مربعة من أرض سفح الجبل (البرازا تسمى مولان Molan) (١٤) مقابل خمس دوكات . ويتعين على التاجر أن يبقى في بلاط الملك ، عندما يشرع رجاله في حفر الأرض بحثا عن الياقوت الأحمر ، فإذا تم العثور على جوهرة تزيد على عشرة قراريط كانت من حق الملك ، أما باقي الجواهر التي تقل الواحدة منها عن القراريط العشرة ، فمن نصيب التاجر . ويستخرج أيضا بالقرب من الجبل آنف الذكر حيث يوجد نهر كبير للغاية (١٥) - كميات كبيرة من العقيق الأحمر garnets والياقوت الأزرق Sapphires والوردى Jacinths والياقوت الأصفر nopazas (١٦) . وفي هذه الجزيرة تنمو أفضل فاكهة ، فلم يسبق لي أن رأيت أفضل منها ، خاصة بعض الحرشف artichokes (١٧) فهو أفضل مما في بلادنا .

والبرتقال السكري هنا هو أفضل أنواع البرتقال في العالم ، كما اعتقده ، وهنا فواكه أخرى كثيرة كالتى فى كلبتنا ، الا أنها هنا أفضل .

شجرة القرفة

Canella

شجرة القرفة تشبه شجرة الغار (١٨) خاصة في أوراقها ، وتثمر بعض الثمرات العنبية كالغار ، الا أن ثمراتها هذه أقل حجما من الرند (الغار) وأكثر شحوبا منه . والقرفة آنفة الذكر (Canella or Cinnamon) هي لحاء هذه الشجرة . وهم يقطعون فروع أشجار القرفة هذه كل ثلاث سنوات ، وينزعون لحاءاتها عقب ذلك ،

(١٤) البرازا تساوى فدانين انجليزين ، أو أربعة رودات roods مربعة ، والروء كما فى معجم المورد مقياس لمساحة الأرض يساوى ربع أكر (فدان انجليزى) ، ومقياس للطول يساوى ٧ أو ٨ ياردات أو $37\frac{1}{4}$ بوصة مربعة - (عن بادجر ، ومعجم المورد) . (١٥) ربما كان هو نهر كالينجوجا Kalané-gauga الذى وصفه بردهام Pridham « انه النهر الرئيسى فى الجزيرة . ويتكون مجراه من سيول عديدة تشكل منبعه فى القسم الغربى من سلسلة جبال سفراجام Saffragam عند لقائها مع قمة آدم ٠٠٠ (بادجر) .

(١٦) هذه الأنواع ، بالإضافة لأنواع أخرى ، عددها ووصفها تيننت فى مرجعه عن سيلان Vol. 1. pp. 33-38.

(١٧) بقل معروف من المركبات الأنبوبية الزهر ، وأسموه الخرشوف حديثا ، ويسمى فى الشام أنكنار ، وأرضى شوكنى وهما عاميتان .

عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية - (المترجم) .

(١٨) الغار أو الرند ينبت برىا ويصلح للتزيين ، ومن أنواعه Laurel oak أى البلوط غارى الورق ، وقد يكون هو المقصود هنا . عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية - (المترجم) .

الا أنهم لا يقطعون سوق هذه الأشجار بأية حال . وتنمو أشجار القرفة هنا بأعداد كبيرة . ولا تصبح القرفة من النوع الممتاز بعد مرور شهر على جمعها ، وقد أخبرني تاجر مسلم أنه فوق قمة هذا الجبل الشاهق كهف ، يذهب اليه أهل البلاد (من غير المسلمين) مرة كل عام للصلاة فيه لأن آدم (عليه السلام) - كما يقولون - كان يصلي ويكفر عن خطيئته فيه ، ولا زالت آثار قدميه ترى حتى أيامنا هذه ، ونشير آثار قدميه الى أن قدمه كانت تبلغ شبرين طولا (١٩) .

والأرز لا ينمو في هذه المنطقة وإنما يستوردونه من بر الهند . وملوك هذه الجزيرة تابعون للملك نارسنجا . وهواء الجزيرة طيب ، وأهلها ذوو بشرة سمراء مصفرة . والمناخ هنا معتدل فلا هو ممعن في الحرارة ولا هو ممعن في البرودة . وملابسهم فضفاضة على النسق الروماني ، فهم يلبسون قطعاً من النسيج القطني أو الحريري ، وهم حفاة . وتقع هذه الجزيرة تحت خط الاعتدال equinoctial Line ، وأهلها ليسوا مولعين بالحروب ، ولا تستخدم المدفعية هنا ، إلا أن لديهم بعض الرماح الخيزرانية والسيوف ، وبهذه الأسلحة يقاتل بعضهم بعضاً ، إلا أنهم لا يقتلون بعضهم كثيراً ، فهم أنداد جبناء (٢٠) . ويوجد هنا ورود وزهور من كل نوع ، وأعمار الناس هنا ، أطول من أعمارنا ، وقد قدم الى سفينتنا ذات مساء ، رجل من بلاط الملك ، مرسل لرفيقي ، وأخبره أن الملك يطلب منه احضار ما معه من مرجان وزعفران ، وكان مع رفيقي كميات كبيرة منهما . لكن تاجرا مسلما من هذه الجزيرة سمح هذا العرض ، فهمس في أذن رفيقي (٢١) ، وأسر اليه قائلاً : لا تذهب للملك لأنه سيبادل بضاعتك الجيدة ببضاعته القديمة « وكان هذا مكرًا من التاجر المسلم حتى يذهب رفيقي ببضاعته بعيداً ، فيتمكن هو من تصريف بضاعته ، فقد كان لديه النوع نفسه من البضاعة . وعلى أية حال فإن رفيقي أخبر رسول الملك بأنه سيجر على بلاط سموه في اليوم التالي ، وعندما أشرق الصبح استقل سفينة أوصلته الى البر الرئيسي (البر الهندي) .

(١٩) قمة آدم يبلغ ارتفاعها ٧٤٢٠ قدماً فوق مستوى سطح البحر ١٠٠٠ وعلى القمة توجد خطوه القدم المقدسة (سرى باندا) ، ويعتقد البوذيون أن آثار الأقدام هذه لجواتاما بوذا Buddha أما المسلمون فيقولون أنها لآدم عليه السلام ويطلقون عليها (بابا آدمالي) أي (أبونا آدم) أما الهنود المالايايون فيقولون أنها للاله شيفا Siva (مختصر عن بادجر) .

(٢٠) يبدو أن الأسلحة النارية لم تكن معروفة في سيلان زمن رحلة فارتيما وقد وصفهم ماركوبولو بأن أهل البلاد لا يصلحون أن يكونوا جنوداً (مختصر عن بادجر) .
(٢١) أي رفيقه الفارسي خوجه ذو النور الذي تعرف عليه في مكة المكرمة ، وقابله في فارس ، وصحبه الى الهند - (المترجم) .

رحلات - ١٦١

باليكت احدى مناطق الهند

وصلنا فى غضون أيام ثلاثة لمنطقة باليكت Paleachet (٢٢) التابعة لملك نارسنجا . وهذه المقاطعة احدى المناطق التى تمر بها كميات هائلة من البضائع خاصة الجواهر التى تصل الى هنا من سيلان وبيجو pego ويوجد هنا أيضا أعداد كبيرة من التجار المسلمين يتاجرون فى كل أنواع البهارات . وقد أقمنا فى بيت تاجر مسلم وأخبرناه بالموضع الذى قدمنا منه ، كما أخبرناه بأن معنا كميات كبيرة من المرجان نبيعها ، وكميات كبيرة من الزعفران والمخمل المشجر ، وكثير من السكاكين . فلما علم بأن معنا كل ذلك غمرته السعادة . وتزخر هذه المقاطعة بكل ما تنتجه الهند ، الا أن الغلال لا تزرع هنا ، فلديهم وفرة كبيرة فى الأرز . أما عن قوانينهم وأساليبهم فى الحياة وعاداتهم فهى كال الموجودة فى كلكتا . والناس هنا مقاتلون أولو بأس رغم أنهم لا يمتلكون المدافع . ولأن هذه المقاطعة كانت فى حالة حرب مع ملك تارناسارى ، فأننا لم نتمكن من البقاء لمدة طويلة ، فقد اتخذنا طريقنا - بعد أن مكثنا بضعة أيام الى مدينة تارناسارى التى تبعد ألف ميل ، ووصلنا هنا بعد رحلة بحرية استغرقت أربعة عشر يوما .

Tarnasari تارناسارى المدينة الهندية

تقع مدينة تارناسارى بالقرب من البحر ، وأرضها مستوية ، يمكن ريتها بسهولة ، ولها ميناء جيد ، وملكها وثنى ، وهو ملك قوى للغاية فهو دائم الحرب مع ملك نارسنجا وملك البنغال . ولديه مائة فيسيل مدرع (مسلح) وهى أفيال ضخام لم أر أبدا أضخم منها . وهو يحتفظ بشكل دائم بمائة ألف مقاتل استعدادا للحرب ، بعضهم مشاة وبعضهم خيالة . وتكون أسلحتهم من السيوف الصغيرة وبعض أنواع التروس ، جانب

(٢٢) مدينة فى ولاية شنجلبوت Chingleput الى الشمال من مدراس بحوانى ٢٢ ميلا ، وتقع على بحيرة ماء مالحة متصلة بالبحر ٠٠٠ (عن بادجر) .
(*) لم يهتد د . فسكنت الى موضعها على الخرائط المتاحة له ، ولكنه استنتج أنها بين باليكت والبنغال ، وهو تحديد غير مجد لأن المسافة بين الموضعين أكثر من ألف ميل .
ولم يهتد بادجر إليها عند فحصه لخرائط الساحل الهندى الجنوبى ٠٠ (عن بادجر) .

منها مصنوع من ظهور السلاحف كالتي رأيتها في كلكتا • ولديهم كميات كبيرة من السهام والرماح والخيزرانية وبعضها من الخشب • وعندما يخرج هؤلاء المقاتلون للقتال فإنهم يرتدون ملابس محشوة بالقطن • وببوت هذه المدينة حسنة البناء ومسورة ، وموقعها ممتاز يلائم المسيحيين ، وتندو الغلال الجيدة هنا وكذلك القطن ويتم تصنيع الحرير بكميات كبيرة ، وتوجد هنا كميات كبيرة من الخشب البرازيلي ، أما الفاكهة فهي متوفرة وفرة هائلة ، وبعض هذه الفواكه تشبه تفاحنا ، ويوجد أيضا الكمثرى ، وبعض البرتقال ، والليمون ، والأترجة Citrons واليقطين بكميات وافرة • ويرى المرء هنا بساطين جميلة جدا بها ما لذ وطاب •

الحيوانات المستأنسة والمتوحشة

في تارناسارى

نجد في تارناسارى الشيران والأبقار والضأن والماعز بأعداد كبيرة • كما توجد الخنازير الوحشية والأياثل واليهامر (جمع يحمور roebucks) (٢٣) والذئاب وسنانير الزباد ، والأسود والطوايس بأعداد هائلة والصقور والبيزان (جمع باز) والبيغاوات البيض ، وطيور أخرى ذوات ألوان سبعة في الغاية من الجمال • أما الأرانب والحجل (أو القبج) (٢٤) ، فلا تشبه ما عندنا • ويوجد أيضا نوع من الطيور المفترسة ، أكبر من النسر بكثير ، والواحد منها له منقار (٢٥) ، جانبه العلوي كمقبض السيف ، ولونه أصفر وأحمر • إن له منظرا رائعا يسهل على الإنسان رؤيته •

أما عن لون الطائر ذاته فهو أسود وأحمر مع وجود بعض الريش الأبيض •

(٢٣) اليحمور ، ويقال له أيضا اليامور ، حيوان لبون من فصيلة الأيايل • عن معجم الشهابي - (المترجم) •
 (٢٤) Partridges هو الحجل أو القبج وهي كلمة عربية عن اللغة الفارسية • والمفرد حجلة وقبجة ، والحجل على أنواع منها الدراج والأشهب والرومي • يتم صيده عن الشهابي - (المترجم) •
 (٢٥) زودنى البروفيسور أوين الخبير بالمتحف البريطاني بأن المنقار الملون ينطبق على طائر اسمه العلمي Buceros gareatus وله اناة (سلطانية) كمفرقة (كبشة) من الجواهر كالتي كانت ترسل من استانبول وكانت جزءا من جواهر تاج السلطان • وعلى أية حال فهذا الطائر لم يعد موجودا الآن - كطائر متوطن - خارج جزر الأرخبيل الهندي • (ملخص تعليق بادجر) •

ويفرخون هنا الدجاج والديكة ، وهى كبيرة الحجم فلم أر دجاجا وديكة أكبر منها أبدا ، فالدجاجة أو الديك هنا أكبر من ثلاثه من الانواع التى نعرفها فى بلادنا . وفى هذه البلاد ، استمتعنا كثيرا خلال أيام قليلة ، بسبب بعض الأمور التى رأيناها ، خاصة أنه فى كل يوم يقوم التجار المسلمون بإجراء مباريات لعراك الديكة حيث يراهن أصحاب هذه الديوك على مبالغ تصل الى مائة دوكلات يحصل عليها صاحب الديك الأكثر براعة فى القتال . ولقد رأينا ديكين يقتتلان طوال خمس ساعات متصلة ، ومات كلاهما فى خاتمة المباراة . ويوجد هنا أيضا نوع من الماعز أكبر كثيرا من الماعز فى بلادنا (أوربا) وهى أكثر عطاء ، فالواحدة منها تلد دائما أربعاً .

وبباع هنا عشرة أو اثنا عشر من الخراف الطيبة بدوكلات واحد . ويوجد هنا نوع آخر من الخراف تشبه قرونها قرون الايل deer وهى أكبر من خرافنا ، وتتعارك بشراسة . ويوجد الجاموس هنا ، وهى أكثر تشوها مما عندنا . والمنطقة غنية بالأسماك الشبيهة بالتي عندنا . وقد رأيت هنا - على أية حال - عظمة سمكة تزن أكثر من عشرة قناطير (٢٦) وبالنظر لأسلوب الحياة فى هذه المدينة ، فإن الوثنيين يأكلون كل أنواع اللحوم خلا لحوم الثيران . وهم يأكلون - وهم جالسون على الأرض مباشرة دون فراش - فى أوان خشبية جميلة للغاية . أما شربهم فهو الماء ، ويحلونه اذا أتيح ذلك ، وينامون على أسرة عالية عليها حشيشات قطنية ، ومغطاة بالحريز أو القطن .

وبالنسبة لللبس فهم يلفون حول أجسامهم أثوابا قطنية أو حريرية ، ويضعون جانبها منها على أكتافهم alla apostolica . وبعض التجار يلبسون قمصانا قطنية أو حريرية جميلة جدا . وبشكل عام يمشون حفاة ماعدا البرهيمين الذين يضعون على رؤوسهم أيضا طواقى من الحرير أو الوبر (٩) يبلغ طول الواحدة منها شبرين . وفى ذؤابة هذه الطاقية شئ كالبنفقة ، مشغولة من مختلف جوانبها بالذهب .

وهم أيضا يضعون حول رقابهم شريطين من الحرير ، عرض الواحد منهما أكثر من عرض اصبعين . وهم يعلقون فى آذانهم أقراطا من جواهر ، ولا يزينون أصابعهم بشئ . وهم نصف بيض لأن الهواء هنا أبرد منه فى كلكتا ، أما عن الفصول والمحاصيل ، فكما هو الحال عندنا فى أوروبا (١٠) .

(٢٦) أنهار وبحار هذه المملكة (سيام) أكثر غنى بالسمك من أى نهر أو بحر آخر لأن الأنهار تنفيض لشدة أشهر مما يتيح غذاء للأسماك ، وربما كانت العظمة التى أشار لها فارتينا لسمك من نوع الحيتان Stray Whale ، بادجر) . ويختلف تقدير القنطار من مكان لآخر . وبشكل عام ١١٢ رطلا . وهو الهندردويت الانجليزى hundred weight - (بادجر) . (١٠) يقسم أهل البلاد السنة الى ثلاثة فصول : الحار والمطر والبارد وهى أية حال فإن درجة الحرارة تتفاوت تفاوتاً شديداً . (عن بادجر) .

فض بكارة زوجة الملك وسائر زوجات الوثنيين

ملك المدينة التي ذكرتها آنفا لا يسمح للبرهمنين Brahmins بفض بكارة عروسه ، وهو في هذا عكس ملك كلكيتا ؛ ولكنه - أي ملك تارناسارى - يسمح للرجال البيض بذلك ، سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين . وهؤلاء الوثنيون ، يبحث الواحد منهم عن رجل أبيض من أي بلد كان ، ويصحبه الى بيته ، ليفض له بكارة عروسه قبل أن يبني بها . ولقد حدث هذا لنا عند وصولنا لهذه المدينة ، فقد قابلنا بالصدفة ثلاثة تجار أو أربعة بدعوا يتحدثون مع رفيقى بهذا الشأن .

أحد التجار : يا صديق ، هل أنتم غرباء ؟

رفيقي : نعم

أحد التجار : كم يوما قضيتموها هنا ؟

رفيقي : وصلنا هنا منذ أربعة أيام .

تاجر آخر : حسنا ، تعالوا الى منزلى ، ، فنحن أصدقاء مخلصون للغرباء .

فلما سمعنا ذلك آنسنا اليه وذهبنا لمنزله فقدم لنا وجبة طعام خفيفة ، ثم قال لنا : « يا أصدقائي ، سأحضر زوجتى لمنزلى هذا فهي على بعد خمسة عشر يوما من الآن ، وان أجدكم سيناها معها أول ليلة وسيفض لى بكارتها » واعترانا الوجوم وأحسنا بالخجل من قوله هذا . لكن مترجمنا قال : « لا تخجلوا ، فتلك هى العادات فى هذه المنطقة » فقال له رفيقى : « لا تدعهم يسببون لنا ازعاجا أكثر من ذلك ، وسيكون لك مكافأة على ذلك » . فقد كنا نظن أنهم يمكرون بنا . ووجد التاجر أننا لم نقرر الموافقة على عرضه وبقينا مترددين فقال : « هونوا عليكم ، ولا تقلقوا ، فتلك عاداتنا فى هذه البلاد » . فلما تأكدنا - أخيرا - أن هذه فعلا هى العادات المتبعة فى المنطقة كلها بعد أن أكد لنا واحد من جماعتنا ذلك ، قائلا انه مبرر للخوف - عندئذ قال رفيقى للتاجر انه على استعداد للقيام بهذه المهمة الشاقة . فقال له التاجر : « أرجوك أن تمكث فى منزلى أنت ورفاقتك وبضائعك حتى أحضر زوجتى » وقد كنا مضطرين بعد أن أبدينا الرفض لمرافقته خاصة وقد ترجانا وتلطف معنا ، فمكثنا جميعا - وكنا خمسة أشخاص - ومعنا بضائعنا فى منزله . وبعد خمسة عشر يوما أحضر التاجر زوجته (عروسه) ونام معها رفيقى أول ليلة . لقد كانت فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها ، وقام رفيقى بمهمته خير قيام . الا أنه بعد

الليلة الأولى لا يحق لرفيقي أن يفعل مع زوجة التاجر شيئاً ، وإن فعل فانه يعرض حياته لدحط فلا حق له في ابيانها مرة أخرى ، أما العروس (الزوجة) فقد كانت - حقيقة - تتمنى أن تستمر الليلة الأولى شهراً • ولما ادى واحد منا هذه الخدمة للبحار ، كانوا على استعداد لاستضافتنا وهم سعداء ، لأربعة أشهر أو خمسة ، على نفقتهم ، فكل ما يتطلبه الانسان لا يكلف كثيراً بالإضافة لأنهم قوم متحررون وظرفاء (٢٧) •

كيفية حفظ أجساد الموتى في هذه المدينة

كل البرهمنين والملك ، تحرق أجسادهم بعد مماتهم ، بينما تقدم الأضحيات المقدسة للشيطان • ويحفظون الرماد المتبقى من الجثة المحترقة في أوان فخارية كالقنينة لها فم ضيق ، ويدفنون هذه القنينة الفخارية في منازلهم • أما بالنسبة للأضحيات المقدسة فلا تكون الا تحت بعض الأشجار ، وفقاً للعادات المتبعة في كلكتا • ولاحراق جثة المتوفى يستخدمون لاشعال النار مواد ذات رائحة ذكية كخشب الصبار واللبنان الجاوى وخشب الصندل والخشب البرازيلي (٢٨) والميعة (٢٩) والعنبر والبخور storax وبعض فروع المرجان الجميلة • وتكوم هذه الأخشاب والعطور على جثة المتوفى وتحرق ، وفي هذه الأثناء تدق كل الآلات الموسيقية في المدينة • ويقوم خمسة عشر رجلاً أو عشرون بارتداء ملابس تجعلهم كالشياطين ويقفون هناك ، محدثين جلبة وإبتهاجا كبيرين • وتحضر زوجته دائماً عملية الاحراق

(٢٧) لم أجد ما يؤكد هذا الفعل الفاضح ، الموصوف بتبذل في هذا الفصل ، بالنسبة لمنطقة Jennaserim أو سيام ، والعكس هو القائم ، فان توربين Turpin يقرر أن « مخادع الزوجية في سيام ، قلما يلوئها الزنا وعلى أية حال فان هذه العادة الغريبة التي تلوث كل الروابط الزوجية قد توجد • وفي بعض الأحيان يهيب الملك إحدى زوجاته المشاعبات لأحد المقربين اليه ، وهو نوع من النمق ••• إلا أنني لا أجد أى سبب للتشكيك في رواية فارتيميا لأن روايات وردت عن شيء مشابه شائع في منطقة مجاوزة من آراكان Aracan ، فالمعذرية ليست أمراً ذا بال ، والأزواج يفضلون أن يكونوا أبناء الأولاد الآخرين أكثر من تفضيلهم للبكر أو الفاضلة • ان الحوار بين فارتيميا ورفاقه من ناحية ، وتجار ترناسارى تم من خلال مترجم ، وكانوا يتحدثون بلغة أقرب ما تكون الى لغة كلكتا والمناطق المحيطة بها مما تناوله فارتيميا في الفصول السابقة - (ملخص من تعليق بادجر) •

(٢٨) في الأصله (Verzino) وقد رجح الميسنشرق بادجر أنها تعنى برازيل Brazil وأخذنا بذلك - (المترجم) •

Liquidambar

(٢٩) Storax هو الميعة واسمه العلمى

ويستخرج من شجر طبي ، ويستخرج منه ؟لرائنج • عن معجم الشبهانى - (المترجم) •

وهي تولول وتبكي بشكل فظيع ، ولا تحضر مع الزوجة نسوة أخريات • ويتم كل هذا في الساعة الواحدة ، أو الثانية ليلا •

احراق الزوجة حية بعد موت زوجها

وفي مدينة تارناسارى هذه ، تقيم الزوجة مآدبة لكل أقاربها وأقارب زوجها بعد موت زوجها بخمسة عشر يوما • ثم يذهبون جميعا الى موضع احراق جثة الزوج وفي نفس ساعة احراقها (أى الجثة) وتنزين الزوجة بكل جواهرها وكل ما لديها من أدوات ذهبية ، ثم يقوم أقاربها بحفر حفرة بارتفاع قامة الانسان ، ويضعون حول الحفرة أربع غابات (بوصات) أو خمساً ويحيطونها بأقمشة حريرية ، ويشعلون في الحفرة نارا بالمواد العطرية والأخشاب الآتية ذكرها ، وتأكل الزوجة قدرا كبيرا من نبات التبغ المسمى betel حتى تغيب عن الوعي ، وتلدق الآلات الموسيقية في كل أنحاء المدينة ، ويلبس بعض الرجال كالشياطين ، ويحملون في أفواههم شعلات النار ، ويقدمون الأضحيات للاله ديمو (٣٠) • أما الزوجة التي ستحرق فترقص غدوا ورواحا في المكان (الذي ستحرق فيه) وتشترك معها نسوة أخريات في الرقص ، وتتردد الزوجة أثناء رقصها مرات عدة على أولئك الرجال الذين يلبسون كالشياطين طالبة أن يدعو الشيطان أن يقبلها كتابعة له • ويحضر في هذا المكان - دائما - عدد كبير من النسوة القريبات لها • وعلى أية حال ، فلا ينبغي لك أن تتخيل أن الزوجة مكرهة على هذا • أبدا ، انها ترغب في ذلك لأنها تظن أنها - بعد احراقها - ستتحل الى السماء • فتجري بسرعة بكامل رغبتها وتقذف بنفسها وسط النيران ، وسرعان ما يقترب أقرباؤها ومعارفها واضعين العصي وكرات القار وغير ذلك ، ليزيدوا من اشتعال النار فيجعلوا بموتها • وإذا لم تفعل الزوجة ذلك عاملوها كما نعامل نحن (في أوروبا) المومسات ، وسرعان ما يقتلها أقاربها • ويحضر الملك - دائما - هذه الاجراءات • وعلى أية حال ، فإن الذين يجرون شعائر حرق الزوجة حية بعد موت زوجها ، هم أكثر الطبقات نبلا ، أما العامة فهم لا يفعلون ذلك •

وقد رأيت في مدينة تارناسارى هذه عادة أخرى أقل قدسية مما سبق ، فإذا كان هناك شاب يرغب في الحديث مع فتاة يحبها ويريد أن يفهمها أنه مغرم بها حقا ، وأنه مستعد لعمل أى شيء من أجلها ، فإنه

(٣٠) حاشية سابقة ، الكتاب الثانى عن الهند (الكتاب السادس) - (المترجم) •

يتحدث معها ويبيثها شوقه ، وبينما هو يفعل ذلك ، يتناول خرقة قد نطعت جيدا فى الزيت ويشعلها ويضعها مشتعلة على ذراعه العارية ، وبينما النار تحرق لحم ذراعه ، يظل فى الحديث مع الفتاة يبيثها الشوق غير عابىء بالنار . كل ذلك ليربها أنه فى سبيل حبها ، على استعداد للقيام بأى شىء مهما كان خطيرا .

تطبيق العدالة فى تارناسارى

من قتل يقتل ، كما هو الحال فى كلكتا (٣١) . وفيما يتعلق بنقل الملكية ، والحياسة فلا تثبت الا بمستند كتابى أو بشهادة الشهود : وهم يكتبون على أوراق كالتى نكتب عليها فى أوروبا ، وليس على أوراق الأشجار كما فى كلكتا . وهم يذهبون للحاكم الذى يفرض العدالة بينهم بسرعة . وعلى أية حال ، فعندما يموت أى تاجر أجنبى ولا يكون له زوجة أو ولد ، يرثه الملك ، فليس لثروته أن تنقل الى أى مكان آخر ، ولا عبرة لوصية الميت . وفى هذه البلاد يعين أهل البلاد ابن الملك المتوفى ملكا مكان أبيه . وعندما يموت أى تاجر مسلم ، ينفق أهله مبالغ طائلة على الأخشاب العطرية والبخور لحفظ رفاتة التى يضعونها فى صندوق خشبى ، ثم يدفنونه (وهو داخل الصندوق) جاعلين رأسه فى اتجاه مكة (المكرمة) أى فى اتجاه الشمال (٣٢) فإذا كان له ذرية ورثته .

السفن المستخدمة فى تارناسارى

يستخدم أهل تارناسارى سفنا كبيرة جدا ، وعلى أنواع مختلفة ، فبعضها ذوات قيعان مستوية لتتمكن من الدخول فى المياه غير العميقة ، ومعظمها لها قيدومان (مقدمتها كمؤخرتها) ودفتان ، وصاريان ، وهذا النوع من السفن غير مغطى . وثمة نوع ثالث من السفن الكبيرة يسمى

(٣١) فى كتاب تاريخ سيام History of Siam المؤلفه ترين Turpin أن المجرم يطرح على بطنه ، وبعد ربطه بأحكام ، ثم يدق خازوق خشبى فى دبره (شرحه) حتى يخرج من بطنه أو كتفيه ، ثم يخرجون الخازوق ، ويثبته (أى الخازوق) قائما فى الأرض ، وأحيانا لا يموت المجرم مباشرة وإنما يظل يحتضر لعدة أيام . . . (مختصر تعليق بادجر) .

(٣٢) هذا دليل آخر يدل على أن تارناسارى التى يشير إليها فارتيما ليست على ساحل البنغال لأنها – أى البنغال تقع تقريبا على خط العرض الذى تقع عليه مكة (المكرمة) (بادجر) .

جيونشي Giunchi (٣٣) وتحمل السفينة من هذا النوع ألف برميل ، كما تحمل بعض السفن الصغيرة الى مدينة ملقى (٣٤) حيث يستخدمون السفن الصغيرة (المحمولة على الجيوني) في الوصول الى موضع ساحتك عنه في الوقت المناسب .

مدينة بنجالا

المسافة بينها وبين ترناسارى

دعنا نعد الى رفيقي (الفارسي) (٣٥) فقد كان لكلينا رغبة لمشاهدة مزيد من البلاد . فبعد أن مكثنا في ترناسارى بضعة أيام ، تعبنا خلالها حقا - من هذه الطقوس التي رويتها لك ، وبعد أن بعنا بعضا من بضاعتنا اتخذنا طريقنا الى مدينة بنجالا (٣٦) ، التي تبعد عن ترناسارى سبعمئة ميل ، وقد وصلناها بحرا في أحد عشر يوما . وهى إحدى أفضل المدن التي رأيتها، وهى مركز مملكة عظيمة . وسلطانها مسلم ولديه جيش من مائتي ألف مقاتل بين راجل وفارس ، وجميعهم مسلمون . وهذا الملك فى حرب دائمة مع ملك نارسنجا Narsingha (٣٧) . والمنطقة تزخر بالفلل ، واللحوم من مختلف الأنواع ، وبكميات كبيرة من السكر والزنجبيل وكميات هائلة من القطن ، أكثر مما هو موجود فى أى منطقة بالعالم . ويتم تحميل خمسين سفينة كل عام من هذا الميناء بالقطن والأثواب الحريرية التى لها عدة أسماء تدل على أنواعها هى : البيرام bairam والنامون Namone والليزاتي Lizati والبسيانثار Ciantar والدوزار doazar والسيناباف Sinabaff ، وتنتشر هذه الأثواب الحريرية فى كل بلاد الأتراك وسوريا وفارس وبلاد العرب السعيدة وسواحل شرق أفريقيا والهند (٣٨) . وتوجد هنا تجارة مزدهرة فى الجواهر التى ترد هنا من بلاد أخرى .

(٣٣) اسم الواحدة من السفن التجارية الضخمة فى الملايو وجاوه هو جونغ Jung التى نطقها البرتغاليون جونكو Junco

Dictionary of the Indian Islands by Crawford.

(بادجر) .

(٣٤) فى المان Melacha ، وأوردها بادجر فى الحاشية Malacca - (المترجم) .

(٣٥) خوجه ذو النور ، المشار اليه فى الفصول السابقة - (المترجم) .

(٣٦) كانت جور Gour هى بلاشك عاصمة البنغال فى هذه الفترة الا أن الأجانب

- فيما يبدو - كانوا يطلقون اسم البنغال على المدينة . وملك البنغال مسلم ، أما الشعب فغالبه مسلم وبعضه ونرى Gentiles (مقتبس من تعليق بادجر) .

(٣٧) فى الفترة التى زار فيها فارتينا البنغال ، كان سلطانها الباتانى هو علاء الدين

حسين شاه ، ابن سيد أشرف - (بادجر) .

(٣٨) هذه الكلمات فى غالبها من أصول عربية أو فارسية - (بادجر) .

بعض التجار المسيحيين

في بنجالا

وقد وجدنا هنا أيضا بعض التجار المسيحيين الذين أخبرونا أنهم من مدينة سارناو sarnau ، وأنهم جلبوا معهم أنواعا حريرية وأخشاب الصبار ، واللبن والمسيك . وأخبرنا هؤلاء المسيحيون أن في بلادهم كثيرا من الحكام والأمراء المسيحيين الا أنهم تابعون للخان الكبير في كاثاي (٣٩) Cathai . أما بالنسبة للباس المسيحيين فالواحد منهم يرتدى سترة بدون كمين Xebec لها طيات ، ويضع على ذراعيه أكماما محشوة بالقطن ، ويغطي رأسه بطاقيّة يبلغ ارتفاعها قبضة ونصف القبضة ، ومصنوعة من القماش الأحمر . وهم بيض البشرة مثلنا ويعتقدون أنهم مسيحيون ، فهم يؤمنون بالتثليث ، ويعتقدون مثلنا في الحوارين الاثنى عشر وفي مؤلفي الانجيل الأربعة ، كما أنهم تلقوا التعميد في الماء . الا أنهم يكتبون في اتجناس معاكس لطريقتنا في الكتابة . فكتابتهم ككتابة أهل أرمينيا . وهم يقولون انهم يحتفلون بميلاد المسيح ، وبآلام المسيح بعد العشاء الأخير ، ويراعون الصوم الكبير وعشية العيد وصلوات المساء خلال العام . ولا يلبس هؤلاء المسيحيون أحذية ، وإنما يلبسون نوعا من السراويل الحريرية ، تشبه ما يلبسه البحارة ، وهذه السراويل مزينة عن آخرها بالجواهر ، كما أن رؤوسهم مغطاة كذلك بالجواهر . وهم يأكلون على مائدة كما نفعل ، ويتناولون كل أنواع اللحوم . وأخبرنا هؤلاء الناس أنهم يعرفون أن في حدود بلاد الروم ويقصدون بذلك بلاد الترك - يوجد ملوك مسيحيون عظماء ، وبعد حوار طويل مع هؤلاء الناس أراحهم رفيقي - أخيرا - بضائعه ، وكان من بينها عقود (فروع) من المرجان الكبير ، ذات جمال مبهّر . وعندما رأوها قالوا اننا لو رغبتنا في الذهاب الى إحدى المدن حيث يمكنهم تدبير الأمر لنا ، فقد كانوا مستعدين لتقديم عشرة آلاف دوكلات لشراء عقود (فروع) المرجان آنفة الذكر ، أو يعطوننا كثيرا من اليافوت الذي يساوى سعره في تركيا حوالى مائة ألف . وقد أجاب رفيقي بسروره وبأن عليهم أن يرحلوا الى حيث يريدون ، فقال المسيحيون : « انه في غضون يومين ستبحر سفينة الى مدينة بيجو Pego وعليكم ان رغبتم أن تركبوا

(٣٩) من وصف أحوال هؤلاء المسيحيين يمكننى الاستنتاج أنهم كانوا من الأرمن ، ونظرا لقول فارتينا انهم يكتبون بطريقة معاكسة لطريقتنا (من اليمين الى اليسار) فان الأرجح انهم نساطرة Nestorians (الواقع أن فارتينا مخطئ فالأرمن يكتبون مثلنا من اليسار الى اليمين) ، وقد ذكر أسيماني Assemani أن كل المسيحيين في تناريا والصين فيما مضى كانوا نساطرة . معتمدا في ذلك على ملاحظات الرحالة ماركو بولو . (مختصر عن بادجر) .

فيها معنا » وحالما سمعنا ذلك جعلنا أنفسنا تحت أمرتهم وتركنا السفينة مع هؤلاء المسيحيين وصاحبنا في السفينة ذاتها بعض التجار الفرس ، ولأن الناس أخبرونا أن هؤلاء المسيحيين صادقون وأمناء ، فقد وثقنا وأصر الصداقة معهم . ولكننا قبل مغادرة بنجالا بعنا كل ما بقى معنا من البضائع ما عدا المرجان والزعفران وقطعتين من القماش الفلورنس الزهري اللون . وغادرننا مدينة بنجالا التي اعتقد أنها أفضل مدينة في العالم يمكن للمرء أن يعيش فيها .

وفي هذه المدينة فإن كل أنواع الأقمشة التي سمعت عنها ينسجها الرجال وليس النساء . على أية حال ، لقد غادرننا بنجالا مع المسيحيين آنفى الذكر ، واتخذنا سبيلنا الى مدينة بيجو Pego التي تبعد عن بنجالا حوالي ألف ميل .

وفي هذه الرحلة مررنا بخليج نحو الجنوب ، وسرعان ما وصلنا الى بيجو .

بيجو Pego ، المدينة الهندية

تقع مدينة بيجو في البر الداخلى الا أنها قريبة من البحر . وتجد في اتجاه يندك اليمنى (الشرق) نهرا جميلا للغاية تغدو فيه السفن وتروح (٤٠) . وملك هذه المدينة وثنى . والعادات والعقائد وأسلوب الحياة وطريقة اللباس ، كلها تماثل ما هو موجود في ترناسارى ، الا أن ألوان بشراتهم الى حد ما - أكثر بياضا (أقل دكائة) ، كما أن الهواء هنا أكثر برودة الى حد ما . أما عن فصول السنة فهي كما عندنا . وهذه المدينة مسورة وبها منازل وقصور جيدة مبنية بالحجر ، ومطلية بالجير . وملك المدينة قوى تماما بما لديه من مقاتلين مشاة وفرسان ، ومن بين هؤلاء أكثر من ألف مسيحي سبق أن حدثناك عنهم . وهو يعطى كل واحد منهم ست باراديات ذهبيات Pardai كل شهر بالإضافة لنفقاته واعاشته . والمنطقة غنية بغلالها وباللحوم من مختلف الأنواع ، وبالفاكهة التي تماثل فاكهة كلكتا ، وليس لدى هؤلاء القوم كثير من القبيلة ، وإن كان لديهم أعداد كبيرة من كل أنواع الحيوانات الأخرى ، بل وكل أنواع الطيور كالتي في كلكتا ، الا أنه يوجد هنا أفضل أنواع الببغاوات وأجملها ، فهي من أجمل ما رأيت في حياتي على الإطلاق . وأشجار الأخشاب تنمو هنا بوفرة ، وهي

(٤٠) يسميه أهل البلاد نهر بانجو كيوب Pagoo kioup وتسمى نهر بانجو للتمييز بينه وبين النهر أو الميروب Mioup بلغتهم . . . (عن بادجر) .

فأربعة الطول ، وأظن أن سوقها أسبب (أغلظ) سوق يمكن أن تكون لأشجار ، وعلى النحوي نفسه ، فأننى لا أدري إذا كان يوجد فى العالم غاب يمثل هذه السماكة التى عليها الغاب هنا ، ففقد رأيت بعضه هنا . - بلا مبالغة - فى سماكة البرميل . وفى هذه المنطقة يوجد سنور الزباد بأعداد كبيرة وتباع السنابير الثلاثة أو الأربعة بدوكات . والجواهر هى بضاعة هؤلاء الناس الوحيدة ، كاليافوت الذى يجلبونه من مدينة أخرى هى كابيلان Capellan التى تستغرق الرحلة إليها من هنا ، ثلاثين يوما ، ولم أر هذه المدينة ، لكننى أقص عليك من أمرها من خلال ما سمعته من التجار . فهى مدينة لآلى ضخمة ، والألماس فيها أكثر قيمة مما معنا ، ويوجد بها أيضا الزمرد .

وعندما وصلنا الى منطقة بيجو ، كان ملكها بعيدا عنها اذ كان الوصول اليه يتطلب رحلة تستغرق خمسة عشر يوما حيث كان يخوض حربا مع ملك آفا Ava ، ورأينا أن نذهب للملك حيثما كان لنقدم له هذه المرجانات . لذا فقد استقللنا سفينة مصنوعة من قطعة خشب واحدة ويبلغ طولها أكثر من خمس عشرة خطوة ، أما مجاديفها فمن الغاب . افهم جيدا كيف تؤدي هذه المجاديف عملها : فحيث يزيح المجداف الماء ، فإنه يزاح فهم يشبتون قطعة مسطحة من الغاب بالحبال (فى نهاية المجداف) ، وعندما يجدفون تنطلق السفينة بسرعة تفوق سرعة المركب ذى الصاريين . أما صارى السفينة فمن غابة (الجمع : غابات) كانت فى سماكة البرميل قبل اعدادها لتكون صارى السفينة .

وفى غضون ثلاثة أيام كنا قد وصلنا لاجدى القرى حيث وجدنا بعض التجار الذين لم يستطيعوا دخول مدينة آفا Ava بسبب الحرب ، وحالما سمعنا ذلك ، عدنا أدراجنا الى بيجو ، وبعد عودتنا بخمسة أيام وصل الملك الذى كان قد حقق نصرا مؤزرا على عدوه ، وفى اليوم التالى لوصوله ، اصطحبنا رفاقنا المسيحيون للتحدث معه .

لباس ملك بيجو

لا يخطر بذهنك أن ملك بيجو يحظى بشهرة كبيرة كذلك الشهرة التى يحظى بها ملك كلكتا ، رغم أنه - أى ملك بيجو - يقسم بالروح الانسانية ، كما أنه وديع وأليف حتى ان الطفل يمكنه التحدث معه ، وهذا الملك يتزين بواقيت تزيد قيمتها عن قيمة مدينة كبيرة ، وهو يضع هذه اليواقيت فى أصابع قدميه . أما حول ساقيه فهو يتزين بحلقات ذهبية غليظة مطعمة جميعا بأجمل ما يكون من اليواقيت ، أما ذراعه وأصابع يديه ، فكلها ملأى

باليواقيت والذهب ، ويتبدل من كل أذن من أذنيه نصف قبضة من الجواهر . لكل هذا ، فانك لو رأيت شخص الملك فى الضوء بالليل ، لرأيت يلمع ويشع كأنه الشمس . لقد تحدث اليه المسيحيون الذين حدثتك عنهم وأخبروه ببضاعتنا ، فأجاب الملك « ان علينا أن نعود بعد غد ، لأنه سيكون مشغولا فى غده بتقديم الأضحيات للشيطان امتنانا لما حققه - أى الملك - من نصر على أعدائه » . وعندما حل الميعاد أرسل الملك - بمجرد انتهائه من تناول طعامه - للمسيحيين أنفى الذكر ، كما أرسل أيضا لرفيقي ، ليحضر له بضاعته . وعندما رأى الملك هذه المرجانات الرائعة بدا عليه الاندهاش الشديد ، والسعادة الغامرة ، لأنه كان من بينها عقدان (فرعان) لم يدخل مثلهما الهند أبدا . وقد سألنا الملك عن أصلنا ، فأجاب المسيحيون : « انهم فرس يا سيدنا » فقال الملك للمترجم : « اسألهم عما اذا كانوا يريدون بيع هذه الأشياء » فأجاب رفاقي : « ان بضاعتنا تحت أمر عظمتهم » فبدأ الملك يتحدث قائلا انه كان يخوض الحرب ضد ملك آفا ، طوال عامين ، لذلك فهو لا يمتلك نقودا ، لكن اذا رغبنا أن نقايض ما لدينا بكثير من اليواقيت ، فانه سيقدم لنا كمية كبيرة ترضيها « فأوعزنا للمسيحيين أن يقولوا له اننا لا نبغى شيئا الا صداقته فله أن يأخذ البضاعة وأن يفعل ما يحلو له ، وأعاد المسيحيون على مسمعه ما أوحى به اليهم رفيقي ، اذ قالوا للملك ان له أخذ المرجان دون أن يقدم بدلا عنه أموالا أو جواهر . ولما سمع بهذا السخاء ، أجاب قائلا : « اننى أعلم أن افرس قوم كرماء للغاية ، لم أر أبدا رجلا يضارع هذا الرجل كرما وسخاء » وأقسم بالله وبالشيطان أنه سيثبت لنا أيهما أكثر كرما وسخاء ، هو أم هذا الرجل الفارسى ، فرغب الى أحد خدمه الشخصيين ليحضر له صندوقا صغيرا عينه له . ويبلغ طول هذا الصندوق قبضتين ، وهو مشغول بالذهب من مختلف نواحيه ، وكان مملوءا باليواقيت فى باطنه وظاهره . ولما فتح الصندوق وجدنا به ستة أقسام منفصلة ، كلها مليئة بمختلف اليواقيت . وقام الملك بوضع الصندوق مفتوحا أمامنا ، وقال لنا خذوا ما شئتم ، فأجاب رفيقي : « آه يا سيدي ، لقد تعطفت على كثيرا ، فوحق حبي لمحمد (صلى الله عليه وسلم) وإخلاصى له ، ما أتيت بهذه الجواهر الا هدية لك . ولتعلم ياسيدي أننى لا أسافر حول العالم لجمع الثروة ، وانما لأرى مختلف الشعوب ، ومختلف العادات والتقاليد . هذا فحسب كل ما أبغيه » . فأجاب الملك : « لا أستطيع أن أهزمك فى ميدان الكرم ، لكن خذ ما أعطيه لك » ثم أخذ الملك حفنة طيبة من اليواقيت من كل قسم من أقسام الصندوق وأعطاها له . لقد بلغ عدد حفنات البواقيت حوالى مائتى ياقوتة ، أعطاها له الملك وهو يقول : « خذ هذه اليواقيت لقاء كرمك الذى أبدته نحوى » وبالطريقة ذاتها قدم الملك لكل واحد من المسيحيين ، أنفى الذكر ياقوتتين تبلغ قيمتهما حوالى ألف دوكات ، أما البواقيت التى أهداها

لرفاقى الآخرين فيقدر ثمنها بمائة ألف دوكات * وبهذا قد يمكن اعتباره .
أكرم ملك في العالم ، فدخله كل عام يبلغ حوالى مليون ذهباً ، لأن بلاده .
عامرة بالك (مواد الطلاء) lacca (٤١) وقدر كبير من أخشاب الصندل ،
وكثير من الأخشاب البرازيلية ، والقطن والحريز بكميات عظيمة ، وهو
— أى الملك — ينفق كل دخله على جيشه * والناس في هذه المنطقة
شهبانيون فاسقون *

وبعد بضعة أيام استأذن المسيحيون أنفو الذكر من الملك ، ليرحلوا ،
ولنرحل معهم ، الا أن الملك قد أمر بأعداد غرفة لنا مؤثثة بكل ما تتطلبه .
الاقامة الطويلة اذا رغبتنا في مد اقامتنا ، وقد مكثنا في هذه الغرفة خمسة .
أيام ، وأثناء اقامتنا وصلت الأخبار بأن ملك آفا قادم بجيش عرمرم لشن .
الحرب على ملك بيجو Pego الذى قرر أن يعجل ، بالاسراع بمقابلة عدوه .
في منتصف الطريق ، فقاد جيشه الكثيف من المشاة والفرسان . وتوجه .
لالمقابلة عدوه *

وفى اليوم التالى رأينا امرأتين تحرقان وهما على قيد الحياة ، وكان
ذلك برغبتهما وبكامل ارادتهما * وتم ذلك بالطريقة ذاتها التى وصفتها
فى ترناسارى *

مدينة ملقى Melacha

ونهر جازا Gaza (أو نهر الجانج

كما أظن) ، وقسوة اهل

هذه المنطقة

وفى اليوم التالى ركبنا سفينة أوصلتنا لمدينة يقال لها ملقى وتقع .
تجاه الغرب ، وقد وصلنا فى ثمانية أيام ، وقد وجدنا بالقرب منها بوغازا
عظيماً للغاية ، فهو أكبر من أى بوغاز سبق أن رأيناه ، فعرضه — كما هو
واضح — أكثر من خمسة وعشرين ميلاً ، وفى مواجهة هذا البوغاز (٤٢)
توجد جزيرة كبيرة تسمى سومطرة ، يقول سكانها ان محيطها يبلغ .
أربعة آلاف وخمسمائة ميل ، وسأخبرك عن هذه الجزيرة فى الوقت الملائم *
وعندما وصلنا الى مدينة ملقى مثلنا مباشرة لحضرة السلطان ، وكان مسلماً ،

(٤١) يميل بادجر الى أن الك مادة مدونة يتم انتاجها من حشرة الك أو من بعض
الاشجار المنتشرة — (مختصر عن بادجر) *

(٤٢) ذكر فارتينا فى السطر السابق أنه بوغاز Fiumara وهى كلمة تعنى كما
يقول بادجر Strait ، لكنه عاد فى هذا السطر فاستخدم كلمة river وهى مالا ينفى
مع السياق ، ومن الغريب أن فارتينا استخدم كلمة river فى عنوان الفصل — (المترجم) *

وكذلك كل رعايا مملكته • وملقى تقع على البر الرئيسى (وليس فى جزيرة) وتدفع اتاوة للملك سيام (٤٣) الذى أمر بإنشاء ملقى. منذ ثمانين عاما حلت، لوجود ميناء عظيم مما يجعلها الميناء الرئيسى للمحيط • واني أعتقد حقيقة أن هذا الميناء غاص بالسفن أكثر من أى ميناء آخر فى العالم ، خاصة انه يجلب هنا كل أنواع البهارات وكميات هائلة من البضائع الأخرى • وهذه المنطقة ليست خصبة جدا ، ومع هذا فإن الغلال تنمو هنا ، كما ينمو قليل من الأعشاب التى تستخدم كغذاء للحيوانات ، وأشجار الأخشاب ، أما عن طيورها فهى كطيور كلكتا ، غير أن الببغاوات هنا أفضل منها فى كلكتا • وتوجد هنا كميات كبيرة من خشب الصندل ومن القصدير • ويوجد هنا أيضا أعداد كبيرة من الأبقال والخيول والضأن والأبقار والجواميس والسمور والطواويس ، أما الفاكهة فكمياتها قليلة وهى تشبه فاكهة سيلان • وليس هناك مبرر للتجار هنا فى أى نوع من البضاعة خلا البهارات والأواب الحريرية • والسكان هنا ذوو لون زيتونى ، وشعورهم طويلة • أما لباسهم فكلباس أهل القاهرة • وملامحهم عريضة • وعيونهم مستديرة وأنوفهم مسطحة • وليس من الممكن أن يتجول الانسان فى المكان اذا حل الظلام فالناس هنا يقتلون كما تقتل الكلاب ، وكل التجار الذين يصلون هنا ينامون فى سفنهم • وسكان هذه المدينة من الأمة الجاوية Giavaى ، وقد خصص الملك حاكما ليقضى بين الأجانب لكن أهل هذه المنطقة سيطروا على القوانين وجعلوا الحاكم رهن مصالحهم • انهم أسوأ جنس وجد على ظهر البسيطة فعندما يرغب الملك فى التدخل فى شئونهم قالوا انهم ليسوا من سكان البر فهم رجال بحر • والهواء هنا معتدل للغاية ، وقد أفهمنا المسيحيون الذين كانوا بصحبتنا أنه يتعين علينا ألا نمكث طويلا هنا ، لأنهم — أى أهل البلاد — جنس شرير • لهذا ركبنا سفينة شراعية من الطراز الصينى أوصلتنا الى سومطرة ، حيث ذهبنا المدينة بيدر Pider التى تبعد عن البر ثمانين فرسخا ، أو حوالى ذلك •

جزيرة سومطرة (٤٤)

وبيدر احدى مدنها

يقولون ان فى هذه المقاطعة أفضل ميناء فى الجزيرة كلها التى سبق أن أخبرتك لتوى أن محيطها ٤٥٠٠ ميل • وفى رأى الذى يشاركنى فيه أيضا كثيرون ، فأننى أظن أنها تابروبانا Taprobana التى فيها ثلاثة

(٤٣) فى المتن Cici وقد رجح المستشرق بادجر أنها سيام ، وأورد ما يفيد تبعية

ملقى إليها •

(٤٤) نفى المستشرق بادجر أن يكون فارتينا هو أول من سعى هذه الجزيرة بهذا

الاسم — خلاصة تعليق طويل لبادجر) •

ملوك متوجون ، كلهم وثنيون ، وعقائدهم وأسلوبهم فى الحياة وملايسهم وعاداتهم كمثيلاتنا فى تارناسارى ، والزوجات تحرقن أحياء هنا أيضا .
والوان السكان هنا يغلب عليها البياض ولهم وجوه عريضة وعيون مستديرة وخضراء . وشعورهم طويلة وأنوفهم عريضة ومسطحة ، وأحجامهم صغيرة .
وتطبق العدالة بصرامة كما فى كلكتا . ونقودهم ذهب وفضة وقصدير ، وكلها مدموغة . وفيما يتعلق بنقودهم الذهبية فعلى أحد وجهى العملة صورة للشيطان وعلى الوجه الآخر شيء أشبه بالعجلة الحربية التى تجرها الأفيال ، والشيء نفسه على العملة الذهبية والقصديرية . وبالنسبة للعملة الفضية فان العشرة منها تساوى دوكات واحدا ، أما العملة القصديرية فان خمسا وعشرين قطعة تساوى دوكات واحدا ، والأفيال هنا كثيرة العدد جدا وهى أضخم فيلة رأيتها . والناس هنا ليسوا محاربين فهم مهتمون ببضائعهم ويميلون لمصادقة الأجانب .

نوع آخر من الفلفل وعن الحرير واللبن الجاوى فى مدينة بيدر

فى مقاطعة بيدر (٤٥) تنمو - بوفرة كبيرة - شجيرات الفلفل ، كما ينمو الفلفل الطويل الذى يسمونه مولايا Molaya ، وهذا النوع من الفلفل أكبر من الفلفل الذى يصل لبهلاونا فى أوروبا . وهو أبيض جدا ومجوف ، وطعمه غير لاسع بعكس الفلفل الذى نعرفه (٤٦) ، وهو خفيف فى الميزان ، ويباع هنا بالطريقة نفسها التى يباع بها عندنا ، أى كحبات ، ويجب أن تعلم أنه يتم شحن ثمانى عشرة سفينة أو عشرين بالفلفل كل عام ، تتخذ سبيلها جميعا الى كاثاي Cathai فهم يقولون أن موسم البرودة الشديدة يبدأ هناك . وشجرة الفلفل التى تثمر الفلفل الطويل ساقها أكبر ، وأوراقها أعرض وأنعم من الشجرة ذاتها التى تنمو فى كلكتا .

وفى هذه المقاطعة يتم انتاج كميات كبيرة من الحرير ، وجزء غير قليل منه يجمع من الغابات دون أن يزرعه (كذا) أحد . وهو حرير غير جيد فى الحقيقة .

(٤٥) بيدر ، وتكتب بالانجليزية Pidor أو Pedir اسم لدولة الملايو شرق سومطرة . . . والمدينة الرئيسية فيها تحمل الاسم نفسه (بيدر) - (مختصر عن بادجر) .
(٤٦) يقول بادجر : لست متأكدا اذا كان المقصود هنا ما يسميه علماء النبات بالفلفل الطويل piper longum (Long pepper) لذلك فقد استشرت السيد بنت بالمتحف البريطانى . . . فاكدا أن النوع الثانى الذى أشار اليه فارتينا هو فعلا الفلفل الطويل - (عن بادجر) .

ويوجد هنا كم كبير من اللبان الجاوى benzoin (٤٧) وهو مادة صمغية تجمع من أشجار خاصة . ويقول بعض من قابلتهم انها تنمو على مسافة بعيدة من البحر ، داخل بر الجزيرة ، ولكننى لم أرها بنفسى .

ثلاثة أنواع من خشب الهند (العود الهندى)

لأن تنوع المشاهدات يبعث على البهجة ، ويدعو الانسان للقراءة والفهم ، فقد بدأ لى أمرا طيبا أن أضيف (للقارىء) هذه المعلومات التى حصلتها وتأكدت منها - حقيقة - عن طريق الخبرة والممارسة . فبدأى ذى بدء ، يجب أن تعرف أنه لا اللبان الجاوى ولا العود الهندى (خشب الهند يصل بكميات كبيرة الى الموانئ المسيحية (الأوروبية) ، فهناك ثلاثة أنواع من العود الهندى ، فأولها وأجودها هو المسمى كلامبات Calampat وهو لا ينمو فى الجزيرة ، وإنما يرد إليها من مدينة سارناو Sarnau التى يقول المسيحيون المرافقون لنا انها قريبة من مدينتهم ، ويزرع هناك . والنوع الثانى يسمى لبان Loban ويحصلون عليه من أحد الأنهار ، والنوع الثالث يسمى بوشور Bochor (٤٨) . ويقول المسيحيون أنفو الذكر أيضا ان السبب فى عدم وصول (الكلامبات) الىنا فى أوروبا أنه فى Gran Cathai وفى مملكة سيام وفى الصين Macini (٤٩) وسارناو Sarnau وجاوة Giava يتوفر لديهم الذهب أكثر مما هو متوفر لدينا (فى أوروبا) ، وقالوا أيضا انه يوجد هنا عدد من الأمراء والملوك أكثر بكثير مما فى بلادنا ، وهم يحبون الأنس والبهجة أكثر منا (فى أوروبا) بهذه الأنواع الفاخرة من العطور ، وينفقون كميات كبيرة من الذهب لتعطير

(٤٧) شجرة اللبان الجاوى متوسطة الحجم ، وتزرع بالبذر ، ويستخرج اللبان منها بجرح لحائها بعد أن تكون قد بلغت من العمر سبع سنين - (عن بادجر) .
(٤٨) eaglewood هو عود الهند ، واسمه العلمى Aquilaria agallocha ويطلق عليه بالعربية أحيانا (العود) أو العود الهندى ، أو عود الطيب أو النجوج أو الود .

(٤٩) ترجمناها (الصين) اعتمادا على ترجيحات بادجر الذى يقول : « صين ماشين Sinmachin أو الصين وماشين sin wa Machin وأحيانا الصين فقط sin الصلقة العرب على ما نعرفه اليوم بامبراطورية الصين بشكل عام ٠٠٠ وقد أخبرنى ربابنة السفن العربية أنهم يطلقون كلمة الصين على المناطق شمال سيام ، وقال آخرون انهم يطلقونها على سيام ومناطق الصين ، وحتى تاريا - (عن بادجر) .

موتاهم بهذه العطور ، ولكل هذه الأسباب فان هذه الأنواع الفاخرة من العطور لا تصل إلينا (فى أوروبا) • وفى سارناو Sarnau يباع الرطل بعشرة دوكات •

تجارب على اللبان الجاوى والعود الهندى

لقد أجرى المسيحيون آنفوا الذكر أمامنا تجربة على هذين النوعين من العطور (اللبان الجاوى والعود الهندى) ، فقام واحد منهم بأخذ قليل من كلا النوعين • فبالنسبة للكلامبات أخذ حوالى أونصتين (٥٠) وجعل رفيقى يقبض عليها بيده بشدة مدة تستغرق تكرر الجملة الآتية أربع مرات (Meisere mei, Deus) • ثم قال له : افتح كفك • حقيقة لقد شممت رائحة لم أشم أفضل منها ، فرائحته تتفوق على روائح كل عطورنا • ثم أخذ قطعة من اللبان الجاوى فى حجم الجوزة وأخذ من (الكلامبات) الذى ينمو فى Sarnau حوالى نصف رطل ، ووضعها فى أوان (فساتات) وأضاف إليها جمرات نار ، وجعلها فى غرفتين • الحق أقول لكم ان هذه الكمية القليلة أنتجت من الرائحة العطرة والشعور بالارتياح أكثر مما ينتجه رطلان من أى نوع آخر • ويعجز قلبي عن وصف امتياز هذين العطرين (البخور) ، وما يؤديانه من ارتياح • بعد هذا لابد أنك عرفت لماذا لاتصل هذه الأشياء الى بلادنا • وتنمو هنا أيضا كميات هائلة من أشجار الك Lacca (٥١) التى يستخرجون منها اللون الأحمر ، وهى تشبه أشجار الجوز عندنا •

تنوع التجارة فى جزيرة سومطرة

لم أر فى حياتى أجمل من الأعمال الفنية فى هذه المنطقة (٥٢) ، فهناك الصناديق المصنوعة من الذهب والذى يبيعون الواحد منها بدوكتين. بينما هى قد تساوى فى بلادنا مائة دوكات • ومرة أخرى ، فقد رأيت هنا فى إحدى الطرقات حوالى خمسمائة صراف (٥٣) ، ويرجع ذلك لأن عددا

(٥٠) الأونصة وحدة وزن تساوى ٢٨ر٣٥ جراما أو ٣١ر١ جراما - (المترجم) •

(٥١) هى أشجار ذوات أخشاب وردية ، متوفرة فى سومطرة ، وتستخدم فى الصباغة.

وفى العلاج ••• وتصدره بشكل أساسى للصين - (عن بادجر) •

(٥٢) يصنع أهل البلاد مشغولات ذهبية للزينة جميلة • وسلاسل الرقبة (الكردان)

فى مانيلما مثال على هذه المشغولات الرقيقة ••• (بادجر) •

(٥٣) ربما كان الصرافون هنا من الأجانب ، كالهنود وأهل ملقى ••• (بادجر) •

كثيرا من التجار يأتى لهذه المدينة ، يتعاملون فى تجارة نشطة واسعة .
 وثمة أسرة عليها مراتب من القطن مغطاة بملاءات حريرية وقطنية ، قد
 أعدت لنومهم . وفى هذه الجزيرة وفرة هائلة من الأخشاب ، وأهل الجزيرة
 يصنعون سفنا ضخاما يسمونها جونيشى Giunchi لها ثلاثة صوار ،
 وقيدومان ، واحد فى المقدمة والآخر فى المؤخرة ولها دفتان ؟ دفة فى المقدمة ،
 والثانية فى المؤخرة ، وعندما يبحرون فى الأرخبيل (اذ يوجد هنا بحر
 كبير يشبه القناة) ، فان الرياح تأتيهم (تهب) أحيانا من الأمام (من
 ناحية وجوههم) فعندئذ يسرعون بخفض الشراع ، وبسرعة أيضا يرفعون
 الشراع الآخر الكائن عند الدفة الأخرى - دون أن يضطروا للاستدارة ،
 وبهذه الطريقة يعودون فى اتجاه الريح . ويجب أن تعلم أنهم أكثر من
 رأيت نشاطا ، وهم أيضا سباحون مهرة ، وسادة فى فن الألعاب النارية
 fire works (٥٤) .

منازل سومطرة

وكيف يكسونها

المنطقة السكنية فى سومطرة تتكون من منازل مسورة بالحجارة ،
 وليست شاهقة الارتفاع ، وكثير جدا منها قد كسى بأصداف السلاحف
 البحرية لتوفرها بكميات كبيرة ، وأثناء اقامتى رأيت احدى الأصداف تزن
 مائة رطل وثلاثة أرطال ، كما رأيت سنى فيل تزنان ثلاثمائة رطل وخمسة
 وثلاثين رطلا ، وأكثر من هذا فقد رأيت فى هذه الجزيرة حيوات أضخم
 بكثير مما فى كالكتا .

دعنا نعد الى أصحابنا المسيحيين الذين كانوا راغبين فى العودة
 لبلادهم ، فقد سألونا عن وجهتنا وما اذا كنا راغبين فى البقاء هنا ، أو اكمال
 الرحلة لبلاذ أخرى ، أو العودة لديارنا . فأجابهم رفيقى قائلا : « منذ أن
 وصلت للمناطق التى يزرع فيها البهار وأنا أود أن أرى بعض أنواعه قبل
 عودتى » فقالوا له : « ليس هناك أنواع أخرى غير التى رأيتها هنا » ،
 فسألهم أين يزرع جوز الطيب nutmeg والقرنفل ، فأجابوه قائلين :
 « ان جوز الطيب وتابل جوز الطيب » (٥٥) يوجدان فى جزيرة تسعد
 ثلاثمائة ميل « وعندئذ سألناهم عما اذا كان يمكننا الذهاب الى هناك

(٥٤) جمع كروفورد الأدلة التى تثبت أن الأسلحة النارية كانت معروفة فى الملايو
 عند وصول البرتغاليين ، بل لقد عرفوا المدفعية التى نقلها اليهم العرب الذين أخذوها عن
 المسيحيين . . . (بادجر) .
 (٥٥) Mace وهو تابل يستخرج من قشور جوز الطيب . عن معجم الشهابى فى
 مصطلحات العلوم الزراعية - (المترجم) .

بأمان ، آمنين من اللصوص القراصنة فقالوا « لا خوف من اللصوص
 فيمكنكم الذهاب ، انما الخوف من تقلبات البحر ، ولا يمكنكم
 الذهاب بسفينتكم الكبيرة هذه » فقال رفيقي : « ما المطلوب اذن
 للذهاب لهذه الجزيرة ؟ » فأجابوا : « من الضروري أن تشتروا
 شيامبانا Chiampana » والشيامبانا نوع من السفن الصغيرة ،
 يوجد منها هنا عدد كبير . فرجاهم رفيقي أن يرسلوا في طلب اثنتين منها
 لأنه يود شراءهما . وسرعان ما أوجد هؤلاء المسيحيون ما طلبه : سفينتان
 من الطراز المطلوب ، ومعهما البحارة اللازمون لها ، وكل ما هو ضروري
 لرحلة كهذه ، بل لقد ساوموا لنا على كل هذا ، وتم الاتفاق على أربعمئة
 بارادي Paradi فدفعنا رفيقي ، ووجه حديثه لهؤلاء المسيحيين قائلا :
 « آه ، يا أصدقائي الحميمين ، فرغم أننا لسنا من جنسكم ، الا أننا جميعا
 أبناء آدم وحواء ، أحقا ستفارقونني وتفارقون رفيقي هذا الذي ولد مسيحيا
 مثلكم is born in your faith . فصاحوا : « كيف يكون على ديننا ؟
 انه رفيقك أنت ! أليس فارسيا ؟ » فأجابهم قائلا : « هو فارسي الآن ،
 الا أن مشتريه اشتراه من القدس » وعندما سمع المسيحيون اسم مدينة
 القدس رفعوا رءوسهم للتو للسماء ، ثم خروا ساجدين وقبلوا الأرض ثلاث
 مرات ، وسألوا متى تم بيعي في القدس ، فأجبنا « عندما كان عمري
 خمس عشرة سنة تقريبا » وعندئذ قالوا : « انه لابد أن يتذكر بلده » فقال
 رفيقي : « حقيقة انه لا يزال يذكره ، فلم أسعد بشيء طوال عدة شهور
 الا بسماع ما أخبرني به عن بلده (القدس) وقد أعلمني بكل أسماء
 الأشخاص ، وبأسماء كل الأطعمة » وعندما سمعوا ذلك قالوا ان رغبتنا
 كانت في العودة لبلدنا التي تبعد عن هنا ثلاثة آلاف ميل ، لكن من أجل
 خاطرك ، وخاطر رفيقك هذا ، فأننا نرغب في الذهاب معكم حيثما شئتم ،
 أما اذا رغب رفيقك في البقاء بين ظهرانينا ، فسنجعله غنيا ، وهو حر في
 أن يتبع شرائع الفرس اذا رغب » فأجاب رفيقي : « انني سعيد برفقتكم
 للغاية ، لكن ذلك خارج ارادته ، فهو لا يستطيع البقاء هنا لأنني زوجته
 ابنة اختي لأنني أحبه . لذلك فاذا كنتم راغبين في اصطحابنا فلا بد أن
 تقبلوا هذه الهدية التي أقدمها لكم ، والا فلن أكون راضيا » . فأجاب
 المسيحيون الطيبون بأن عليه أن يفعل ما يرضيه ، فكل شيء يرضيهم .
 وبناء على قولهم ، قدم لهم نصف a Curia من البيواقيت من النوع الذي
 تساوى العشرة منه خمسمئة دوكات . وبعد ذلك بيومين كانت السفينة
 (الشبامان) جاهزة ، فشحنها بكثير من الأطعمة خاصة من أطاب الفاكهة
 التي طالما تذوقتها ، ومن ثم اتخذنا سبيلنا الى جزيرة يقال لها راندان
 Randan

جزيرة باندا حيث يزرع جوز الطيب ، والتابل المستخرج من قشوره

وفي أثناء هذه الرحلة مررنا بحوالى عشرين جزيرة ، بعضها مأهول بالسكان ، وبعضها غير مأهول . وفي غضون خمسة عشر يوما وصلنا للجزيرة آنفة الذكر (باندا) (٥٦) ، وهى جزيرة كريهة جدا ، وكئيبة ، ويبلغ محيطها حوالى مائة ميل ، وهى منخفضة جدا ، ومستوية وليس فى هذه الجزيرة ملك أو حتى حاكم ، وليس بها الا بعض الفلاحين لا فهم لهم ، وكأنهم سوائم . ومنازل هذه الجزيرة من الخشب ، وهى منخفضة وتبعث على الانقباض جدا ، ويلبس هؤلاء الفلاحون قمصانا ويمشون حفاة ولا يغطون رؤوسهم ، وشعورهم طويلة ، ووجوههم عريضة ومستديرة ، وألوانهم بيضاء وأجسادهم صغيرة .

وهم وثنىون ، الا أنهم من أخط طبقات الوثنيين ، أولئك الذين يسمون فى كلكتا بولياري Poliar وهيرافا Herava . وهم قوم ضعفاء الأبدان جدا وبطيئو التفكير للغاية ، وليس فيهم حيوية أو نشاط ، وانما يعيشون كالسوائم . ولا يزرع هنا سوى جوز الطيب وبعض الفاكهة . ويشبه جذع شجرة جوز الطيب جذع شجرة الخوخ ، وأوراق الشجرتين متشابهة ، الا أن فروع شجرة جوز الطيب أكثر تقاربا ، وقبل أن تصل الجوزة الى مرحلة الاكتمال تظهر القشرة حولها كالزهرة المتفتحة وعندما تنضج الجوزة تنفض القشرة . وهم يجمعون المحصول فى شهر سبتمبر ، لأن الفصول فى هذه الجزيرة تسير على نسق الفصول عندنا . ويقوم كل رجل بجمع أكبر كمية يستطيع جمعها ، فكل المحصول شائع مباح للجميع ، فليس ثمة جهد يبذله الناس هنا لخدمة هذه الشجرة وانما الأمر موكول للطبيعة لتعمل عملها . وتباع هذه الجوزات بالكيل الذى يساوى ستة وعشرين رطلا ، بمبلغ نصف كاراينو a Carlino والنقود المتداولة هنا هى نفسها المتداولة فى كلكتا . وليس من الضروري تنظيم أمور العدالة والقضاء هنا ، فالناس فى غاية الغباء لدرجة أن الواحد منهم اذا فكر فى فعل الشر فانه لا يعرف كيف يقترفه ، وبعد انقضاء يومين قال رفيقى للمسيحيين : « أين يزرع القرنفل ؟ » فأجابوه قائلين : « يزرع فى جزيرة Monoch التى يستغرق الوصول إليها ستة أيام ، والناس فى هذه الجزيرة أكثر قذارة وأمعن فى الخسة ، وأسوأ من الناس فى باندا »

(٥٦) اسمها الحالى باندا Banda ، وهى مكونة من عدة جزر ، وسكانها فى هذه الفترة مسلمون وثنىون . . . (عن بادجر) .

وأخيرا قررنا الابحار الى هذه الجزيرة فوصلناها فى غضون اثنى عشر يوما .

جزيرة مونوش Monoch (*)

حيث يزرع القرنفل

غادرنا سفينتنا فى جزيرة Monoch وهى أصغر من جزيرة باندان ، والناس فيها أسوأ ، وان كانوا يعيشون بالاسلوب نفسه ، وهم صغار الحجم ، وأكثر بياضا من سكان باندان ، والهواء أبرد قليلا . وهنا يزرع القرنفل ، كما يزرع فى كثير من الجزر المجاورة الصغيرة مساحتها وغير المأهولة . وشجرة القرنفل تشبه شجرة البقس (٥٧) فهى سميكة ، وأوراقها تشبه أوراق شجرة القرفة غير أنها أصغر ، وتميل للاستدارة ، ولونها هو اللون نفسه الذى ذكرته لكم لتوى عند حديثى عن سيلان ، وأعنى به ورق شجرة الغار أو الرند (٥٨) . وعندما ينضج القرنفل يضرب الرجال فروع الشجرة بالغاب ويضعون حصرا تحتها لتتلقى القرنفل المتساقط . وتندو هذه الأشجار فى تربة تشبه التربة الرملية نظرا لونها ، وان كانت فى الحقيقة ليست رملية . وهذه المنطقة منخفضة جدا ولا يمكن رؤية نجم الشمال فيها . وبعد أن رأينا هذه الجزيرة وما بها من بشر ، سألنا المسيحيين (رفاقنا) عما اذا كان هنا شيء آخر يمكن أن نراه . فأجابوا : « دعونا نرى كيف يبيعون هذا القرنفل » وقد وجدنا أنهم يبيعونه - كما يباع جوز الطيب - بالمكيال ، فهؤلاء الناس لا يفهمون فكرة الوزن .

(٥٧) box tree : شجرة البقس أو الشمشاد ، وهو نوع من الشجر معروف منه أنواع كثيرة منها القزم والآسى الورق . عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية - (المترجم) .

(٥٨) laurel . شجرة من الفصيلة الغارية تثبت برىا ، وهى على أنواع . عن معجم الشهابى - (المترجم) .

(★) يطلق فارتيماس هنا اسما شاملا على واحدة من جزر خمس تكون ملقى Moluccas لكنه - أى فارتيماس - لم يقدم لنا ما يعيننا على تحديد الجزيرة التى رسا عليها ، الا أنها قد تكون جزيرة ترنيت Ternate أو تيدر Tider . . . ويذكر كروفورد Crawford ان الاسم الشامل (ملقى) كما أطلقه البرتغاليون ليس معروفا أيضا ما يندرج تحته (عن بادجر) .

جزيرة بورنيو Bornei

لقد كنا الآن راغبين في تغيير هذه المناطق ، حتى نتعلم أشياء جديدة ، فقال المسيحيون : « آه يا رفاقنا الاعزاء ، مادام الله (سبحانه) قد أوصلنا لهذه المناطق النائية بأمان ، فان كان يسعدكم فاننا سنذهب لنرى أكبر الجزر في العالم (٥٩) وأكثرها غنى ، وسترون ما لم تره عيونكم من قبل ، وان كان علينا أن نذهب أولا لجزيرة أخرى هي Bornei ومنها يمكننا استقلال سفينة كبيرة ، فالبحر أكثر قسوة وأشد عتوا » فأجاب رفيقي : « انه ليسعدني أن أفعل ما ترغبون فيه » فتوجهنا لهذه الجزيرة نحو الجنوب ، وأثناء سفرنا لم يكن لدى هؤلاء المسيحيين مسرة سوى الحديث معي في موضوعات عن المسيحيين وعن عقيدتنا . وعندما أخبرتهم عن فولتوسانتو Volto Santo وعن رأس القديس بطرس Peter والقديس بول Paul وعن كثير من القديسين الآخرين ، فأسروا الى أننى اذا رغبت في الذهاب معهم ، فساكون أميرا Lord كبيرا جدا ، وقد امتنعت عن الذهاب معهم مخافة ألا أتمكن من العودة لوطني أبدا .

ولما وصلنا لجزيرة بورنيو Bornei التي تبعد عن مونوش Monoch حوالى مائتى ميل وجدتها أكبر شيئا ما من الجزيرة آنفة الذكر ، وأكثر انخفاضاً ، وسكانها وثنىيون وهم طيبون ، وهم أكثر بياضا من سكان الجزر الأخرى ، ويلبسون القمصان القطنية وبعضهم يلبس الاثواب Camelots ، وبعضهم يرتدى غطاء رأس أحمر . وتنفذ العدالة هنا بصرامة .

ويتم شحن كميات كبيرة من الكافور Camphor كل عام ، ويقولون ان الكافور مادة صمغية لنوع من الشجر ، ينمو في جزيرتهم . ولم أر هذا الشجر ، ولا أستطيع بالتالى أن أؤكد ذلك . وقد استأجر رفيقي هنا سفينة بمائة دوكات .

الملاحة الى جزيرة جاوا Giava

عندما جهزنا السفينة المستأجرة بالمؤن اللازمة اتخذنا سبيلنا الى جزيرة جاوا Giava الجميلة ، فوصلناها في غضون خمسة أيام ، كنا خلالها نبحر صوب الجنوب . وكان قبطان السفينة يحمل بوصلة مغناطيسية كالتى نعرفها في بلادنا ، ومعه خريطة بها خطوط طولية وأخرى

(٥٩) كان الأوروبيون يعتبرون جاوة هي أكبر جزيرة في العالم وليس يورنيو Borneo ولكن فارتينا صحح هذا المفهوم بادجر .

عرضية • وسأل رفيقى المسيحيين : « والآن ، اذا افتقدنا نجم الشمال ، فكيف يوجه هذا الربان مسيرتنا ؟ » فسأله المسيحيون السؤال نفسه ، فأرانا أربعة نجوم أو خمسة ، يوجد من بينها واحد مواجه لنجم الشمال الذى نتحدث عنه ، وقال اننا نبحر نحو الشمال لأن البوصلة المغناطيسية (التى معه) مضبوطة • وأخبرنا أيضا أنه فى الجانب الآخر من جزيرة جاوه ، نحو الجنوب ، توجد بعض الأجناس الأخرى يبحرون مهتدين بهذه النجوم الأربعة أو الخمسة (٦٠) ، والمقابلة لنجومنا (فى أوروبا) ، وأكثر من هذا فقد أفهمونا أنه وراء جزيرة جاوة لا يستمر النهار أكثر من أربع ساعات ، وأن الجو هناك أكثر برودة من أى مكان فى العالم • ولما سمعنا ذلك أحسسنا بالسعادة والرضى (٦١) •

جزيرة جاوا Giava : عقائد أهلها ، وأسلوب حياتهم ، وعاداتهم ، والزراعة عندهم •

لقد تابعنا إبحارنا حتى وصلنا فى غضون خمسة أيام لجزيرة جاوه (٦٢) التى يحكمها ملوك عديدون ، كلهم وثنيون • وأصف لكم عقائدهم كالتالى :

بعضهم يعبد الأوثان كما فى كلكتا ، وبعضهم يعبد الشمس ، وآخرون يعبدون القمر ، وكثيرون يعبدون الثيران ، وآخرون يعبدون

(٦٠) هذه النجوم الأربعة أو الخمسة هى كوكبة (صورة فلكية) الصليب الجنوبي (الكوكبة الجنوبية) Southern Cross • وعندما يكون هذا الصليب الجنوبي عمودية فإن الخط المار خلال النجمتين : العلوية والسفلية يمر خلال القطب الجنوبي (يشير اليه) ويلتقى بنجم الكوكبة الجنوبية B. Hydrus الذى هو على مسافة تبلغ ضعف المسافة - بالنسبة للقطب الجنوبي - من مسافة النجم القطبي (كما نسميه) من القطب الشمالى • وهذا بلاشك هو النجم الذى أشار اليه فارتينا بقوله « النجم المواجه للنجم القطبي - أو نجم الشمال الذى نعرفه فى أوروبا » عن C. R. Markam
أما أندريا كورسالىز Corsalis فيقدم لنا - بعد قرن من رحلة فارتيماس - المعلومات التالية عن الكوكبة الجنوبية إذ قال أيضا أن هذه الكوكبة موجهة (لى الاتجاه المقابل) لنجم القطب الشمالى ، وذلك بعد أن مر بخط الاستواء بعد أن كان عند خط ٣٧ جنوبا • (موجز تعليق بادجر) •

(٦١) هذه الجملة فى غاية الأهمية اذا كانت تشير الى خط عرض يمر باستراليا أو يقع جنوبها فهذا يعنى أنه الى الجنوب بين أرض فان ديمن Van Diemen ١٥° ٠٠٠ ان هذا يعنى أنه وصل على الأقل الى استراليا ••• (مختصر تعليق بادجر) •
(٦٢) لم تكن جاوا معروفة حتى بالاسم للأوربيين قبل رحلة ماركو بولو ••• وقد زار ابن بطوطة جاوا سنة ١٣٣٠ وذكر أن ملكها وثنى ••• (عن بادجر) •

الشيطان بالأسلوب الذى سبق أن ذكرته لكم ، لتوى • وتنتج هذه الجزيرة كميات هائلة من الحرير ، بعضه كحريزنا (فى أوروبا) وبعضه غليظ غير متقن ، وأفضل أنواع الزمرد فى العالم موجود هنا ، كما يتوفر الذهب والنحاس بكميات كبيرة ، ويوجد كثير من الغلال كالتي عندنا (فى أوروبا) وكثير من الفواكة الممتازة كالتي فى كلكتا • وتتوفر أعلاف الحيوانات من كل الأنواع ، وهى - أى الأعلاف - تشبه ما هو موجود عندنا (فى أوروبا) • وأعتقد أن هؤلاء الناس من أكثر خلق الله مدعاة للثقة فى العالم • وهم بيض وفى نفس أحجامنا تقريبا الا أن وجوههم أعرض من وجوهنا ، وعيونهم واسعة وخضراء ، وأنوفهم فطساء جدا ، وشعورهم طويلة •

والطيور هنا متعددة تعددا كبيرا ، وكلها تختلف عن الطيور عندنا (فى أوروبا) ماعدا الطواويس والقمريات turtle-doves والغربان السود •

وتنفذ العدالة هنا بصرامة بين الناس • أما عن لباسهم ، فهم يرتدون ملابس فضفاضة على النسق الرومانى من حرير ، ومن قطن ، ولا يستخدمون كثيرا من الأسلحة لأنهم لا يقاتلون الا من يأتيهم من البحر وهم يحملون الأقواس ، وأعدادا كبيرة من السهام المريشة من الغاب ، وبعضهم يستخدم الزربتان Zarabottane وهو الحملج low-pipe الذى يستخدمونه فى قذف السهام المسمومة ، وهم يقدفونها بالقم ، وعلى أية حال ، فانهم قليلا ما يسحبون دماء العدو الجريح (١) • ولا تستخدم المدفعية من أى نوع هنا ولا يعرفون كيفية صناعتها بأية حال من الأحوال •

ويأكل القوم خبزا من قمح ، وبعضهم يأكل لحوم الخراف أو لحوم الأيائل (أو الخيول) أو يأكلون - حقيقة - لحوم الخنازير البرية ، وآخرون يأكلون الأسماك والفاكهة •

كيف يبيع الأولاد آباءهم العجائز

لتصبح لحومهم طعاما

(فى جزيرة جاوا) (٦٣)

والناس فى هذه الجزيرة ممن يأكلون اللحوم - عندما يصبح آباؤهم كبار السن ويغدون غير قادرين على العمل فان أبناءهم أو أقاربهم يبيعونهم فى السوق ، حيث يقوم المشترون بذبحهم (أى ذبح الآباء العجائز) وأكل

(٦٣) يستبعد بادجر وجود هذه العادة فى جاوا وان كان لم ينكرها بالنسبة لبعض المناطق الهندية الأخرى •

لحومهم مطبوخة • وإذا مرض أحد شبابهم بمرض خطير ، وبدأ للعين
الخبيرة أنه قد يموت ، فإن الأب أو الأخ يقوم بذبحه ، ولا ينتظر حتى
يموت ، وبعد ذبحه يبيعونه للآخرين ليأكلوا لحمه ، وقد اندهشنا كثيرا
من ذلك ، فقال لنا بعض تجار المنطقة : « آه • أيها الفرس (٦٤) الأغبياء •
لماذا تترك هذا اللحم الطيب ليأكله الدود ؟ » فلما سمع رفيقى ذلك صاح
لتوه : « هيا • هيا • أسرع ، دعنا نذهب لسفينتنا ، فلن يقترب
هؤلاء الناس منى أكثر من ذلك » •

الشمس تلقى ظلا فى منتصف النهار (٦٥) فى جزيرة جاوا

قال المسيحيون لرفيقي : « آه ، يا صديقى • احمل هذه الأخبار
لبلدك • واليك معلومة أخرى سنريك ايها • انظر هناك • الآن ، نحن
فى منتصف النهار • أدر عينيك نحو الشمس » ولما رفعنا عيوننا رأينا
أن الشمس تلقى ظلا صوب الشمال لأكثر من بلوه Palmo (٦٦) ومن
ذلك فهمنا أننا كنا على بعد مسافة طويلة جدا من بلادنا (فارس وأوروبا)
واستغربتنا دهشة تفوق الحد • ووفقا لما قاله رفيقى أظن أننا كنا فى
شهر يونيو ، ذلك أننى كنت قد نسيت فى أى شهر ميلادى نحن ، بل
لم أكن أعرف فى بعض الأحيان فى أى يوم من أيام الأسبوع نكون • ويجب
أن تعلموا أن هناك بعض الفروق بين درجة البرودة عندنا (فى أوروبا)
ودرجة البرودة هنا • ولما رأينا عادات أهل هذه الجزيرة اتضح لنا أنه
ليس هناك مزيد من الأسباب لنبقى فيها ، لأنه كان من الضروري أن نطل
طوال الليل تحت الحراسة خوفا من أن يأتى بعض هؤلاء الأندال ليحملونا
ويأكلوا لحومنا (بعد طبخها) • فاستدعينا المسيحيين وأخبرناهم أنه
يتعين علينا أن نعود لبلادنا بأقصى سرعة ممكنة • وعلى أية حال فقبل

(٦٤) نادوهم بالفرس لأن خوجه ذو النور رفيق فارتينا فى رحلته قدمه - كما سبق
- للناس على أنه فارسى •

(٦٥) فى الأصل الايطالى fa spera ، لكن فى طبعة راميزيو Ramusio
الصادرة سنة ١٩١٣ نجد بدلا عنها faceva ombra وهى تعنى لمعة gloss ، الا أن المعنى
واحد - (بادجر) •

(٦٦) يخلص خط الاستواء جزيرة بورنيو ، وفى شهر يونيو عندما كان فارتينا يبحر
فان سفينته فى الطريق الى جاوا لابد أن تكون قد عبرت (قطعت) مسار الشمس
suns path ، نلاحظ عندما كان ينظر ناحية الغرب أن الشمس لابد أن تكون الى
شماله ، ومن ثم فان الظل لابد أن يمتد ناحية يده اليسرى - (موجز تعليق ماركهام
الذى نقله بادجر) •

مغادرتنا اشترى رفيقي زمردتين بألف بارادى paraday كما اشترى بمائتي بارادى طفلين صغيرين مخصيين ، ففي هذه الجزيرة نوع من التجار لا يتاجرون فى شىء الا فى الأطفال الصغار ويقطعون أعضاءهم التناسلية ، فيصبحون وكأنهم نساء (٦٧) .

عودتنا

بعد أن قضينا فى جزيرة جاوا معا ، أربعة عشر يوما قررنا العودة ، ادراجنا لخوفنا من قسوة سكان الجزيرة من حيث أكلهم لحوم البشر ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى بسبب البرد الشديد مما جعلنا لا نجسر على متاعمة الرحلة الى أبعد من ذلك ، بالإضافة الى أن المسيحيين المصاحبين لنا ، لم يكونوا يعرفون مزيدا من البلاد التى يمكننا زيارتها .

لكل ذلك استأجرنا سفينة من النوع المسمى جونشى a giunce . وغادرننا الجزيرة فى اتجاه الشرق حيث لا يوجد أرخبيل وحيث الابحار أيسر وأكثر أمانا . ثم أبحرنا مدة خمسة عشر يوما فوصلنا الى مدينة ملقى Malacha . وفيها توقفنا لمدة ثلاثة أيام حيث بقى المسيحيون المصاحبون لنا ، ومن الصعب أن أصف لكم البكاء والعيول الصادر عن هؤلاء المسيحيين . لقد أقاموا مناحة كاملة بسبب فراقنا . والحق أقول لكم انه لو لم يكن لى زوجة وأولاد ، لكان من الممكن أن أذهب معهم ، وقد قالوا لى مثل ذلك ، وقالوا انه لولا خوفهم ألا يعودوا فى أمان ، لصحبونا . واعتقد أيضا أن رفيقى (الفارسى) لم يشجعهم على الاستمرار فى اصطحابنا . لذلك فقد بقوا وقالوا انهم سيعودون الى سارناو Sarnau ، أما نحن فركبنا سفينتنا متوجهين الى كيورومانديل Cioromandel حيث انتهى ايجار السفينة التى ركبناها من جاوا . وبقينا فى هذه المدينة حوالى عشرين يوما ، ثم ركبنا سفينة من النوع المسمى كيامبان Ciampana . فأوصلتنا الى كولون Colon حيث وجدت اثنين وعشرين مبيحيا برتغاليا . ووفقا لحساباتى (تقديرى للموقف) فقد كانت لدى رغبة عارمة فى الهرب ، لكننى بقيت ، لأن عددهم (أى هؤلاء البرتغاليين المسيحيين) كان قليلا ، كما أننى كنت خائفا من المسلمين لأنه من بينهم بعض التجار الذين يعرفون أننى كنت فى مكة (المكربة) وفى المدينة (المنورة) حيث قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقد يتخللون أننى قد أكشف نفاقهم ، لذلك

(٦٧) يقول بادجر ان هذه العملية المرعبة كانت تجرى أيضا لبعض الرهبان الاقباط

(فى مصر) لكنه ليس متأكدا من ذلك - (عن بادجر) .

فقد تماسكت ومنعت نفسى من الهرب • وبعد ذلك باثنى عشر يوما اتخذنا سبيلنا الى كلكتا Calicut ووصلناها فى غضون عشرة أيام •

والآن ، فان فى وسع كل القراء أن يدركوا - من خلال قراءة هذه الرحلة الطويلة - أن رفينى (الفارسى) وأنا قد بلغ منا الجهد كل مبلغ بسبب اختلاف درجة الحرارة ، وبسبب اختلاف العادات والتقاليد التى واجهناها فى كل خطوة كما وصفنا ذلك من خلال سطور هذه الرحلة ، وبسبب الوحشية - التى دونها وحشية الوحوش - والتى اتصف بها بعض الناس ، كل ذلك - خاصة السبب الأخير - دفعنا للعودة • وسأذكر لكم الآن باختصار - حتى لا تكون روايتى للأحداث مضجرة - ما حدث لى فى طريق العودة ، فسيكون ذلك مفيدا لبعض الناس اما لكبح رغبتهم لرؤية هذا العالم الواسع الذى لا حد لعظمته أو أن يكون ما أذكره معينا لأناس آخرين فى طريقهم لرؤية العالم ولارشادهم عن كيفية اعداد أنفسهم ، واستخدام معارفهم وذكائهم لمواجهة الأمور الطارئة •

لما وصلنا لكلكتا فى طريق العودة وجدنا شخصين مسيحيين من ميلان Milanese • أما أحدهما فاسمه يوان ماريا Ioan-Maria وأما الآخر فاسمه بيرو أنتونيو Piero Antonio ، كانا قد وصلا من البرتغال على سفن برتغالية لشراء الجواهر لحساب الملك (٦٨) ولما وصلا الى كوشن Cocin (٦٩) سرعان ما فرا الى كلكتا • والحق أقول، لكم ان السعادة غمرتني لرؤية هذين النصرانيين ، كما لم تغمرني من قبل • لقد كنت وهذان المسيحيان البرتغاليان نسير عرايا وفقا لعادات هذه المنطقة • وقد سألتهما عما اذا كانا مسيحيين ، فأجابنى يوان ماريا : « نعم ، حقيقة اننا مسيحيان » وعندهئذ سألنى بيرو أنتونيو ان كنت مسيحيا ، فأجبت : « نعم ، تبارك الرب » وعندهئذ أمسكنى من يدي وقادنى لمنزله ، وعندما دخلنا بدأنا نتعانق ويقبل كل منا الآخر ، وبكى • والحق أقول لكم اننى لم أكن أستطيع التحدث كالمسيحيين ، فقد بدا كما لو كان لسانى متضخما ومعوفا ، ويرجع ذلك لأننى ظللت طوال أربع سنوات لا أتحدث مع مسيحيين (٧٠) •

وفى الليلة التالية بقيت معهما ، ولم يستطع أى منا أن يأكل أو ينام بمفرده لفرط سعادتنا • وفى وسعك أن تتخيل أننا كنا راغبين فى.

(٦٨) هو الملك دون امانويل ، الملقب بالمحظوظ - (بادجر) •

(٦٩) تكتب Cochin وهى مدينة تابعة لولاية (مقاطعة) المالابار الهندية ، وهى تابعة لمدارس • وعند وصول البرتغاليين للهند كانت كوشن تحت حكم الراجا تريامبارا Triumpara الذى يبدو أنه كان تابعا لحاكم كلكتا زامورين ••• (بادجر) •

(٧٠) يقصد الاوربيين أو الاوربيين المسيحيين - (بادجر) •

أن تستمر هذه الليلة عاما ، فقد كنا نتحدث في مختلف الأمور ، ومن بين ما سألتهم عنه ، ان كانوا أصدقاء لملك كلكتا ، فأجاباني بأنهما كانا رجليه الرئيسيين ، وكانا يتحدثان معه يوميا ، وسألتهما أيضا عن مقصدهما ، فأخبرانا بأنهما يودان العودة الى بلدهما ، ولكنهما لا يعرفان عن أى طريق . فأجبتهم قائلا : « عودا من الطريق الذى أتيتما منه » فأجابا بأن ذلك غير ممكن لأنهما هربا من البرتغاليين ، وأجبرهما ملك كلكتا على صناعة أعداد كبيرة من المدافع ، وكان هذا ضد رغبتهما (٧١) ، ولهذا السبب فهما غير راغبين فى العودة من الطريق ذاته ، وقالا انهما يترقبان وصول أسطول ملك البرتغال فى القريب العاجل ، فأجبتهم أنه إذا منحنى الله مزيدا من النعمة . فقد أتمسكن من الهرب الى كانانور Cananor عند وصول الأسطول كما آمل أيضا أن يسمح لهم قبطان السفينة (قبطان المسيحيين) لهم بركوب إحدى سفن الأسطول ، وأخبرتهما بأنهما لا يستطيعان الهرب بطريقة أخرى لأنه بات معروفا من خلال أعم كثيرة أنهما يصنعان المدافع ، وأن ملوكا كثيرين يرغبون فى الاستحواذ عليهما نظرا لمهارتهما ، لكل هذا لم يكن ممكنا أن يهربا بطريقة أخرى . ويجب أن تعلموا أنهما صنعا ما بين أربع مائة وخمسمائة مدفع صغير وكبير ، لذلك فقد كانا خائفين جدا من البرتغاليين والحقيقة لقد كان هناك سبب أبشع من سابقه يجعلهما أكثر خوفا ، فهما لم يكتفيا بصناعة المدافع وإنما قاما بتعليم الوثنيين كيف يصنعونها ، وأخبراني ما هو أكثر من ذلك ، اذ قالا انهما علما خمسة عشر خادما من خدم ملك كلكتا كيف يطلقون القذائف Spingarde (٩) . وفى الوقت الذى كنت فيه هنا ، فانهما قدما للوثنيين تصميمي المدفع (mortar) بل ونموذجا له من المعدن يزن مائة قنطار وخمسة قناطير . وكان ، هنا أيضا يهودى قام ببناء سفينة شراعة كبيرة وجميلة جدا وذات مجاديف ، كما قام هذا اليهودى بصنع أربعة مدافع Mortars من الحديد . وقد ذهب هذا اليهودى ليستحم فى بركة ففرق . دعنا نعد الى المسيحيين المشار اليهما : ان الله (سبحانه) يعلم ما قلته لهما فقد اثبتتهما وحثتهما على ألا يفعلوا مثل هذه الأشياء التى تضر بالمسيحيين ، فبكى ييرو أنتونيو بحرارة ، أما يوان ماريا فقد قال انه سواء عنده أن يموت فى كلكتا أو فى روما ، وأن الله يفعل ما يريد .

وفى الصباح التالى ، عدت لأحد رفقة (الفارسى) قد أقام مناحة كبرى ظنا منه أنني قتلت . فأخبرته - لأجد لنفسى عذرا - أنني كنت قائما فى أحد مساجد المسلمين شكرا لله (سبحانه) ولمحمد (صلى

(٧١) معظم المدفعين الذين كانوا فى خدمة الدول الهندية فى هذه الفترة - اما أتراك أو أوروبيون Frank or Turk ... (بادجر) .

الله عليه وسلم) لعودتنا سالمين ، فسعد كثيرا بقولى هذا وحتى أعرف. ما يدور فى المنطقة ، فقد أخبرته برغبتى فى أن أستمّر فى النوم بالمسجد ، وأننى لا أريد أية بضائع ، وأننى أود دائما أن أكون مسكينا . ورغبة منى فى الهرب منهم فكرت أنه لا يمكن خداعهم الا بالنفاق ، فالمسلمون هم أغبى شعوب العالم (٧٢) - حتى يرضى . لقد فعلت ذلك حتى أكون قادرا على الحديث بانتظام مع المسيحيين لأنهما يعرفان كل الأحداث يوما فيوم من بلاط الملك (ملك كلكتا) وبدأت بالفعل أضع خطتى فى النفاق والخداع موضع التنفيذ ، فتظاهرت بأننى درويش مسلم وامتنعت عن أكل اللحم تماما الا فى بيت يوان ماريا حيث كنا نلتهم كل ليلة زوجين من الدجاج . ولم أعد أتعامل مع التجار ، ولم أدع أى انسان يرانى مبتسما ، وظللت طوال اليوم فى المسجد الا عندما يرسل فى طلبى رفيقى (الفارسى) لتناول الطعام ، وقد وبخنى لامتناعى عن أكل اللحم فقلت له : « ان كثرة الأكل تقود المرء الى ارتكاب آثام كثيرة » وبهذه الطريقة بدوت كدرويش مسلم وسعيد هو من يستطيع تقبيل يدى ، بل ان بعضهم كان يقبل ركبتي .

ادعائى الطب فى كلكتا

وقد حدث أن تاجرا مسلما سقط صريع المرض ، ولم يستطع باى وسيلة من الوسائل أن يسترد عافيته الطبيعية ، فأرسل الى رفيقى (الفارسى) الذى كان صديقا حميما له يطلب منه أو من أى ممن هم فى منزله ان كان فى مقدوره تقديم أى علاج له . فقال رفيقى (الفارسى) : اننى يمكن أن أذهب لزيارته ، فذهبتا لمنزل هذا التاجر المريض وسألناه عن علته ، فقال لنا : « أشعر بالآلام حادة فى معدتى » فسألته ان كان قد أصيب بالبرد ، فقد يكون هو سبب هذه الآلام ، فأجاب بالنفى لأنه لا يعرف معنى الإصابة بالبرد . فاستدار رفيقى (الفارسى) الى وسألنى : « أه يا يونس ألا تعرف أى علاج لصديقى هذا » فأجبت : ان والذى كان يعمل طبيبا فى بلدنا ، وعرفت بالممارسة ما علمنى اياه فقال رفيقى (الفارسى) : « حسنا ، دعنا نر باى علاج يمكننا شفاء صديقى الحميم هذا » فقلت عندئذ : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وتناولت يده ، وتحسست نبضه ، فوجدت أنه مصاب بحمى شديدة ، فسألته ان كان مصابا بالصداع ، فأجاب : « نعم ، ان رأسى تؤلمنى كثيرا » فاستفسرت

(٧٢) تعبير ينم عن حقد شديد ، مع ان رفيقه بخوجة ذو النور قدم له خدمات كثيرة .
(المترجم) .

منه ان كان الاخراج عنده سهلا فأجاب « اننى لم أخرج منذ ثلاثة أيام »
فسرعان ما طرأ فى نفسى خطر أن هذا المريض مصاب بالتخمة ، وأنه
فى حاجة الى حقنة (شرجية) ، ولما قلت ذلك لرفيقي (الفارسى) قال :
« افعل ما تريد حتى يشفى » فقممت بالتجهيز للحقنة كالتالى : أخذت سكرا
وبيضيا وملحا ، وأخذت بعض الأعشاب التى تضر ولا تنفع (التى تؤدى
لمزيد من الأذى) مثل أوراق الجوز ، بغية غليها • وبهذه الطريقة دبرت
له فى يوم وليلة خميس حقن ، ولم تؤد هذه الحقن الى تحسنه بسبب
الأعشاب المضرة التى حقنته بخلاصتها المغلية ، فقد أدت هذه الأعشاب
الى أثر عكسى ، فزادته ألما مما أسعدنى • وأخيرا لما وجدت أنه لا يمكن
أن يشفى بسبب الأعشاب المؤذية التى حقنته بها - أخذت قبضة كبيرة
نسبيا من الرجلة ، وصنعت نصف إبريق من شراب كحولى مقطر Liquor
وخلطتها بالقدر نفسه من الزيت ، وقدر كبير من الملح والسكن ، وقلبتها
جيда ، وجمت بتصفيتها • وهنا ، أعتبر نفسى قد ارتكبت خطأ آخر ، فقد
نسيت متعمدا أن أجعلها دافئة ، وانما حقنته بالسائل وهو بارد • وبمجرد
حقنه ربطت قدميه بحبل ، ورفعناه لأعلى حتى لمس الأرض برأسه ويديه ،
وظل معلقا على هذا النحو زهاء ثمانى دقائق (half a quarter of an hour)
فقال رفيقى الفارسى : آه ، يا يونس ! أهذا ما اعتدتم عليه فى بلادكم
لعلاج هذه الحالات ؟ « فأجبت قائلا : « نعم اذا كان المريض منفعلا ؟ »
فقال ان هذا سبب معقول ، ولأن السائل المحقون يتغلغل فى جسمه بشكل
أفضل • وكان المريض البائس يصيح قائلا : كفى • كفى • انى أموت
• انى أموت • وسواء كان ما حدث ، بفعل الطبيعة ، أم أنها ارادة
الله ، فقد بدأ يقذف من مؤخرته كالنافورة ، فأنزلناه • والحق أقول
لكم فقد أخرج من أمعائه ما يملأ نصف راقود (وعاء ضخم جدا) ، فأحس
بالارتياح • وفى اليوم التالى لم يعد يعانى من الحمى أو الآلام فى رأسه
أو معدته ، ثم انتظمت أحواله ، فراح يخرج عدة مرات •

وفى صباح اليوم التالى قال انه يشعر بألم فى جنبه ، فوصفت له
أن يأخذ زبدا بقرىيا أو جاموسيا ويدهن به جنبه وأن يربط وسطه بحبال
القنب الهندى ، ثم أخبرته أنه ان أراد الشفاء فان عليه أن يتناول وجبتين
فى اليوم ، وعليه ، قبل النوم أن يمشى على قدميه ميلا • فأجاب : اذا
كنت تريدنى ألا آكل الا مرتين فى اليوم ، فهذا يعنى أن أموت جالا لأنهم
ياكلون ثمانى مرات أو عشرة فى اليوم ، فهذا ذلك الطلب له قاسيا جدا •
وعلى أية حال ، فانه أخيرا قد غدا صحيح البدن جدا • فكان هذا فى صالح
خطتى فى الرياء والنفاق بشكل كبير ، فقد قالوا عنى اننى خليل الرحمن •
وأراد هذا التاجر أن يعطينى عشر دوكات لكننى لم أرغب فى أخذ أى
مبلغ ، بل اننى قدمت ثلاث دوكات كانت معى لأجد الفقراء بشكل عنى

حتى يعلموا أنني لا أبغى أية ثروة أو أى مال . ومنذ ذلك الوقت كم كانت سعادة هذا التاجر الذى عالجه فاصطحبني لبيتنا لتناول الطعام ، وكم كانت سعادته لتقبيل يدي وقدمي ، وعندما كان أى شخص يقبل يدي فقد كنت أشد قامتي (أرفع هامتي) لأجعله يفهم أنه بتقبيله يدي - انما يفعل أمرا أنا جدير به ، باعتباري (رجلا مباركا) . وكان رفيقي (الفارسي) هو أولا وقبل كل شيء الذى يدبر لى الدعاية اللازمة ليعتقد الناس أنني درويش ، لأنه هو أيضا اعتقد ذلك وكان يقول أنني لا أكل اللحوم وأنه رأى فى مكة (المكرمة) وعند قبر محمد (صلى الله عليه وسلم) وأنتى كنت رفيقه دائما فى السفر ، وأنه يعرف أحوالى ، وأنتى (درويش) حقا ، وأنه يعرف أنني طيب وأن حياتي طاهرة (قدسية) لذلك فإنه قدم لى إحدى بنات أخته لاتخذها زوجة له (٧٣) . لكل هذا فقد كان الناس جميعا يظنون فى ظنا حسنا ، أما فى الليل ، فقد كنت أذهب سرا للتحدث مع المسيحيين الذين أخبروني فى إحدى المناسبات أن اثنتى عشرة سفينة برتغالية قد وصلت الى كانونور Canonor ، فقلت عندئذ انه الألوان المناسب لى كى أهرب من أرض الكلاب ، ورحنا ندبر معا طوال ثمانية أيام الكيفية التى يمكننى أن أهرب بها . وقد نصحونى أن أهرب برا ، ولم يكن لدى الشجاعة لذلك بسبب خوفى من أن يقتلنى المسلمون ، فأنا أبيض وهم سود .

أخبار السفن البرتغالية التى وصلت

الى كلكتا (٧٤)

وذاث يوم ، بينما كنت أتناول الطعام مع رفيقي (الفارسي) ، وصل اثنان من التجار الفرس من كانونور ، فدعاهما رفيقي تولا لتناول الطعام معه فأجاباه بعدم رغبتهما لأنهما يحملان أخبارا سيئة ، فسألناهما : بم تهممون ، فقالا : ان اثنتى عشرة سفينة برتغالية قد وصلت ورأيناها بأعيننا « فسألتهما رفيقي : « أى نوع من الناس هم ؟ » فأجاباه : « انهم مسيحيون ، وجميعهم مسلحون بالأسلحة البيض ، وقد بدأوا فى بناء قلعة قوية فى كانونور » . فاستندار رفيقي الفارسي الى وسألنى « آه .. يا يونس .. من هم هؤلاء البرتغاليون ؟ » فأجبته قائلا : « لا تحدثنى عن

(٧٣) نص العبارة for my Wife ولكنه أشار فى فصول سابقة أن رفيقه الفارسي عرض عليه تزويجه ابنة أخته (شمس) - (المترجم) .
(٧٤) لابد ان يكون ذلك فى نهاية سنة ١٥٠٦ ... (بادجر) .

عن هذا الجنس ، فهم جميعا لصوص وقراصنة بحر ، وأتمنى أن يصبحوا جميعا مسلمين » فلما سمع ذلك أصبح حقودا جدا ، أما أنا فقد كان قلبي يرقص فرحا .

كيفية هروء المسلمین للمساجد

وفى اليوم التالى ذهب المسلمون للمساجد لآداء صلواتهم • بمجرد سماعهم هذه الأخبار ، وقبل ذلك صعد المؤذنون للمآذن لدعوة الناس - بصوت جهير - لآداء هذه الصلاة ، وكان المؤذن - حال أدائه للأذان - يضع أصبعه باستمرار فى أذنيه ، وهو يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد الا اله الا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله • • • الخ (٧٥) وهذا الأذان يقوم مقام قرع الكنائس فى بلادنا • وقد أخذونى معهم لآداء الصلاة طالبين منى أن أدعو الله للمسلمين ، فهياونى بآداء الصلاة جهرا • هذه الصلاة التى سأذكر لكم عنها شيئا • فهذه الصلاة الشائعة بينهم تشبه صلاة باتر نوستر Paten Noster عندنا • وصلاة آفا ماريأ Ava Maria ، فهم يقفون صفا صفا ، وقد تتعدى الصفوف كثيرا ، ولهم قسيس (يقصد الامام) يقود الصلاة كما هو الحال عندنا ، ويؤدون الصلاة بعد أن يفتسلوا جيذا (يقصد بعد الوضوء) ، ويعلمون عن الصلاة (يقصد هنا إقامة الصلاة بأذان مختصر) ثم يتلون (الفاتحة) (٧٦) وقد أعلنت الصلاة (يقصد أقامها) فى حضور كل الناس ، ثم عدت مع رفيقى (الفارسى) وفى اليوم التالى تظاهرت بأن مرضا شديدا ألم بى ، وبقيت ثمانية أيام لا أتناول الطعام مع رفيقى هذا ، وإنما أتلل كل ليلة لتناول طعامى مع الشخصين المسيحيين • وكان رفيقى (الفارسى) مندهشا جدا وسألنى لم لا أشتهى الطعام ، فأجبته « انى مريض جدا وأحس بالآم فى رأسى تجعلنى أشعر أنها متضخمة ومكبوسة » ، وقلت له ان ذلك يبدو أنه بفعل الهواء فالتعرض للهواء أمر غير طيب بالنسبة لى » فقال لى : « اذهب وأقم فى (كانانور) حتى نعود الى فارس ، وسبوف أدلك على صديق لى سيقدم لك كل ما تطلبه فقلت له «سأكون سعيدا بذهابى الى (كانونور) لكننى متردد بسبب خشيتى من هؤلاء النصارى » فقال لى

(٧٥) يقول فارتينا ان بين عبارات الأذان « محمد رسول الله سيظهر ثانية Mahome'h-the messenger of God will rise again. » • وهذا كذب واضح ، فليست هناك آية جماعة اسلامية تذكر ذلك فى الأذان - (المترجم) •

(٧٦) كتبها بحروف لاتينية زاخرة بالأخطاء ، ولم تعرف أنه يقصد سورة فاتحة الكتاب الا من خلال تعليقات المستشرق بادجر - (المترجم) •

« لا تتردد ، ولا تخش منهم لأنك ستبقى دائما داخل المدينة » وأخيرا ، فقد رأيت جيدا كل الأسطول الذي يجهزونه في كلكتا (لحوض الحرب ضد البرتغال) وكذلك كل المدافع وكل الجيوش التي أعدها لحرب المسيحيين (البرتغاليين) - فأسرعت بالخروج من كلكتا لتنبيه البرتغاليين وتقديم ملاحظات لهم عن استعدادات (العدو) ، ولانقاذ نفسي من أيدي هؤلاء الكلاب (٧٧) .

فرادى من كلكتا

لقد دبرت كل ما كان على أن أفعله مع النصرانيين (آنفى الذكر) قبل خروجي من كلكتا بيوم واحد ، ثم قام رفيقى (الفارسى) بجعلى مع الفارسيين الذين جملا الأخبار عن البرتغاليين ، وركب ثلاثتنا مركبا بصوار ثلاثة bark . ويمكنكم الآن أن تتخيلوا مدى الخطر الذى وضعت نفسي فيه ، فهناك أربعة وعشرون تاجرا فارسيا ، وسوريا وتركيا ، كل منهم يسرفنى ، ويحصل لى عاطفة المحبة ، فخشيت اذا تركتهم أن يظنوا أننى أريد الهرب للبرتغاليين ، وإذا ما غادرت السفينة دون التحدث معهم ، فقد يقولون « لم تتحدث معنا ! » وقد أدت الأمر فى رأسى ووازنته . وعلى أية حال ، فقد قررت أن أذهب دون التحدث مع أحد الافرقيى (الفارسى) . وفى صبيحة يوم الثلاثاء الثالث من سبتمبر انسللت بحرا مع التاجرين الفارسيين ، ولما أصبحنا على مرمى سهم تقريبا فى البحر أقبل اثنان من النيرى Naeri الى الساحل وتحدثا لقبطان السفينة ، فلما رأيناها عدنا لتونا الى البر . لقد قالوا للقبطان : « لم تحمل معك هذا الرجل بعيدا عن هذا دون اذن الملك (ملك كلكتا) ؟ فقال التاجران الفارسيان : « انه درويش مسلم ، وانا ذاهبون الى كانونور » . فقال النيرى : « اننا نعلم جيدا أنه درويش مسلم ، ولكنه يفهم لغة البرتغاليين ، وسيخبرهم بكل ما نفعه هنا ، فالأسطول الكبير الذى نعبه قد أصبح جاهزا » وأمر القبطان السفينة بالآلا يأخذنى معه بأى حال من الأحوال ، فنفذ الربان ما طلبا . وبقينا على الساحل ، بينما عاد النيرى الى قصر الملك ، فقال واحد من التاجرين الفارسيين : « دعنا نذهب لنزولنا » يعنى الى كلكتا ، فأجبتة : « لا تذهب ، فأنت لو فعلت لفقدت هذه الأقمشة الجميلة التى تحملها ، لأنك لم تدفع عنها مكوسا للملك » فقال التاجر الفارسى الآخر : « آه يا سيدى ، ماذا سنفعل ؟! » فقلت لهما « دعانا نسر على طول هذا الساحل حتى نجد باراو (سفينة بأشعة ثلاث) فسعدا باقتراحى ، وسرنا اثنى عشر ميلا برا حاملين هذه الأقمشة . ويمكنكم أن تتصوروا ما كان يشعر به قلبى وأنا أرى نفسى فى هذا الموقف الخطر .

(٧٧) تعصب شديد ساه فى أوروبا البحر المتوسط خاصة فى هذه الفترة - (المترجم) -

وأخيرا ، وجدنا سبتينة (بازو) أوصلتنا الى كانونور ، مساء السبت ، وسرعان ما حملت الخطاب الذى كتبه رفيقى (الفارسى) الى صديقه التاجر ، وكان مكتوبا فيه أن يقدم لى كل الخدمات ، ويحل محله حتى يأتى ، وأخبره أننى ذرويش مسلم (رجل صالح) وعن العلاقة الوثيقة بيننا ، فلما قرأ التاجر هذا الخطاب ، وضعه على رأسه ، وقال انه يجيبنى برأسه ، وجهز عشاء فائرا فى الساحة ، وكانت المائدة غاصة بالدجاج والحمام ، ولما رأى التاجران الفارسيان الدجاج والحمام أقبل ، وصاحا قائلين : « ان هذا الرجل لا يأكل اللحم » فسرغان ما حضر لى طعام بديل . ولما انهينا طعامنا قال التاجران الفارسيان لى : « دعنا نذهب قليلا للساحل لترقة عن أنفسنا » فذهبنا حيث كان الاسطول البرتغالى موجودا وتخيّل عزيمى القارئ مدنى السعادة التى كنت فيها . ولما تقدمت قليلا رأيت أمام منزل منخفض ثلاثة براميل فارغة ، وتخيّل أن تكون المحطة المسيحية (البرتغالية) مكانها . لقد اعترائنى ابتهاج ، وتخلّى اليأس غنى ، وشعرت برغبة فى الهرب عبر البوابة التى ذكرتها آنفا ، الا أننى قدردت أننى لو فعلت ذلك فى هذه اللحظة لاهترى المنطقة كلها صخب وهياج ، كما أننى لم أكن قادرا على الهرب فى أمان بالنظر الى موقع بناء المحطة المسيحية (البرتغالية) ، فقررت أن أنتظر حتى الغد .

وهربت من كانونور للبرتغاليين

وفى صبيحة السبت ، استيقظت مبكرا ، وقلت انى ذاهب للترفيه عن نفسى قليلا . فأجاب التاجران الفارسيان : « اذهب حيث شئت » فاتخذت طريقى حيث موضع بناء المحطة (البرتغالية) فقابلت رجلين برتغاليين وقلت لهما : « آه .. أيها السيدان . أين القلعة البرتغالية ؟ » فقالا : « أنت مسيحي ؟ » قلت : « نعم ياسيدى .. تبارك الرب ! » فقالا : « من أين أتيت ؟ » فأجبتهما : « من كلكتا ! » فقال أحدهما للآخر : « اذهب أنت الى المحطة ، وسأخذك أنا الى دون لورنزو Don Lorenzo وهو ابن نائب الملك » . فأخذنى للقلعة التى كانت تبعد عن الساحل نصف ميل ، فلما وصلنا كان دون لورنزو يتناول إفطاره . فلما رأيته رنمت على ركبتى عند قدمى سموه ، وقلت : « سيدى ، انى أسلم نفسى لك لتنقذنى ، فأنا مسيحي » ، وبينما كنت أقول ذلك ، سمعنا لغطا شديدا فى المناطق المجاورة للقلعة بسبب هربى ، فدعى على الفور المدفعيون الذين جهزوا مدافعهم خوفا من هجوم أهل المدينة على القلعة ، فلما وجد القائد أن الأهالى لن يسببوا أى أذى ، أمسكنى من يدي وقادنى الى غرفة لاستجوابى عن أمور كلكتا ، واحتجزنى لأخذ كل ما لدى من معلومات مدة ثلاثة أيام ، وقد قدمت لهم كل التفاصيل المتعلقة بالاسطول الذى

يجهزه الأعداء في كلكتا ، لحبي لنائب الملك المسيحي (البرتغالي) • ولما انتهى من استجوابي أرسلني على إحدى السفن لأبيه نائب الملك في كوشن Cuccin (٧٨) وكان ريان السفينة التي أوصلتني يدعى يوحنا سرائو Joan-Sarrano (٧٩) وكان نائب الملك في غاية السعادة عند وصولي ، وأولاهم اهتماما خاصا لأنني أخبرته عن استعداداتهم في كلكتا ، وطلبت من عظمته أن يعفو عن يوان ماريا Ioan-Maria وبيرو أنتونيو Pietro Antonio البرتغاليين اللذين صنعا المدافع (للأعداء) في كلكتا ، فأكد لي أنهما في أمان ، ويمكنني أن أحثهما على العودة ، وكان ينبغي عليهما ألا يلحقا الأذى بالمسيحيين رغم أن ما فعلاه كان ضد إرادتهما ، وقلت له : انهما خائفان من العودة دون صك أمان فأبدي سموه سروره البالغ ورضاه وقدم لي صك الأمان • وتعهد ربانة سفننا وكاهننا (قسيسنا) لنائب الملك ، وبعد ثلاثة أيام أرسلني مع السفينة أنفة الذكر إلى كانونور وأعطاني خطابا لابنه يطلب منه أن يمدني بكل ما أريده من مال لشراء البهار المرسل إلى كلكتا • ولما وصلنا كانونور وجدت الرجل الوثني الذي سبق أن وهبني زوجته وأولاده كدليل على محبته لي - فأرسلته بخطاباتي إلى كلكتا لتسليمهما لكل من يوان ماريا ، وبيرو أنتونيو ، وفيها نصحتهما بالعودة بأمان لأن نائب الملك قد عفا عنهما • ويجب أن تعلم أنني أرسلت الجاسوس إليهما خمس مرات جيئة وذهابا ، وانني دائما كنت أكتب لهما أنه يجب أن يكونا حذرين والا يثقا في زوجتيهما أو عبدهما ، فقد كان لكل واحد منهما زوجة ، وكان ليوان ماريا ابن وعبد • وكانا دائما يكتبان لي أنهما راغبان في العودة للبرتغاليين ، فقد كان آخر خطاب منهما وصلني ينطق بهذه الكلمات : « يا لدفيكو ، لقد أعطينا كل بضائنا لهذا الجاسوس ، فنتعال بسفينتك ذات الصواري الثلاثة أو ذات الصاريين في موضع صيد صيادي السمك حيث يخلو هذا المكان من المراقبة ، فإذا أراد الله فأننا سنأتي - كلانا - ويجب أن تعلم أنني كتبت لهما أن يأتيان دون صحبة أحد ، وأن يتركا زوجتيهما ، وابن يوان ماريا ، وبضائعهما ، والعبد ، وألا يحضرا معهما إلا الجواهر والعملية • ويجب أن تعلم أنه كان لديهما ماسة تزن اثنين وثلاثين قيراطا ، كانا قد قالنا انها تساوي خمسا وثلاثين ألف دوكات ، وكان لديهما لؤلؤ يزن أربعين وعشرين قيراطا ، وكان معهما ألفا ياقوتة تزن الواحدة ما بين قيراط وقيراط ونصف ، ولديهما أربعة وعشرون خاتما مرصعة بالجواهر ، بالإضافة إلى ألف وأربعمائة بارادي paradi ، كما رغبا أيضا في أن يصحبا معهما سبعة Spingarde

(٧٨) المصنوع كوشن Cochín - (بادجر) •

(٧٩) هو Joao Serrao الذي صحب أنتوا ذى نورنبا Noranha في حملته على الغيليف وجزيرة هرمز في الخليج الفارسي - (بادجر) •

وثلاثة apex واثنين من سننير المسك ، وآلة اصلاح الجواهر واعدادها •
لقد كان الجشع سببا في موتهما • ذلك أن العبد الخاص بهما - وكان
من كلدنا - رأى انهما يريدان الهرب ، فذهب توا للمك وأخبره بكل شيء ،
فلم يصدق الملك ، وكل ما فعله أن ارسل خمسا من النيري Naeri ليذنبوا
معهم • ولما رأى العبد ان الملك لم يعد مهما ذهب الى فاصى المسلمين واحبره
بما سبى ان احبر الملك به ، واثر من ذلك ، فعاد قال للقاضي انهما احبرا
المسيحيين (البرتغاليين) بكل ما تم اعداده في كلكتا • فعقد القاضي مجلسا
للقضاء حضره كل التجار المسلمين ، وجمع منهم مائة دوكات حملوها للملك
Gioghi الذى كن موجودا في كلكتا في ذلك الوقت بصحبة ثلاثة آلاف
من رعيته ، وقال التجار المسلمون له : « يا مولانا ، أنت تعلم أنه في
أعوام سابقة عندما كنت تأتى هنا ، كنا نقدم لسموكم واجب الكرم
والتبجيل والاحترام ، أكثر مما نفعل الآن ، وذلك يرجع لظروف خاصة ،
اذ يوجد هنا انان من المسيحيين (البرتغاليين) وهم أعداء لديننا ولسموكم ،
فقد احبروا البرتغاليين بكل ما يجرى في بلادنا ، ونحن نطمع من سموكم
أن تحكم بقتلهم ، ونطمع أن تقبل هذه المائة دوكات » فأرسل الملك في
الحال مائة رجل لقتلهم ، فلما ذهبوا ليبتهما بدءوا - عشرة عشرة -
ينفخون في أبواقهم ويطلبون الصدقات • فلما رأى المسيحيان (البرتغاليان)
أعدادا كبيرة تزداد ، أدركا أنهم يريدون شيئا اخر الى جانب الصدقات ،
ويدها يحاربان ، فقتلا منهم ستة أشخاص ، وجرحا أكثر من أربعين •
وأخيرا ألقى هؤلاء الـ Gioghi عليهما قطعا خاصة من الحديد مستديرة
كالعجلة . وقد قذفوا قطع الحديد هذه بمقلع فأصاب يوان ماريا ،
وبترو أنتوني في رأسيهما ، فسقطا على الأرض ، فجرى المكلفون بالقتل
اليهما وقطعوا أوردة رقبتيهما وأيديهما ، وشربوا من دمايهما • وقد
هربت زوجة يوان ماريا بطفلها الى كانونور فاشتريت منها طفلها بمبلغ
ثمانى دوكات ذهبا وعمدته في يوم القديس لورنس وأسميته (لورنس) ،
وقد مات بعد عمام بالمرض الفرنسى French disease • ويجب أن
تعلم أنني رأيت المصابين بهذا المرض على بعد ثلاثة آلاف ميل وراء كلكتا ،
ويسمونه مرض بوا pua (٨٠) ، ويقولون انه لم يعرف هنا الا منذ
سبعة عشر عاما ، وهو أسوأ مما عندنا (في أوروبا) •

(٨٠) ربما كانت من الكلمة السنسكريتية paya التى تعنى قرحة أو مرض ناتج
عن قرحة ••• (بادجر) •

أسطول كلكتا

وفي الثامن عشر من شهر مارس سنة ١٥٠٦ (٨١) وصلتنا أنباء قتل هذين البرتغاليين وفي اليوم نفسه غادر الأسطول الضخم باناني Pannani فكلكتا ، فكابوجات Capogat فينداراني Pandarani ، فتورماباتان Tormapatan . وبلغ هذا الأسطول مائتي سفينة وتسع سفن ، من بينها أربع وثمانون سفينة كبيرة . أما الباقيات فمن نوع (الباراو Paraos) وهي سفن ذوات مجاديف وكان الأسطول غاصا بالمسلمين ، وكانوا يرتدون ملابس محشوة بالقطن وعلى رؤوسهم عمام كبيرة محشوة ، ويحيط بأذرعهم أساور وقفازات محشوة ، وكانوا مزودين بعدد هائل من الأقواس والرماح . والسيوف والثروس ، وبصحبهم مدافع ضخمة ومدافع صغيرة على شاكلة مدافعنا (البرتغالية) : ولما رأينا هذا الأسطول في السادس عشر من شهر مارس ، ظننا أننا ازاء غابة ، وأنا هنا أقول لك الحقيقة . الا أننا نحن المسيحيين تأمل دوما في تلقى العون من الله ، لندحض العقيدة الوثنية .

وقد كان موجودا ، ابن دون فرانسيسكو دا الميدا dal Meda نائب الملك البرتغالي في الهند ، وهو (الابن) أشجع الفرسان ، وكان قائدا لأسطول برتغالي من احدى عشرة سفينة ، من بينها سفينتان من النوع ذى إصاريين ، وسفينة واحدة من النوع ذى ثلاثة الصواري . فلما رأى القائد البرتغالي هذا العدد الكبير من سفن (الأعداء) ، تصرف كأشجع القادة فدعا كل مقاتليه وبدأ يحثهم ويستثير نخوتهم باسم الرب وباسم العقيدة المسيحية أن يرحبوا بالموت ، فقال لهم : « آه يا سادة ، أيها الاخوة ، ان يومنا هذا هو اليوم الذي يجب علينا أن نتذكر فيه آلام المسيح (عليه السلام) وكيف تحمل الآلام ليفتدينا نحن الخطاة . ان يومنا هذا هو يوم تغفر فيه خطايانا . لهذا أدعوكم أن تقدموا ببسالة لمحاربة هؤلاء الكلاب ، لأنني واثق أن الرب سيهبنا النصر لأنه لن يرضى أن تسقط عقيدته ثم وقف القسيس (الأب الروحي) على السفينة ، وقد حمل الصليب في يده ، ووجه للجميع عظة جميلة ، وحثنا أن نفعل ما تعاهدنا عليه ، ثم منحنا الغفران من الخطايا ، وأعفانا من العقاب (في الآخرة) وقال : « الآن ، يا أبنائي ، دعونا نذهب جميعا راغبين ، فالرب سيكون

(٨١) هذا التاريخ مرتبط على نحو ما ، ففي مجموعة جرين Green's Collection
أن أسطول دون فرانسيسكو دالميدا قد غادر لشبونة في ٢٥ مارس ١٥٠٧ ، وفي
Modern Universal his أنه غادر الميناء في ٢٥ مارس ١٥٠٥ . وقد اعتمدت
هذا التاريخ الأخير . . . (بادجر) .

معنا » وقد كان القسيس بليغا جفا ، فقد بكى معظمنا ، طالبين من الرب أن يكتب لنا لقاءه (الموت) فى هذه المعركة . وفى الوقت نفسه أقبل أسطول المسلمين نحونا . وقد غادر قائدنا بسفینتین انجه بهما نحو المسلمين . وهر بين أكبر سفینتین من سفنهم ، وحيا كل سفينة منهما بوابل من القصف بالمدافع ، وقد فعل قائدنا هذا ليعرف كيف يتصرف المسلمون ، ولأن هاتین السفینتین كانتا أكبر ما فى أسطول (الأعداء) وكانتا تحملان كثيرا جدا من الشارات والأعلام ، وكان بهما قادة الأسطول كله . ولم يحدث شئ أكثر من هذا ذلك اليوم . وفى الصباح الباكر بدأ المسلمون ينشرون أشرعتهم واتجهوا الى مدينة كانونور ، وأرسلوا لقائدنا طالبين أن يدعهم يمرّون ويستمرّون فى رحلتهم فهم غير راغبين فى محاربة المسيحيين فأرسل قائدنا اليهم أن مسلمي كلكتا لا يسمحون للمسيحيين بالعودة ، وقد قالوا ذلك لأبناء دينهم ، بل انكم قتلتم ثمانية وأربعين منهم (من البرتغاليين) وسرقتهم منهم ثلاثة آلاف دوكات ، بضائع وأموال . ثم قال لهم : « مروا ، ان كنتم تستطيعون المرور ، لكن ستعلمون أولا أى نوع من الرجال نحن البرتغاليين » فقال المسلمون : « ان محمدنا سيحمينا منكم أيها المسيحيون (البرتغاليون) » وبدعوا جميعا ينسحبون وقد اعتراهم فزع شديد ، ولأنهم كانوا راغبين فى المرور فقد كانوا دائما يبحرون بالقرب من الساحل (البر) مسافة ثمانية أو عشرة أميال . وقد سمح لهم قائدنا بذلك حتى وصلوا فى مواجهة مدينة كانونور . وقد فعل قائدنا ذلك لأن ملك كانونور كان يراقب الموقف ، فأراد قائدنا أن يريه مدى عظمة الشجاعة البرتغالية . وعندما حان وقت تناول الطعام وبدأ الهوء يكون منعشا شيئا ما ، قال قائدنا : « لقد حان الوقت الآن يا اخوانى ، فكلنا مقاتلون جيدون » وبدأنا فى الاتجاه صوب أكبر سفینتین من سفنهم . ومن المستحيل أن أصف لكم مدى الأدوات والاستعدادات التى أعدها وفقا لعاداتهم . لقد تشبث قائدنا بشجاعة باحدى السفینتین ، وكانت أكبرهما ، وقذف المسلمون خطافاتهم الحديدية ثلاث مرات ، وفى المرة الرابعة بقينا راسخين وسرعان ما قفز البرتغاليون على ظهر سفينة المسلمين التى كان بها ستمائة مقاتل . وهنا دارت أقسى المعارك فسالت دماء مهولة ، ولم يتمكن أحد منهم من الهرب ، فقد قتلوا عن آخرهم . وما لبث قائدنا يجد فى اثر سفينة المسلمين الكبيرة الأخرى ، والتى كانت مشتبكة مع احدى سفننا ، وهنا أيضا دارت معركة قاسية قتل فيها خمسمائة مسلم . وبعد أن تم الاستيلاء على هاتین السفینتین الكبيرتین ، دخل باقى أسطول المسلمين المعركة بروح يائسة ، فقسمننا سفننا الست عشرة ، لوجود بعض سفننا يحاصرها المسلمون بخمس عشرة أو عشرين سفينة .

نه لنظر مبهج أن ترى الأعمال الفذة لقائدنا الهمام يوان سارانو Ioan Sarano الذى استطاع بسفينة ذات شراعین أن يقيم مذبحه

للمسلمين بطريقة يصعب وصفها . ففي وقت من الأوقات كان حول سفينته خمسون سفينة ، بعضها بالمجاديف وبعضها الآخر بالأسرعة ، وكلها مزودة بالمدافع ، لكن ببركة الرب لم يقتل أحد من البرتغاليين ، وإن جرح كثيرون لأن المعركة استمرت طوال النهار .

وفي إحدى المرات ، ابتعدت سفينتنا ذات الأسرعة الثلاثة قليلا عن الأسطول ، وسرعان ما أحاطتها أربع سفن من سفن المسلمين الذين قاتلوا سفينتنا بحدة وشراسة ، وقفز فيها خمسة عشر مقاتلا مسلما ، مما جعل كل البرتغاليين في سفينتنا ينسحبون الى مؤخرتها . ولما رأى قبطان سفينتنا الشجاع ، واسمه سيمون مارتن Martin ، ذلك ، قفز بين هؤلاء الكلاب وصاح قائلا : « آه يا يسوع المسيح ، أعطنا النصر ، وساعد ديننا » وقطع بسيفه رقاب ستة أو سبعة من المسلمين ، فألقى الباقيون أنفسهم في البحر ، وتفرقوا هنا وهناك . ولما رأى المسلمون الآخرون أن سفينتنا هذه قد أحرزت النصر ، أرسلوا أربع سفن أخرى لمساعدة زملائهم . فلما رأى سيمون مارتن ذلك ، سرعان ما أخذ برميلا يهوى بارودا ، وأخذ قطعة من الشراع ، وأقحمها في ثقب البرميل الذي يبدو للرائي كأنه حجر مدفع ، ووضع حفنة من البارود فوق البرميل ، ووقف وفي يده شعلة نار متظاهرا أنه سيشتعل بارود المدفع ، فلما رأى المسلمون ذلك عادوا أدراجهم ظنا منهم أن هذا البرميل مدفع . فانسحب القائد البرتغالي وانضم لباقي الأسطول ، بعد أن أحرز النصر بسفينته ذات الصاريين . وقد جعل قائدنا نفسه في وسط هؤلاء الكلاب ، وأسر منهم سبع سفن بعضها محمل بالبهارات والبعض الآخر بغير ذلك من البضائع ، وضرب تسع سفن أو عشرة ، بالمدافع ، كان من بينها سفينة محملة بالأفيال . ولما رأى المسلمون أن كثيرا من سفنهم قد تعرضت للضرب بالمدافع وأن السفينتين الأساسيتين قد استولى عليهما البرتغاليون ، وأن قادتهم قد أسروا ، شرعوا في الهرب في كل اتجاه وسادت الفوضى بينهم ، فبعضهم انسحب ، وبعضهم هرب مع رفاقه ، وبعضهم هرب برا ، وبعضهم هرب بحرا ، وبعضهم هرب في الميناء ، وبعضهم هرب في الاتجاه المعاكس . وفي خاتمة المطاف وجد قائدنا أن كل سفننا آمنة لم يلحقها ضرر فقال : « مبارك أنت يا يسوع المسيح ، دعنا نكمل نصرنا على هؤلاء الكلاب » وعاهدنا أنفسنا جميعا لنتبعه . والحق أقول لكم ، إن كل من رأى هؤلاء الكلاب يولون الأدبار يظن أن هناك أسطولا من مائة سفينة يطاردهم . لقد بدأت معركة الأسطول هذه منذ موعد الافطار واستمرت حتى المساء ، وظللنا نلاحق قلوبهم طوال الليل ، ومن عجب أن أسطولهم الكبير هذا لم يؤد الى مقتل برتغالي واحد . وتابعت سفننا التي بقيت هنا سفينة كبيرة أخرى (للمسلمين) كانت قد غيرت اتجاهها في البحر . وأخيرا ، سادت سفننا على سفنهم فأحطنا بها فألقى كل المقاتلين المسلمين أنفسهم

فى البحر ليسبحوا ، لكننا تتبعناهم بشكل مستمر الى الساحل فى مراكب صغيرة ذوات مجاديف ، ورحنا نقذفهم بالقوس والنشاب ونطعنهم بالرمح ، فقتلنا منهم وجرحنا . لكن بعضهم نجا بفضل مهارته فى السباحة وهؤلاء لا يتعدى عددهم مائتين ، وقد سبحوا مسافة أطول من عشرين ميلا ، وكانوا أحيانا يغوصون تحت الماء ، وكنا نظن أحيانا أن هؤلاء السابحين تحت الماء قد ماتوا ، الا أننا كنا نراهم يصعدون مرة أخرى على سطح الماء على مرمى سهم منا ، فإذا ما اقتربنا لقتلهم طائين أنهم قد أجهدوا تماما ، غاصوا مرة أخرى تحت الماء . ان قدرتهم على السباحة لهذه المسافة الطويلة تبدو كمعجزة كبيرة . وعلى أية حال ، فقد قتلنا أخيرا الجانب الأكبر منهم ، وأشبعنا سفنهم قصفا بمدافعنا . وفى صبيحة اليوم التالى أرسل قائدنا سفنا ذوات مجاديف وسفنا من ذوات الشراعين على طول الساحل ، لاحصاء جثث القتلى ، فانضح أن عدد القتلى فى البر والبحر والسفن التى استولينا عليها ، ثلاثة آلاف وستمائة . ويجب أن تعلم أن كثيرين آخرين قد قتلوا أثناء الهروب ، فألقوا بأنفسهم فى البحر .

ولما رأى ملك كانونور هذه المعركة قال : « هؤلاء المسيحيون شجعان حقا » والحقيقة أننى وجدت نفسى وسط بعض المعارك التى دارت على أيامى ، ولكننى لم أر أبدا من هم أكثر شجاعة من البرتغاليين وفى اليوم التالى عدنا الى نائب ملكنا الذى كان فى كوشن Cuccin . وأترك لخيالك أن يرسم صورة لمدى سعادة نائب الملك ، ومدى سعادة ملك كوشن الذى كان صديقا حقيقيا لملك البرتغال - عندما رأوا عائدين مكللين بالكايل النصر .

عودتى مرة أخرى لكانونور

بتكليف من نائب الملك

دعنا نترك أسطول ملك كلكتا الذى لاقى الهزيمة ، ولنعد الى أمورى . فبعد مرور ثلاثة أشهر ، تعطف على نائب الملك بوظيفة الوكيل التجارى Factorship فى هذه الأنحاء ، وظللت شاغلا لهذه الوظيفة مدة عام ونصف العام . وبعد ذلك ببضعة شهور أرسلنى مولاي نائب الملك بسفينة الى كانونور لأن كثيرين من تجار كلكتا ذهبوا الى كانونور ، وأخذوا من البرتغاليين (المسيحيين) تصريحات (عهود أمان) عن طريق تقديم بيانات تفيد أنهم من كانونور بسبب رغبتهم فى المرور ببضائعهم فى سفن كانونور ولم يكن بعض هذه البيانات صحيحا . لهذا أرسلنى نائب الملك لهؤلاء

التجار لكشف التزوير ، وحدث في هذه الاثناء أن مات ملك كانونور وكان الملك الذى تولى بعده يضمم العداوة الشديدة لنا (للبرتغاليين) وكان كرهه لنا هو السبب الذى جعل ملك كلكتا يوليه ، مستخدما الأثر القوى للمال ، وزوده بثلاثة وعشرين مدفعا . وفى سنة ١٥٠٧ بدأت حرب خطيرة جدا فى السابع والعشرين من أبريل ، واستمرت حتى السابع عشر من أغسطس . والآن ستدرك قيمة العقيدة المسيحية ، وقيمة البرتغاليين . وفى يوم ، ذهب البرتغاليون لجلب المياه ، فهاجمهم المسلمون بحقد شديد ، فعاد رجالنا الى القلعة التى كانت وقتها فى حالة جيدة ، ولم يحدث لرجالنا أذى فى هذا اليوم ، وأرسل قائدنا - وكان اسمه لورنزو دى برتو Lorenzo de Britto ليخبر نائب الملك - وكان فى كوشن - عن هذه الحوادث ، وسرعان ما وصل دون لورنزو Don Lorenzo بسفينة a Caravela مزودة بكل ما هو ضرورى ، وبانتهاء أربعة أيام عاد ثانية الى كوشن ، وبقينا نحارب هؤلاء الكلاب مع أن عددنا لم يكن يزيد عن مائتى رجل . وكان طعامنا يتكون - فقط - من الأرز والسكر ، والجوز ، ولم يكن فى القلعة ماء للشرب ، لذا فقد كنا مضطرين لجلب الماء من بئر معينة مرتين فى الأسبوع ، وكانت هذه البئر على مرمى سهم من قلعتنا . وكنا فى كل مرة نذهب لجلب الماء نضطر لاستخدام القوة . وفى كل حين كنا نناوشهم . وكان أقل عدد منهم يأتى (صوب قلعتنا) أربعين وعشرين ألفا وأحيانا ، ثلاثين ألفا أو أربعين ألفا أو خمسين ألفا ، مسلحين بالسهم والرماح والسيوف ، ومحصنين بالتروس ، وبصحبتهن مائة وأربعون قطعة مدفعية ما بين صغيرة وكبيرة ، وعليهم نوع من الدروع سبق أن وصفتها لك عند الحديث عن أسطول كلكتا . وكانت طريقتهم فى القتال كالتالى : يقبل ألفان منهم أو ثلاثة آلاف ، دفعة واحدة محدثين أصواتا وجلبة مزعجة من آلات خاصة ، ويقومون بألعاب نارية ، ويجرون بشكل يبعث على الفزع - لدرجة أنهم - حقيقة - يمكن أن يثبوا الخوف فى عشرة آلاف رجل . الا أن الرجال المسيحيين الأكثر شجاعة ذهبوا لملاقاتهم خلف البئر ، فلم يقتربوا (أى المهاجمون) من القلعة أبدا مسافة مرمى حجرين وكنا مضطرين لوضع حراسة من خلفنا وأمامنا ، لأنه يحدث فى بعض الأحيان أن يأتى المسلمون من البحر بستين سفينة من نوع (الباراو) فيحصرونا بينهم . وكنا كل يوم نقاتل فيه نقتل منهم عشرة أو خمسة عشر ، أو عشرين وليس أكثر من ذلك لأنهم كانوا بمجرد رؤية بعض قتلاهم - يولون الأدبار لكن ، ذات مرة ، قتلنا منهم ثمانية عشر قتيلا ، بفضل مدفعنا المسمى (الحية) ولم يقتلوا منا أحدا . وقالوا اننا نستعين بشيطان هو الذى يدافع عنا . ولم تتوقف هذه الحرب من السابع والعشرين من شهر أبريل حتى السابع والعشرين من شهر أغسطس . ثم وصل الأسطول البرتغالى بقيادة الهمام الشجاع ترستان دا كوجنا

Tristan da Cugna ، الى كانونور ، فأخبرناه أننا في حالة حرب ، فسرعان ما أعد هذا القائد الحكيم كل قوارب الأسطول وجهزها بالسلاح وأرسل ثلاثمائة منا مسلحين جميعا ومدرعين بالدروع البيض ، لنجرف كل مدينة كانونور . ولا تتصور عزيزي القاري مدى سعادتنا عندما رأينا مثل هذا العون فالحق يقال لقد كان الجهد قد بلغ منا قبل وصول الأسطول البرتغالي كل مبلغ ، وكان عدد كبير منا جرحى . ولما رأى المسلمون وصول الاسطول البرتغالي أرسلوا سفيرا هو التاجر الثرى مامال ماريكار Mamal Maricar يطلب السلام ، فأرسلنا الى نائب الملك البرتغالي في كوشن فأمرنا بالموافقة على السلام دون ابطاء ، وقد كان (١) . ولم يفعل ذلك الا ليكون قادرا على شحن السفن وارسالها للبرتغال . وبعد مرور أربعة أيام ، حدث أن وصل تاجران من كانونور ، كانا صديقين لي قبل الحرب ، وتحدثا الى كصديق على هذا النحو : « أيها الوكيل التجاري ، أرنأ الرجل الفذ (abrazza) والاكثر اقداً من أيكم ، والذي كان يقتل كل يوم خمسة عشر وعشرين منا ، والذي كان النيري Naeri البالغون أحيانا أربعمائة وخمسمائة يطلقون النار عليه ، ولم يستطيعوا اصابتة مرة واحدة » فأجبتهم قائلا : « هذا الرجل ليس هنا ، وانما ذهب الى كوشن » ثم فكرت أن هذا كان مسيحيا آخر ، فقلت لسائلي : « يا صديقي ، تعال هنا ان ما رأيته ليس رجلا برتغاليا ، وانما هو رب البرتغاليين ، ورب كل العالم » .

"... is not a portuguese, but he is ahe God of the portuguese and of all the world"

فأجاب قائلا : « والله ! أنت تقول الصدق لأن كل النيري قالوا انه ليس برتغاليا ، وانما هو ربهم ، وأن رب المسيحيين أفضل من ربهم (رب النيري) وهم لم يعرفوه ، فقد كان يتجلى للجميع ، كمعجزة منه » . انظر أى نوع من البشر هم ، فقد كانوا يجلسون أحيانا عشر ساعات واثنتي عشرة ساعة ليراقبوا أجراس كنيسةنا وينظرون لها كشيء معجز ، ولما تكف الأجراس عن البق يقولون : « ان هؤلاء الناس يلمسون هذا الجرس ، وهو - أي الجرس - يتجدد ، وإذا امتنعوا عن لمسه ، امتنع بدوره عن الحديث . ان رب البرتغاليين ، طيب جدا » ومرة أخرى كان بعض هؤلاء المسلمين حاضرين بيننا ، فلما تجلى جسده المسيح (عليه السلام) قلت لهم : « هذا هو اله البرتغاليين ، واله الوثنيين ، واله كل العالم » فأجابوا : « أنبأ تقول الحق لكننا لا نعرفه » ومن هنا ، قد تعلم أنهم خطاة دون معرفة (علم) . وعلى أية حال ، فقد كان بعضهم من السحرة الكبار ، فقد رأيناهم يمسون الافاعي التي تؤذي غيرهم ان لمسها ، فتسقطه على الأرض ميتا في التو . وهم - كما اعتقد - أكثر الرجال العاملين خبرة ومهارة في العالم كله .

هجوم البرتغاليين على بانانى

Panani

والآن ، لقد أزف ميعاد العودة لبلادى ، لأن القائد بدأ يشحن الأسطول للعودة للبرتغال ، فقد ظلمت بعيدا عن بيتى وحبى سبع سنين محتفظا بمشاعرى الطيبة ازاء وطنى ، ولاحمل لوطنى جانبا كبيرا من العالم ، فسألت سيدي نائب الملك الاذن فى الرحيل فتفضل بالموافقة ، ورغب الى أن أذهب معه أولا الى حيث سأقص عليك - لقد ارتدى نائب الملك ، وكل من معه - خلا العدد القليل الذى بقى فى كوشن - الدروع البيض . وفى الرابع والعشرين من نوفمبر ، شننا هجوما على ميناء (بانانى) (٨٢) ، وفى هذا اليوم عسكرنا قبالة الميناء ، وفى صبيحة اليوم التالى ، قبل طلوع النهار بساعتين ، دعا نائب الملك كل من فى الأسطول لحضور اجتماع وأخبرهم أن (بانانى) قد شنت على البرتغاليين حروبا كثيرة أكثر مما فعلت أى منطقة هندية أخرى ، لذا فهو يرجونا جميعا أن نهجم عليها باصرار ورغبة فهى - أى بانانى - أقوى من أى مدينة أخرى على السواحل الهندية ، ولما أنهى نائب الملك حديثه ألقى القس عظة أبكتنا جميعا وجعلت كثيرين يودون - حبا فى الرب - أن يموتوا فى هذه المعركة . وقبيل انضاح النهار بقليل بدأنا أعنف حرب ضد هؤلاء الكلاب البالغ عددهم ثمانية آلاف ، بينما كن عندنا حوالى ستمائة . لكن الحقيقة أن السفينتين من النوع ذى الشراعين لم يفيدا كثيرا لعدم قدرتهما على الاقتراب كثيرا من الساحل ، بعكس الحال بالنسبة للقوارب . وكان الفارس المقدام دون لورنزو ابن نائب الملك ، هو أول من وثب للساحل ، وتلا ذلك وصول قارب نائب الملك الذى كنت فيه ، وفى الهجوم الأول دارت معركة قاسية ، بسبب ضيق النهر (كذا) جدا فى هذا الموضع . كما كان على حدود المدينة عدد كبير من المدافع ، استولينا على أكثر من أربعين قطعة منها . وفى هذا الهجوم كان هناك أربعة وستون مسلما قد أقسموا على النصر أو الشهادة لأن كلا منهم كان قائد سفينة ، لذلك فقد أطلقوا نحونا فى الهجوم الأول كثيرا من قذائف المدافع لكن الرب ساعدنا فلم يقتل منا أحد ، بينما قتل منهم حوالى مائة وأربعون شخصا كان من بينهم ستة قتلهم فى حضورى دون لورنزو ، وقد جرح منهم كثيرون . لقد وصلت المعركة ذروة القسوة بعد وقت قصير من بدايتها ، لكن بعد تمكن السفينتين التابعتين لنا ، وهما من النوع ذى الشراعين من الساحل ، بدأ هؤلاء الكلاب يتراجعون ، ولما بدأ الجزر لم نعد قادرين على مطاردتهم أكثر من ذلك ، وبدأ هؤلاء الكلاب

(٨٢) ٣٤ ميلا الى الجنوب الشرقى من كلكتا ، على الشاطئ الجنوبى لنهر يحمى الاسم نفسه . . . (عن بادير) .

يتزايدون فقدفنا النار على سفنهم ، فاشتعلت منها ثلاث عشرة سفينة كانت في غالبها جديدة وضخمة . ثم سحب نائب الملك كل مقاتليه الى البر الرئيسي ، حيث منح رتبة الفارس لبعض المقاتلين ، وكنت من بين هؤلاء بفضل من نائب الملك ، الذي منح الرتبة نفسها لأكثر القادة شجاعة . وهو ترستان دا كوجنا ، الذي كان ضامنا لي . وبعد ذلك بدأ نائب الملك في الاشراف على ركوب مقاتليه ، وان استمر في احراق منازل كثيرة في باناني (بقصفها) ، وقد تم كل هذا بفضل الرب دون أن يموت منا أحد . وأبحرنا الى (كانونور) فزود قائدنا السفينة بالمؤن بمجرد وصوله .

السَّفَرُ الثَّامِنُ (الْأَخِيرُ)

سواحل شرق أفريقيا

(Ethiopia) سواحل شرق أفريقيا

الى أولئك الذين يرغبون العمل فى مجال التاريخ وعلوم الكون
Cosmography التى يمكنهم عن طريقها أن يشاركوا فى تحقيق مزايا
عامة ، كما هو ملموس فى مناسبات عديدة ، كما يمكنهم الاحتفاظ بالشهرة
والخلود عن طريق الانهماك فى الحياة الجادة والعمل الدؤوب - الى هؤلاء
نقول ان لا شئ أكثر ضرورة وأهمية من أن تكون ذاكرتهم قوية متماسكة
حتى يكونوا قادرين على تذكر ما وقع لهم فى أى مكان سبق أن مروا به
دون خلط أو اضطراب حتى لا يتعرضوا من قبل الذين يتابعون أعمالهم
بنقد حاد لا يرحم ، أو حتى لا يتعرضوا للاهمال أو الاتهام بضعف الذاكرة .
لذا فإننى أعدك فى هذا الاستهلال أن أعرض لك جانبا من أثيوبيا (شرق
أفريقيا) بعد أن تركت المشاكل والمتاعب التى فرضت نفسها على . فأننا
الآن فى طريق عودتى ، وهناك فرصة لتحقيق هذا الوعد ، وسأعرض لك
حديثى عن أثيوبيا بإيجاز حتى تنهى قراءة عملى هذا بسرعة ، وأستريح
أنا فى وطنى .

الجزر المختلفة فى ساحل أفريقيا الشرقى (أثيوبيا)

فى السادس من ديسمبر توجهنا الى سواحل شرق أفريقيا وعبرنا
الخليج ، وقطعنا حوالى ثلاثة آلاف ميل حتى وصلنا الى جزيرة موزمبيق
Mozambich (١) التابعة لملك البرتغال . وقبل وصولنا الى هذه الجزيرة
رأينا بلدانا كثيرة تابعة لسيدي ملك البرتغال my lord the king of
Portugal وقد احتفظ سيدي ملك البرتغال بتحصينات قوية فى هذه
المدن (الجزر) خاصة مالندى Melindi ، وهى مملكة ، ومبسة
Mombaza التى أحرقها نائب الملك البرتغالى ، وفى كلوة Chilva
توجد قلعة برتغالية ، كما تم بناء قلعة أخرى فى موزمبيق Mozambich
وفى سفالة Zaphala توجد أيضا قلعة برتغالية حصينة جدا . ولا أصف
لك ما فعله القائد الباسل ترستان دا كوجنا Tristan da Cugna ، فهو
الذى استولى فى طريقه الى الهند على كوجيا Cogia وباتى Pati وبرافا
Brava الجزيرة الحصينة جدا - وسوقطرة Sacutara التى يحتفظ
فيها الملك البرتغالى بقلع حصينة . ولا أصف لك الحروب التى دارت
لأننى لم أكن حاضرا وقتها .

ولن أتحدث أيضا عن كثير من الجزر الجميلة التى رأيناها فى طريقنا،
بما فى ذلك جزيرة القمر the island of Cumere التى يحيط بها ست

(١) كذا بالأصل ، وربما يقصد احدى الجزر المقابلة لساحل موزمبيق (المترجم)

جزر أخرى وينمو فيها (جزيرة القمر وما حولها من جزر) كثير من الزنجبيل وقصب السكر وكثير من الفاكهة الفريدة Singular fruits . كما تنمو بها - وبوفرة - أعلاف مختلف أنواعها - للحيوانات . وعلى النحو نفسه ، فأنني لا أذكر لك شيئا عن جزيرة أخرى جميلة يقال لها بندا Penda . يربطها بالملك البرتغالي علاقة صداقة ، وهي جزيرة خصبة وقد أوتيت من كل شيء (١) .

• جزيرة موزمبيق وسكانها •

دعنا نعد للحديث عن موزمبيق التي حصل منها الملك البرتغالي على كميات هائلة من الذهب والزيوت (حصل الملك البرتغالي أيضا على كميات هائلة من الذهب والزيوت ، من جزيرة سفالة Zaphala) والتي كانت ترد (أى كميات الذهب والزيوت) من البر المواجه للجزيرة . وقد مكثنا فى هذه الجزيرة حوالى خمسة عشر يوما ، وقد وجدناها جزيرة صغيرة وسكانها سود وفقراء ، وليس فى هذه الجزيرة الا طعام قليل جدا ، لذا فان الطعام يورد اليها من البر المواجه لها ، وهو ليس بعيدا . ومع هذا ، ففى الجزيرة ميناء جيد جدا . وفى بعض الأحيان ، كنا نذهب الى البر المواجه للجزيرة لنرفه عن أنفسنا ولنشاهد هذه البلاد التي رأينا فيها بعض الأجناس السوداء تماما ، وعراة تماما الا من لحاء شجر يستتر به الرجال ، وأوراق شجر تضع الواحدة من نسائهم واحدة على القبل وأخرى على الدبر . ولهؤلاء الناس شعور منتصبية (واقفة) وقصيرة their hair short & bristling up وشفاههم غليظة فى غلظ اصبعين ، ووجوههم عريضة ، وأسنانهم كبيرة وبيضاء جدا كالثلج . وهم جبناء جدا ، خاصة عندما يرون رجالا مسلحين . أما وقد رأينا قلة عدد هؤلاء السوائهم وتفاهتهم فقد اصطحبنا دليلا من جزيرة موزمبيق (وقد كان عددنا حوالى خمسة أو ستة ، وكنا مسلحين جيدا بأسلحة نارية Spingarde) . تجول بنا فى المناطق المواجهة للجزيرة حيث استمتعنا برحلة ممتعة وقد وجدنا عددا كبيرا من

(١) موزمبيق ومالندى وممبسه وكلوه وسفاله وأنجوكسا Angoxa وباته Pate وبراغا Brava وبمبا ، وجزر القمر ، بالإضافة الى جزر أخرى قليلة غير مسماة - حاصرها جميعا البرتغاليون فى الفترة من ١٤٩٨ الى ١٥٠٧ وهم فى طريقهم للهند وعند عودتهم منها . وقد أوردت بعض الملاحظات التاريخية عن العرب الذين استقروا فى هذه المناطق لعدة قرون قبل وصول البرتغاليين - فى مقدمة هذا الكتاب . أما جزيرة سوقطرة التي تقع على بعد مائة ميل وعشرين ميلا من الطرف الشمالى الشرقى للبر الافريقى ؟ فقد استولى عليها الاسطول البرتغالى أواخر سنة ١٥٠٧ (عن بادجر) .

الفيلة في جماعات وقد أرشدنا دليلنا الى أن نحمل معنا قطعاً من الأخشاب (الأغصان) الجافة نبيعها مشتملة دائماً ، لأن الفيلة اذا رأت النار ، فانها تبتعد ، وهذا صحيح ، الا أنه حدث ذات مرة أن قابلنا ثلاثة فيلة اناثاً تتبع صغارها ، وقد عدت هذه الفيلة خلفنا حتى الجبل ، حيث اختبأنا ورحنا نسير في هذا الجبل حوالى عشرة أميال على الأقل ، ثم نزلنا من فوق هذا الجبل من الناحية الأخرى ووجدنا بعض الكهوف كان يلوذ بها بعض الزوج من أهل المنطقة ، وكانوا يتكلمون بطريقة أجد عناء كبيراً في أن أشرح للقرء كيفيتها . ومع ذلك فساهموا جهد الطاقة أن أشرحها لكم . فعلى سبيل المثال ، نلاحظ أن البغال (قائد البغال) عندما يتبع بغله في جزيرة صقلية Sicily ، ليحمله على المسير فانه يضع لسانه في أعلى باطن فمه ، ليخرج الحانا خاصة وأصواتاً معينة ، تدفع البغل للسير . ان أصوات البغالين هذه وطريقة اخراجهم لها (للأصوات) تشبه طريقة كلام هؤلاء الناس ، وبالإضافة للأصوات فانهم يستخدمون الاشارات حتى يمكنهم الفهم . وقد سألنا دليلنا اذا كنا نرغب في شراء بعض الأبقار والثيران لأنه يستطيع أن يجلبها لنا بسعر رخيص وقد أجبناه بأننا لا نملك نقوداً ، مخافة أن يكون قد تفاهم مع هؤلاء السوائم على سرقتنا . الا أنه (أى دليلنا) قال : « ليس من حاجة للنقود للشراء ، فلديهم من الذهب والفضة أكثر مما لديهم ، فهما موجودان (الذهب والفضة) بالقرب من هنا ، وهم يذهبون لجلبها » . فسألناه : « فماذا يريدون إذن ؟ » فقال : « انهم مولعون بالمقصات الصغيرة ، ويحبون قطع القماش الصغيرة للفقها حول أجسامهم ، وهم شغوفون جداً ببعض الأجراس الصغيرة لتقديمتها لأطفالهم ، كما أنهم يرغبون في أمواس الحلاقة » فقلنا له : « سنقدم لهم بعض هذه الأشياء اذا أحضروا الأبقار للجبل » فقال الدليل : « سوف أرى ما اذا كانوا سيحضرونها الى قمة الجبل - لكن ليس أبعد من ذلك - لأنهم لا يتخطون ذلك الحد أبداً . أخبرني على أية حال ماذا سنقدمه لهم ؟ » فقال أحدهم رفاقنا وهو مدفعي bombardier : « سأقدم لهم موسى حلاقة جيداً وجرساً صغيراً » أما أنا ، فلكي أحصل على طعام حيواني ، فقد خلعت قميصي ، وقلت اننى سأقدم لهم قميصي هذا . فلما رأى دليلنا ما سنقدمه قال : من الذى سيقود هذه الأبقار الكثيرة الى الساحل ؟ فأجبنا : « اننا على استعداد لاصطحاب الأبقار التي سيقدمونها لنا الى الساحل ، مهما كثر عددها ؟ » عندئذ أخذ دليلنا ما أعطيناه له وقدمه الى خمسة رجال أو ستة منهم ، وطلب منهم ثلاثين بقرة ، فأبدى هؤلاء الرجال (السوائم) من الاشارات ما يفيد أنهم سيقدمون لنا خمس عشرة بقرة . فأخبرنا دليلنا بالموافقة ، لأن هذا العدد كان كافياً ، وسرعان ما جمع الزوج خمس عشرة بقرة على قمة الجبل . الا أننا بعد أن ابتعدنا قليلاً عنهم بدأ الزوج الذين كانوا فى الكهوف يصدرون أصواتاً ، فظننا

انهم يزعمون اللحاق بنا ، فتركنا الأبقار ولجأنا جميعا لأسلحتنا الا أن الزنجيين اللذين كانا يقودان الأبقار بينا لنا ببعض اشاراتهم ألا نخاف . وقال لنا دليلنا ، انهم لابد أن يتعاركوا لأن كل واحد منهم يريد الجرس لنفسه . عندئذ أخذنا الأبقار مرة أخرى وذهبنا الى قمة الجبل ، وعاد الزنجيان في طريقهما . وعند هبوطنا من فوق الجبل في طريقنا للساحل مررنا عبر بساتين كبابة (٢) Cubebs مسافة تقارب الخمسة أميال ، واكتشفنا وجود جانب من الفيلة التي كنا قد قابلناها عند ذهابنا وقد جعلنا ذلك نصاب بالرعب فتركنا - مضطرين - بعض الأبقار التي كرت عائدة الى الزنوج ، أما نحن فقد تمكنا من العبور الى جزيرتنا (٣) . وعندما أصبحت سفننا مجهزة بكل ما نحن في حاجة اليه ، أبحرنا الى رأس الرجاء الصالح ، ومررنا بجزيرة سانت لورنزو San Lorenzo (٤) التي تبعد عن البر الأفريقي ثمانين فرسخا (٥) Leagues ، وأظن أن ملك البرتغال سيغدو قريبا سيدها (ستتابع البرتغال قريبا) لأن البرتغاليين قد حاصروا بالفعل موضعين من الجزيرة وأصلوها نارا حامية Put them to fire & flame . ومن خلال ما رأيت في الهند ، وفي شرق أفريقيا (أثيوبيا) يبدو لي أن ملك البرتغال - إذا أذن الله - واصل انتصاراته فانه سيغدو أغنى ملوك الأرض . والحقيقة أن ملك البرتغال يستأهل كل خير ، ففي الهند - خاصة في ككن Cucin ، يتحول للمسيحية يوميا ما بين عشرة أشخاص واثني عشر شخصا من الوثنيين Pagans والمسلمين Moors ، ويتم تعميدهم ، فالمسيحية تنتشر يوميا بفضل هذا الملك ، وهذا هو السبب - فيما أعتقد - الذي يجعل الله ينصر هذا الملك ، وسيحقق له النجاح والرخاء في المستقبل .

(٢) ثمار نبات تابلي من الفصيلة الفلفلية - ويطلق اللفظ نفسه على النباتات المنتجة للثمار - (معجم الشهابي لمصطلحات العلوم الزراعية) - (المترجم) .

(٣) فيما يلي وصف بربوسا Barbosa لموزمبيق ، الذي يتضح منه أن المستوطنين العرب - على أيامه - رغم تبعيتهم للبرتغال الا أنهم استمروا في ممارسة نظامهم القضائي الخاص : « لما مررنا بأنجوكسا Angoxa في طريقنا للهند وجدنا ثلاث جزر قريبة جدا من البر الأفريقي ، احداها تسمى موزمبيق يسكنها المسلمون ولها ميناء جيد يتردد عليه المسلمون في طريقهم الى سوفالا Sofala وأنجوس (أنجوكسا) ولهؤلاء المسلمين شريف يحكمهم ٠٠٠٠ » - (بادجر) .

وموزمبيق بطبيعة الحال هي البر الأفريقي المواجه للجزيرة آفلة الذكر - (المترجم) .
(٤) جزيرة مدغشقر ، اسماها البرتغاليون جزيرة سان لورنزو ، ويؤكد بعض الباحثين أن لورنزو دي ألميدا هو الذي اكتشفها سنة ١٥٠٦ ، الا أن باحثين آخرين يؤكدون أن أول من زارها من الأوروبيين هو ترستان دي كنوا Cunna واصطدم أسطوله بالمسلمين في أكثر من مدينة على الساحل الشرقي للجزيرة - (بادجر) .

(٥) الفرسخ ، قياس للطول يتراوح بين ٢٤ و ٤٦ من الميل - (المترجم) .

رأس الرجاء الصالح

دعنا الآن نواصل الحديث عن رحلتنا • فعندما عبرنا رأس الرجاء الصالح وابتعدنا عنه حوالى مائتى ميل ، أصبحت الرياح معاكسة ، وذلك لأنه كانت توجد عن شمالنا (الى اليسار) جزيرة سانت لورنزو وجزر أخرى كثيرة ، كانت تهب فيها (خلالها - أى خلال هذه الجزر) عواصف شديدة جدا لاكثر من ستة أيام ، وعلى أية حال ، فقد نجونا بفضل الله من أى حادث • وعندما قطعنا مائتى فرسخ واجهنا عاصفة هوجاء لاكثر من ستة أيام فتشتتت سفننا هنا وهناك ، وعندما هدأت العاصفة اتخذت كل سفينة طريقها مستقلة عن الأخرى ، ولم ير ركاب كل سفينة ، ركاب السفن الأخرى ، الا عندما وصلنا للبرتغال • ولقد كنت أجد ركاب سفينة بارثولومو ماركيني Batholomeo Marchioni الفلورنسى ، المقيم فى لشبونه ، وكانت سفينته تسمى سانتو فيسنتيو Santo Vicentio وكانت تحمل سبعة آلاف قنطار Cantara من البهارات المختلفة ، وقد مررنا بالقرب من جزيرة أخرى تسمى سانت هيلانة Santa Helena حيث رأينا حوتين كبيرين two fishes ، يبلغ حجم الواحد منهما ، حجم المنزل الكبير ، وكانا كلما ظهرا على سطح الماء ، يرفعان شيئا كمقدمة الخوذة أو حافة القبعة ، أظن أن عرضها يبلغ ثلاث خطوات passi • وكان الحوتان ينزلان هذا الشيء اذا رغبا فى الفوص مرة أخرى فى الماء • وقد كنا فى غابة الفزع من قوة هذه الحيتان (الاسماك) حتى اننا أطلقنا نيران كل مدافعنا وقد وجدنا جزيرة أخرى يقال لها أسينسون Lascension (٦) ، وجدنا بها نوعا كبيرا من الطيور ، يبلغ حجم الواحد منها حجم البطة (٧) وكانت هذه الطيور تحط على السفينة ، وهى طيور غبية وساذجة وغير حذرة ، اذ يمكن امساكها باليد بسهولة ، فاذا ما تم امساكها أبدت مقاومة عنيدة جدا (٨) • وكانت هذه الطيور قبل أن نمسك بها تنظر الينا بشكل يكاد يكون اعجازيا • ويرجع ذلك الى أنها (أى هذه الطيور) لم تر مسيحيين قبل ذلك فليس فى هذه الجزيرة سوى الأسماك والماء وهذه الطيور • وبعد أن عبرنا هذه الجزيرة ، وأبحرنا لعدة أيام - بدأنا نرى نجم الشمال the north Star ويذكر كثيرون أنه اذا لم يرنجم الشمال فانه يكون من المستحيل ، الابحار بأمان مهتدين بالقطب الجنوبي by Antarctic Pole • ودعنى

(٦) هى Ascension (بادجر) •

(٧) هى ما يعرف شعبيا باسم boobies (بادجر) وفى معجم مصطلحات العلوم الزراعية للشهابى هى الأطيش طائر مائى يطير ويسبح ومعروف بالبله لانه يدع الانسان يقترب منه لقصر قدميه وطول جناحيه مما يجعل بدء طيرانه صعبا - (المترجم) •

(٨) هى The Azores (بادجر) •

أقل لك ان البرتغاليين يبحرون دائما مهتدين بنجم الشمال رغم أن هذا النجم لا يظهر في بعض الأيام ، وفي هذه الحالة فان البوصلة المغناطيسية The magnet - على أية حال - تؤدي عملها مشيرة للقطب الشمالى Arctic Pole وبعد ذلك ببضعة أيام وصلنا الى جزر أزورو Astori الجميلة التى تتبع ملك البرتغال ، فقد رأينا أول ما رأينا جزيرة بيكو Pico ، فجزيرة كورفو Corvo فجزيرة فلوريس Flores ، فجزيرة سانت جورجيو San Giorgio فجزيرة جراتيوزا La Gratirosa ، وجزيرة فايل Faial ثم وصلنا الى جزيرة تريتيرا Tertiera حيث مكثنا فيها يومين . وهذه الجزر عامرة بالثمار والفواكه ، ثم غادرنا هذه الجزيرة متجهين صوب البرتغال فوصلنا الى لشبونه - المدينة العظيمة - فى سبعة أيام . وأتركك لتتصور - عزيزى القارئ - مدى السعادة التى غسرتنى ، والفرح الذى شملنى عند وصولى لليابسة . ولأن الملك لم يكن فى لشبونه ، فقد ذهبت للقاءه فى مدينة ألمادا Almada (٩) المقابلة للشبونة . وعندما وصلت اليها ذهبت لتقيل يد عظمته الذى أحاطنى برعاية فائقة منه ، واستبقانى عدة أيام فى بلاطه ليسمع منى عن أمور الهند . وبعد بضعة أيام ، أظهرت له براءة (وثيقة) الفروسية التى منحنى إياها نائب الملك (نائبه) فى الهند ، متوسلا إليه - اذا رغب - أن يعتمدها ، ويوقعها بيده ويختمها بختمه ، وعندما رآها ذكر لى أنه يسعده ذلك ، وتناول منى الوثيقة التى خطت على الجلد البرقيق (Parchment) ووقعها بيده ووضع عليها ختمه ، وتم تسجيلها ، ومن ثم استأذنت عظمته غنى الرحيل ، ووصلت الى مدينة روما .

(٩) ورد فى طبعة رامبوزيو Ramiusio التى تم انجازها سنة ١٦١٣ أن المدينة التى كان للملك البرتغالى بها هى الميريم Almeirim التى كان بها قصر للملك البرتغالى - (بادجر)

فهرس تفصیلی

٩	• • • • •	مقدمة الطبعة العربية
١٧	• • • • •	مقدمة صاحب الرحلات

السفر الأول :

٣٢ - ٢١	ملاحظات عابرة عن القاهرة وبيروت وطرابلس وحلب وحماة ودمشق
	- الوصول للاسكندرية (٢٣) القاهرة (٢٣)
	بيروت وطرابلس وحلب (٢٤) حماة ومنين (٢٦)
	دمشق (٢٦) الماليك في دمشق (٣٠)

السفر الثاني :

٦٢ - ٣٣	عن بلاد العرب الصحراوية • • • • •
	- الطريق من دمشق الى مكة (المكرمة) (٣٥)
	مدينة سدوم وعاموراء (٣٨) جبل يسكنه اليهود
	(٤٠) موضع دفن محمد صلى الله عليه وسلم
	وصحايقه (٤٣) قبر محمد صلى الله عليه وسلم
	وقبور أصحابه (٤٤) الرحلة من المدينة المنورة
	الى مكة المكرمة (٤٧) مكة المكرمة ولم يقصدها
	المسلمون (٥١) عن البضائع في مكة المكرمة
	(٥٣) طلب الغفران في مكة المكرمة (٥٣) الهدى
	والأضاحى في مكة المكرمة (٥٦) وحيد القرن في
	المسجد الحرام (٥٨) ذكر بعض الحوادث في
	الطريق من مكة المكرمة الى ميناء جدة (٥٩)
	جدة ميناء مكة والبحر الأحمر (٦١) لماذا كان
	البحر الأحمر غير صالح للملاحة (٦٢)

السفر الثالث :

٨٤ - ٦٣	بلاد العرب السعيدة • • • • •
	- جيزان وخصوبتها (٦٥) الهدو (٦٥) جزيرة

كمران فى البحر الأحمر (٦٦) عدن وبعض
عادات التجار (٦٧) شغف نساء بلاد العرب
السعيدة بالرجال البيض (٧١) الأميرة تتصرف
بتحرر (٧٣) الحج وعزم وقلعة دمت (٧٧)
المقارنة (٧٧) يريم (٧٨) صنعاء وحديث عن قوة
ابن الملك وقسوته (٧٩) تعز وزبيد وذمار (٨٠)
سلطان المدن المذكورة آنفا (٨٠) القروود والأسود
(٨١) زيلع المدينة الافريقية ورخائها وبعض
وبعض الحيوانات بها كالأغنام والأبقار (٨٢)
بربرة احدى الجزر الافريقية وشعبها (٨٣)

السفر الرابع :

بلاد فارس ٨٥ - ٩٦
- دبو بندر الروم وجوجو وجلفار ومسقط (٨٧)
هرمز وكيف يصيدون اللؤلؤ بها (٨٩) سلطان
هرمز وقسوة ابنه (٩٠) هراه فى خراسان
ووفرة الرواند بها (٩٢) نهر يوفرا (٩٣)
سمرقند (٩٤)

السفر الخامس :

(وهو السفر الأول عن الهند) ٩٧ - ١٢٤
مدينة كمبى (٩٩) منزلة سلطان كمبى (١٠٢)
مدينة جوغى (١٠٦) مدينة شول (١٠٧) دابولى
(١٠٨) كاوه (١٠٩) الدكن وجواهرها (١١٠)
الأحوال العسكرية (١١١) باتاكالا ووفرة الأرز
والسكر بها (١١٢) المقاطعات الهندية :
سنتاكولا وأونور ومانجولور (١١٣) وكانونور
(١١٥) بيسنجان فى مملكة تارسنجا (١١٧)
تناسل الفيلة (١٢٠) تورما باتانى وبانداراتى
وكابوجاتو (١٢٢)

السفر السادس :

(وهو السفر الثانى عن الهند) ١٢٥ - ١٥٢
كلكتا (١٢٧) ملك كلكتا ودين شعبها (١٢٨)
كيفية تناول ملك كلكتا لطعامه (١٣٠) البرهميون
(١٣٢) وثنيو كلكتا (١٣٢) لباس الملك والملكة

وسائر الناس في كلكتا وكذلك عن طعامهم (١٣٣)
الطقوس التي يمارسونها بعد موت الملك (١٣٤)
كيف يتبادل الوثنيون زوجاتهم (١٣٥) أسلوب
الحياة وضبط العدالة بين الوثنيين (١٣٦)
طريقة العبادة عند الوثنيين (١٣٧) الطريقة
التي يحارب بها الوثنيون (١٣٨) طريقة الابحار
في كلكتا (١٤١) قصر ملك كلكتا (١٤٢) بهارات
منطقة كلكتا (١٤٣) بعض فواكه كلكتا (١٤٤)
أكثر الأشجار فائدة في العالم (١٤٦) طريقة
بذرهم الأرض (١٤٧) الأطباء الذين يعودون
المريض في كلكتا (١٤٧) الصرافون في كلكتا
(١٤٨) كيفية اطعام البولياري والهيرافا أطفالهم
(١٤٩) الحياة في كلكتا (١٥٠) الاضياء في
منزل ملك كلكتا (١٥١) تلقى الغفران في كلكتا
في ٢٥ ديسمبر (١٥١)

السفر السابع :

١٥٣ - ٢٠٦

(وهو السفر الثالث عن الهند) . . .
— كبور ماندل (١٥٨) سيلان واستخراج الجواهر
(١٥٩) شجرة القرفة (١٦٠) باليكت (١٦٢)
تارناساري (١٦٢) الحيوانات المستأنسة
والمتوحشة في تارناساري (١٦٣) فض بكاره
زوجة الملك وسائر زوجات الوثنيين (١٦٥)
كيفية حفظ أجساد الموتى (١٦٦) احراق الزوجة
حية بعد موت زوجها (١٦٧) تطبيق العدالة
تارناساري (١٦٨) السفن في تارناساري (١٦٨)
مدينة بنجالا (١٦٩) التجار المسيحيون في
بنجالا (١٧٠) بيجو (١٧١) لباس ملك بيجو
(١٧٢) مدينة ملقى وقسوة أهلها (١٧٤)
سومطرة (١٧٥) الحرير والفلفل في مدينة
بيدر (١٧٦) خشب الند أو العود الهندي (١٧٧)
اللبان الجاوي والعود الهندي (١٧٨) تنوع
التجارة في سومطرة (١٧٨) منازل سومطرة
(١٧٩) جزيرة بانندان حيث يزرع جوز الطيب
والتابل المستخرج من قشوره (١٨١) جزيرة

مونوش حيث يزرع الفلفل (١٨٢) بورنيو (١٨٣)
 الملاحة فى جاوا (١٨٣) جاوا : عقائد اهلها ،
 والزراعة عندهم (١٨٤) كيف يبيع الاولاد آباءهم
 المعجائز لتصبح لحومهم طعاما (١٨٥) الشمس
 تلقى ظلا فى منتصف النهار (١٨٦) عودتنا
 (١٨٧) ادعائى الطب فى كلكتا (١٩٠) اخبار
 السفن البرتغالية التى وصلت كلكتا (١٩٢)
 كيفية هروغ المسلمين للمساجد (١٩٣) فرارى
 من كلكتا (١٩٤) وهربت من كانونور للبرتغاليين
 (١٩٥) اسطول كلكتا (١٩٨) عودتى الى
 كانونور بتكليف من نائب الملك البرتغالى (٢٠١)
 هجوم البرتغاليين على بانانى (٢٠٤)

السفر الثامن (الأخير) :

٢٠٧ - ٢١٤

عن سواحل شرق افريقيا
 - سواحل شرق افريقيا (٢٠٩) الجزر المختلفة
 فى سواحل شرق افريقيا (٢٠٩) جزيرة موزمبيق
 (٢١٠) رأس الرجاء الصالح (٢١٣)

اقرأ فى هذه السلسلة

- أحلام الاعلام وقصص اخرى
الالكترونيات والحياة الحديثة
نقطة مقابل نقطة
الجغرافيا فى مائة عام
الثقافة والمجتمع
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
الأرض الغامضة
الرواية الانجليزية
المرشد الى فن المسرح
آلهة مصر
الانسان المصرى على الشاشة
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة
الهوية القومية فى السيما العربية
مجموعات النقود
الموسيقى - تعبير نفسى - ومنطق
عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى
ديلان توماس
الانسان ذلك الإنسان الفريد
الرواية الحديثة
المسرح المصرى المعاصر
على محمود طه
القوة النفسية للآهرام
فن الترجمة
تولستوى
ستندال
رسائل وأحاديث من المنفى
الجزء والكل (محاورات فى مضمار
الفيزياء الذرية)
التراث الغامض ماركس والماركسيون
إدارة الصراعات الدولية
الميكروكمبيوتر
مختارات من الأدب اليابانى
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة
- بتراند رسل
ى • رادونسيكيا •
الدس هكسلى •
ت • و • فريمان
رايموند وليامز
ر • ج • فوربس
ليستر ديل راي
والتر ألن
لويس فارجاس
فرائسوا دوماس
د • قدرى حفى وآخرون
أولج فولكف
هاشم النحاس
ديفيد وليام ماكدونالد
عزيز الشوان
د • محسن جاسم الموسوى
أشرف س • بى كوكس
جون لويس
بول ويست
د • عبد المعطى شعراوى
أنور المعداوى
بيل شول وأندريت
د • صفاء خلوصى
رالف ثى ماتلو
فيكتور برومبير
فيكتور هوجو
فيرنر هيزنبرج
سيدنى هوك
د • السيد عيسى
د • مصطفى عيسى
صبرى الفضل
جابريل باير

اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

كتابة السيناريو للمسيما
الزمن وقياسه
أجهزة تكييف الهواء
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي
سبعة مؤرخين في العصور الوسطى
التجربة اليونانية
مراكز الصناعة في مصر الإسلامية
العلم والطلاب والمدارس

الشارع المصري والفكر
حوار حول التنمية الاقتصادية
تبسيط الكيمياء
العادات والتقاليد المصرية
التذوق السينمائي
التخطيط السياحي
البذور الكونية

دراما الشاشة (٢ ج)

الهيروين والايذ
صور أفريقية
نجيب محفوظ على الشاشة
فن الأدب الروائي عند تولستوي
أدب الأطفال
أحمد حسن الزيات

اعلام العرب في الكيمياء
فكرة المسرح
الجحيم

صنع القرار السياسي
التطور الحضاري للإنسان
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟
تربية الدواجن
الموتى وعالمهم في مصر القديمة

أنطوني دي كرسبني
وكينيث هينوج
دوايث سوين
زافيلسكي ف ٠ س
أبراهيم القرضاوي
بيتر رداي
جوزيف داهموس
س ٠ م بورا
د ٠ عاصم محمد رزق
رونالد د ٠ سمبسون
و نورمان د ٠ أندرسون
د ٠ أنور عبد الملك
والت روستو
فرد ٠ س ٠ هيسي
جون بوركهارت
الآن كاسبيار
سامي عبد المعطي
فريد هويل
شاندرأ ويكراما ماسينيح

حسين حلمي المهندس .
روى روبرتسون
دوركاس ماكلينتوك
هاشم النحاس
ف ٠ ع أدنيكوف
هادي نعمان الهيتي
د ٠ نعمة رحيم العزاوي
د ٠ فاضل أحمد الطائي
فرنسيس فرجون
هنري باربوس
السيد عليوة
جاكوب برونوفسكي
د ٠ روجر ستروجان
كاتي ثير
٠١ سبتر

د. ناعوم بيتروفيتش

جوزيف داهموس

د. لينوار تشامبرز رايت

د. جون شندلر

بيير البير

الدكتور غبريال زهبة

د. رمسيس عوض

د. محمد نعمان جلال

فرانكلين ل. باومر

شوكت الربيعي

د. محيى الدين أحمد حسين

تأليف : ج. دادلى اندرو

جوزيف كونراد

طائفة من العلماء الأمريكيين

د. محمد أسعد عبد الرؤوف

د. محمود سري طه

بيتر لورى

بوريس فيدروفيتش سيرجيف

ويليام بينز

ديفيد الدرتون

جمعها : جون ر. بورر

وميلتون جولد ينجر

أرنولد توينبى

د. صالح رضا

م. ه. كننج وآخرون

جورج جاموف

د. السيد طه أبو سديره

جاليلى جاليلى

أربك موريس ، آلان هو

النحل والطب

سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى

سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء

مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤

كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة

الصحافة

اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن

التشكيلى

الادب الروسى قبل الثورة البلشفية

وبعدها

حركة عدم الانحياز فى عالم متغير

الفكر الأوروبي الحديث (٤ ج)

الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى

١٨٨٥ - ١٩٨٥

التنشئة الأسرية والأبناء الصغار

نظريات الفيلم الكبرى

مختارات من الادب القصصى

الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد؟

حرب الفضاء

الكمبيوتر فى مجالات الحياة

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية

وظائف الأعضاء من الألف الى الياء

الهندسة الوراثية

تربية أسماك الزينة

كتب غيرت الفكر الانسانى

الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)

الفكر التاريخى عند الاغريق

قضايا وملاحق الفن التشكيلى

التغذية فى البلدان النامية

بداية بلا نهاية

الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية

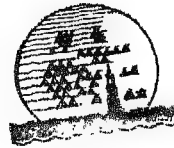
حوار حول النظامين الرئيسيين

للكون

الارهاب

سـيريل الـدريد
آرثر كيسـتلر
١٠ ج ٠ فويس
توماس ١٠ هـايس
مجموعـة من البـاحثين
روى آرمن
ناجـى مـتشينو
بول هـايسون
ميكائيل البى
جيمس لفلوك
فيكتـور مورجان
اعداد محمد كمال اسماعيل
الفردوسى الطوسى
بيرتون بورتر
جاك كرابس جونيور
محمد فؤاد كوبريلى
بول كونر
اختيار واعداد صبرى الفض
توفى بار
نادين جورديمر وآخرون
موريس بيربراير
آدامز فيليب
أحمد الشنوائى
جوناثان ريلى رسميث
ريتشارد شاخـت
زيجمونت هـبـنر
الفريد ٠ ج ٠ بـتلر
اعداد وتـقديم : د ٠ فيليب

اخناتون
القبيلة الثالثة عشرة
الثورة الاصلاحية فى اليابان
التوافق النفسى
الدليل البيليوجرافى
لغة الصورة
الثورة الاصلاحية فى اليابان
العالم الثالث غدا
الانقراض الكبير
تاريخ النقود
التحليل والتوزيع الأوركستراالى
الشاهنامة (٢ ج)
الحياة الكريمة (٢ ج)
كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩٠
قيام الدولة العثمانية
العثمانيون فى أوروبا
مختارات من الآداب الآسيوية
التمثيل للسينما والتلفزيون
سقوط المطر
صناع الخلود
دليل تنظيم المتاحف
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)
الحملة الصليبية الاولى
رواد الفلسفة الحديثة
جماليات فن الاخراج
الكنائس القبطية (٢ ج)
تراثيم نراديشيت



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٠٤٨٢ / ١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3583 — 6

هذه رحلات لودوفيكو ثارتيمبا ذى الأصل
الإيطالى ، الذى كان يعمل لحساب البرتغال ، وقد قام
برحلاته فى مطلع القرن السادس عشر ، وزار مصر
والشام والحجاز واليمن والقرن الأفريقى والخليج
العربى وفارس والهند وجزر أندونيسيا وهناك
ما يشير لوصوله لإستراليا ، وزار أثناء عودته سواحل
شرق أفريقيا ومز برأس الرجاء الصالح . وقد قدم
نفسه للناس فى الحجاز والخليج وفارس باعتباره
الحاج يونس المصرى ، أما فى الهند ، وأندونيسيا فقد
قدم نفسه على أنه الحاج يونس العجمى ، وذلك قبل
أن يسفر عن وجهه الأوروبى بهروبه لإحدى القلاع
البرتغالية فى الهند ، وقد ساعده على التغلغل فى
مجتمعات الشرق حاج فارسى . وهذه الرحلات زاهرة
بالملاحظات الإجتماعية التى لا تخلو من متعة
وطرافة بالإضافة لأهميتها للمهتمين بتاريخ الكشوف
الجغرافية ومرحلة الصراع الهامة فى القرن السادس
عشر ، ولأهميتها فى مجال التاريخ الإقتصادى ،
والتاريخ العسكرى — إذ يبدو أن ثارتيمبا — فيما
يقول المستشرق بادجر — كان عسكرياً سابقاً .